

# القَصَصُ الْقُرْآنِيّ

قراءة معاصرة

المجلد الثاني

من نوح إلى يوسف



د. محمد شحرور

القَصَصُ الْقُرْآنِيّ

قراءة معاصرة

تصميم الغلاف : سحر مغنية

د. محمد شحرور

# الْقَصَصُ الْقُرْآنِيّ

قراءة معاصرة

الجزء الثاني

من نوح إلى يوسف



© دار الساقى  
جميع الحقوق محفوظة  
الطبعة الأولى ٢٠١٢

ISBN 978-1-85516-807-7

دار الساقى  
بناية النور، شارع العوينى، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان  
الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣

هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٠٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٠٩٦١

e-mail: [info@daralsaqi.com](mailto:info@daralsaqi.com)

يكتكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

[www.daralsaqi.com](http://www.daralsaqi.com)

## المحتويات

٧	تقديم الكتاب .....
١١	تمهيد .....
١٥	نوح (عليه السلام) .....
٦١	هود (عليه السلام) .....
٧٣	صالح (عليه السلام) .....
٨٣	شُعَيْب (عليه السلام) .....
٩١	إبراهيم (عليه السلام) .....
١٥٣	الأوثان والأصنام والتماثيل .....
١٨٥	لوط (عليه السلام) .....
١٩٧	إسماعيل وإسحق (عليهما السلام) .....
٢٢٣	يوسف (عليه السلام) .....
٢٦٥	فهرس الأعلام .....
٢٦٩	فهرس الأماكن .....
٢٧٣	فهرس المصطلحات .....
٢٧٧	فهرس الآيات القرآنية .....



## تقديم الكتاب

ها نحن نضع بين يدي القارئ الكريم الجزء الثاني من سلسلة «القصص القرآني»، الذي يحوي قصص نوح وهود وصالح وشعيب، وأنباء إبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف. بعد أن أصدرنا قبل حين الجزء الأول، وبدأنا فيه أولى الخطوات مع قصة آدم على الطريق الذي رسمته لنا النبوات والرسالات، وأكدته الحفريات الآثارية والدراسات التاريخية الموثقة، وشرحنا العديد من المفردات والمصطلحات كما قرأناها وفهمناها في آيات التنزيل الحكيم، كالجنة في قوله تعالى ﴿...يَتَكَادَمُ أَشْجُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ...﴾ (البقرة ٣٥، الأعراف ١٩). ونفخة الروح في قوله تعالى ﴿ثُمَّ سَوَّيْنَاهُ وَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا...﴾ (السجدة ٩). والهبوط من الجنة في قوله تعالى ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ...﴾ (البقرة ٣٦).

نتابع في هذا الجزء السير على طريق النبوات لنرى كيف تراكمت علوم النبوة ومعارفها، وكيف اكتشف الإنسان النار ودفن الموتى، ثم كيف تعلم على يد نوح اجتياز الحواجز المائية، وعلى يد شعيب الوفاء بالكيل والميزان، وعلى يد يوسف ادخار محاصيل مواسم الخير لأيام القحط.

كما نتابع السير على طريق الرسالات لنرى كيف تنوعت الشرائع وتطورت من شرائع حدية إلى شرائع حدودية مع ميل واضح إلى التسهيل والتخفيف، وكيف اختلفت الشعائر - من حيث الشكل - في صورتها التعبدية، فالصوم كان صوماً عن الكلام مطلقاً، وصار صوماً عن الطعام والشراب وملامسة النساء



واجتناب الكلام البذيء والفاحش، والصلاة كانت دعاءً وذكرًا، ثم أخذت شكلاً شعائرياً قياماً وقعوداً وركوعاً وسجوداً يُشترط فيها الخشوع.

لقد جهدنا بهذا الكتاب في التعرف على ما كتب عن هؤلاء الأنبياء والرسل من معلومات تاريخية ووثائق أثرية، وعرجنا على العهد القديم والعهد الجديد، واقتطفنا بعض ما قيل عنهم، وأشرنا إلى الاختلافات في الروايات التي تصل أحياناً إلى حد التناقض، وتركنا للقارئ مقارنتها بما كتبه القرآن الكريم عنهم في قصصه، لعله يرى بنفسه مصداق قوله تعالى ﴿لِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (النمل ٧٦). ولا عجب في ذلك، فقد سُمِّي القرآن قرآناً لأنه قرن بين الأحداث التاريخية كما في قوله تعالى ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ \* فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ (البروج ١٧، ١٨)، وبين الأحداث الكونية كما في قوله تعالى ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (الغاشية ١)، وسُمِّي القرآن حديثاً للسبب نفسه، تحدى به سبحانه المكذبين في قوله تعالى ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور ٣٤)، وتعهّد بحسابهم في قوله تعالى ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَاذِبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ...﴾ (القلم ٤٤).

يبقى أن نشير أخيراً إلى أن القصد الإلهي الوحيد من القصص القرآني بما فيه القصص المحمدي هو التفكير والتدبر واستخلاص العبر والعظات. وإذا كنا قد استطعنا بعد التأمل - بفضل من الله وهدى - ونحن نقرأ قوله تعالى ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ...﴾ (إبراهيم ٣٧)، أن نستنتج أن البيت المحرّم كان قائماً في وادٍ قاحل لاشجر فيه ولا ماء حين وصل إليه إبراهيم في نهاية سفره، وكان معروفاً ومأهولاً، وأن القواعد التي أشار إليها سبحانه في قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ...﴾ (البقرة ١٢٧)، ليست الأساسات التي تقوم عليها الأبنية عادة كما توهم المفسرون، بل هي الإشغالات، بدليل ثلاثة أمور:

١ - لو كان رفع القواعد هو إقامة الأساسات لكان معنى ذلك أن البيت الحرام لم يكن موجوداً من قبل ، وهذا يتعارض عمودياً مع الآية ٣٧ من سورة إبراهيم .

٢ - ولكان معنى ذلك أن الله أمر إبراهيم وإسماعيل ببناء البيت، وهذا يتعارض عمودياً أيضاً مع قوله تعالى ﴿... وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البقرة ١٢٥)، ونفهم أن التكليف الإلهي نزل بتطهير البيت وليس بينائه، والتطهير لا يكون إلا للأبنية القائمة فعلاً .

٣ - ذرية إبراهيم التي أسكنها عند البيت المحرم، طبقاً للآية ٣٧ من سورة إبراهيم، كانت تشمل زوجته هاجر ورضيعها إسماعيل، أما في آيتي البقرة ١٢٥، ١٢٧ فإسماعيل شاب بلغ أشده في سنّ يصحّ معها التكليف بالتطهير، أي أن بين الآيتين فترة زمنية لا تقلّ عن عشرين عاماً. ولا يُعقل أن يساعد إسماعيل أباه في رفع أساسات بيت كان قائماً قبل عشرين عاماً .

وإذا كنا بعد التأمل قد استطعنا - بهدى من الله ونعمة - ونحن نقرأ في قصة يوسف أن يعقوب وأبناءه كانوا من الرعاة، بدلالة ذكر الجُبِّ والذئب في القصة، وأنهم أنفسهم الذين حكموا مصر تحت اسم الهيكسوس، وهم أنفسهم أسباط إسرائيل الإثني عشر الذين قتل الفراعنة أبناءهم واستحيوا نساءهم ثم دعوا الله مبتهلين فأرسل موسى وهارون ليخلصهم ويعيد إليهم حريتهم بعد طول استعباد. نقول إذا كنا قد استطعنا ذلك، فما هو إلا قطرة من بحر العبر والعظات التي يطفح بها القصص القرآني، وما هو إلا بداية متواضعة على طريق فهم تلك العبر واستخلاصها بانتظار أن يكتشفها الباحثون على مرّ التاريخ. والحمد لله ربّ العالمين .

دمشق في ١٣ فبراير - شباط ٢٠١١ .

الدكتور محمد شحرور



## تمهيد

يبدأ التمهيد بسؤال: ماذا حصل في الفترة الواقعة بعد الهبوط الثاني بين الإنسان العاقل العاقل الذي هو أجدادنا، وبين نوح؟ لقد بيّنت الأبحاث والتحريات بأن هذا حصل منذ حوالي أربعين ألف سنة حين انقرض إنسان نياندرتال وبقي أجدادنا نتيجة قفزة التجريد التي بيّنها قوله تعالى ﴿فَلَقَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة ٣٧) ثم جاء بعدها الهبوط الثاني ﴿فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَأَمَّا يَا تِينَتُكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ٣٨).

وهذا الهدى جاء بدايةً على شكل نُذُرٍ من الملائكة كان الله يبعثهم في قوله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر ٢٤) وقد استمرت النُذر مع نوح ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون ٢٤)، ومع هود ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ (الأحقاف ٢١) وإلى إبراهيم وإلى لوط وإلى صالح.

وكانت النُذر تأتي على شكل مُشَخَّصٍ يعرفون أنها ليست منهم وإنما هي رسالة من السماء. ونحن نرى في الأطروحة القديمة أن الحكام جاؤوا من السماء وأنهم من دم آخر رواية أسطورية لمفهوم النُذر الواردة في التنزيل الحكيم.

وبما أن نوح هو أول رسول من جنس البشر فهذا يعني أن البشرية تطورت إلى حد وجود لغة بسيطة في مجتمع بسيط يمكن أن يكون فيه وحي ومفاهيم

كالتوحيد وبرّ الوالدين والإيمان ومظاهر الطبيعة وكالمأ والأراذل .

أما عن العهد الذي سبق نوح وذكر في التنزيل الحكيم فيتمثل في :

١ - دفن الموتى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِثُ سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَقُ بِعَجْرَتٍ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْفَرَابِ فَأُورِثُ سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (المائدة).

٢ - اكتشاف النار واستعمالها: حيث كانت من حرائق الغابات وشاهدها الإنسان لمدة طويلة واكتشف خواصها بالمشاهدة وذلك في قوله تعالى ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (يس ٨٠). هذه الآية تتحدث عن أن الإنسان تعلم إشعال النار من حرائق الغابات. أما كيف أشعل الإنسان النار بنفسه بالاحتكاك أي بدون أن يكون هناك نار ليقبّس منها فقد جاء بشكل متأخر عن استعمال الإنسان للنار<sup>(١)</sup>.

وعلينا أن نتذكر ما هي المدة الطويلة التي قطعها الإنسان حينما ولّد طاقة حرارية من طاقة ميكانيكية (الاحتكاك) حتى وصل إلى توليد قوة ميكانيكية من طاقة حرارية (المحرك البخاري) علماً بأن اختراع المحرك البخاري يُعدّ من أهم ثورات المعرفة في التاريخ الإنساني.

(١) يجب التنويه هنا بأن تحريّات حديثة جرت في جنوب أفريقيا وجدت أثراً تُبيّن أن الإنسان استعمل النار منذ حوالي ثمانمائة ألف سنة، وقد استعملها للطهو وهي التي هيأت لنفخة الروح فيما بعد، حيث إن الطعام المطهو يعطي طاقة للجسم تزيد بحوالي ٢٠ - ٢٥٪ عن الطعام غير المطهو لنفس الكمية، مما سمح للجهاز الهضمي بأن يصغر والدماغ بأن ينمو لأنه يستهلك وحده ٢٠٪ من استهلاك طاقة الجسم كله، ومنه ينتج أن الإنسان أشعل النار بنفسه بواسطة الاحتكاك في الفترة الواقعة بين آدم ونوح.

وقد دلّت التحريّيات أن إنسان نياندرتال كان يستعمل النار وكان يدفن الموتى . فإذا كان ذلك كذلك فإن إشعال النار بالاحتكاك ودفن الموتى حصلا بين الهبوطيين الأول والثاني، أي عندما كان الإنسان العاقل وإنسان نياندرتال، ولعلّ إنسان نياندرتال تعلّمها من الإنسان العاقل أي قبل الإنسان العاقل العاقل (أجدادنا).

لذا فلا يوجد في التنزيل الحكيم ما يُغطّي فترة ما قبل نوح إلا هاتين الظاهرتين .  
الآن نتقل إلى نوح . . .



## نوح عليه السلام

كان نوح (ع) أول نبي آدمي يوحى إليه، بدلالة قوله تعالى مخاطباً نبيه الكريم (ص) ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ...﴾ (النساء ١٦٣). وكان قومه قبل مبعثه يكذبون رُسل الله إليهم، بدلالة قوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء ١٠٥)، ويعرفون أن هؤلاء الرُسل النذر ليسوا مثلهم من جنس البشر بل هم ملائكة مُشَخَّصة طبقاً لقوله تعالى ﴿فَقَالَ الْمَلَأُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون ٢٤).

أما رسالته كرسول فكان عمودها الفقري التوحيد الذي دارت حوله دعوات النذر والمرسلين قبله، إضافة إلى قيمة إنسانية نزل بها أمر الله لأول مرة إلى رسوله نوح هي برّ الوالدين، وذلك في قوله تعالى على لسان نوح ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا...﴾ (نوح ٢٨).

ولقد ورد ذكر نوح في التنزيل الحكيم ثلاثاً وأربعين مرةً أولها في آل عمران ٣٣، وآخرها في نوح ٢٦، وهناك سورة كاملة في التنزيل الحكيم سُميت باسمه هي السورة رقم ٧١.

فإذا نحن رتلنا هذه الآيات في رتلٍ واحد ونظرنا فيها أمكننا أن نرى العبر والعظات التالية:



١ - وجود أداة تواصل لغوية في عهد نوح بأبسط صُورِها، تسمح بالوحي من جانب ، ويستحق الناطقون بها اسم (قوم) الذي أطلقه عليهم التنزيل الحكيم من جانب آخر. هذا التطور الذي ارتقى باللغة من مرحلتها الطفولية حيث تنحصر مفرداتها بمقطع واحد أو مقطعين إلى مرحلة أكثر تقدماً تتعدد فيها المقاطع والمفردات فتسمح كما قلنا بالوحي، ويصدق معها قوله تعالى عن الحوار بين نوح وقومه ﴿قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِنَا نَعِدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ (هود ٣٢)، وقوله تعالى ﴿حَدَّ \* عَسَىٰ \* كَذٰلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الشورى ١-٣). أي أنه لم يبدأ الوحي إلى الجنس البشري إلا عندما تشكّل الكلام الإنساني من مقطعين صوتيين وثلاثة مقاطع ثم ازدادت.

٢ - ظهور علاقات واعية وإنسانية بسيطة بين أفراد المجتمع.

٣ - ظهور أول قيمة أخلاقية إنسانية هي برّ الوالدين وطلب المغفرة لهما، وهذا يعني اكتمال الوعي الأسري في أول مراحل من خلال وعي الأولاد لوالديهم ووعي الوالدين لأبنائهم، حيث أطلق التنزيل الحكيم على الأسرة في عصر نوح اسم (الأهل)، إضافة إلى التوحيد الذي لم تخل منه دعوات الأنبياء والرسل جميعاً.

٤ - وجود عبادة ظواهر الطبيعة بدلالة قول نوح لقومه ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا \* وَجَعَلَ اللَّيْلَ فِيهِنَّ نَوْرًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ بِرَاجًا﴾ (نوح ١٥-١٦). وهذا يدلّ على أن مجتمع نوح لم يكن متقدماً إلى درجة تُصنّع فيها بشكل متطور التماثيل والأصنام التي تحتاج لصنعها إلى وسائل وأدوات لم تكن قد وجدت بعد بشكل واضح وكثيف.

وإن كان نوح وقومه يعيشون في منطقة الشرق الأوسط - كما قال كثير من الدارسين - فقد ثبت أن أقدم ظاهرة وثنية ظهرت في هذه المنطقة هي عبادة ظواهر الطبيعة من شمس وقمر ونجوم وكواكب وأرض وسماء. ويؤكد ما ذهبنا

إليه قوله تعالى على لسان قوم نوح وهم يتنادون لتكذيبه ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿نوح ٢٣-٢٤﴾. والشاهد في الآيتين السابقتين هو قولهم (لاتذرن آلهتكم) أي لاتتركوا معبوداتكم. أما وَدٌّ وَسُوَاعٌ وَيَغُوثُ وَيَعُوقُ وَنَسْرٌ، فهذه ليست من الآلهة المعبودة، وشرحها يقودنا إلى الفقرة ٥ / ٥ .

٥ - ظهور سدنة وكهّان يقومون على خدمة الآلهة المعبودة وينطقون باسمها، بدلالة آيتي نوح ٢٣، ٢٤. حيث تم التفريق بين الآلهة المعبودة وبين هؤلاء الهامانات الخمسة الذين أضلوا كثيراً من الناس، إذ المعبودات ذاتها من شمس وقمر وكواكب وبراكين وزلازل وصواعق لا تُضِلُّ أحداً، والذي يهدي ويُضِلُّ هو العاقل. هؤلاء الكهّان والسدنة هم الذين تحوّلوا فيما بعد إلى حاخامات وقساوسة ومشايخ ورجال دين يتحدثون بالنيابة عن الرسل، تماماً كما كان أسلافهم يتحدثون بالنيابة عن الشمس والقمر.

٦ - عدم وجود تشريعات من أي نوع، لأن مفهوم التشريع لم يوجد بعد، والمجتمعات ما زالت بدائية لا تجارة فيها ولا بيع ولا شراء، وجريمة القتل الأولى التي حصلت مع ابني آدم لم يشرّع تحريمها إلهياً إلا على بني إسرائيل.

٧ - عدم وجود شعائر تمثل أركان الإيمان، كالصلاة والصوم والحج، رغم نمو مفهوم طلب المغفرة الذي ولد أيام آدم - كما أسلفنا - وذلك في قوله تعالى على لسان نوح ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ﴾. ﴿نوح ٢٨﴾.

٨ - لم تكن السباحة في الماء معروفة في عصر نوح على الأقل تلك التي تختص بمواجهة حالة طوفان كبير، بدلالة قوله تعالى ﴿يَمَّا خَطَيْتَنِيهِمْ أَغْرَقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا﴾. ﴿نوح ٢٥﴾.

٩ - لم يكن اجتياز الحواجز المائية (بحار، بحيرات، أنهار كبيرة) معروفاً إلا بشكل قليل، بدليل أن صنع الفلك لمواجهة الطوفان احتاج إلى وحي من الله ورعاية ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾. ﴿هود ٣٧﴾.

١٠ - ظهور مفهوم الذِّكْر والتذكير باللَّه في أشكاله الأولى بدليل قوله تعالى ﴿أَوْ عَجِزْتَ أَنْ جَاءَكَ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكَ...﴾ (الأعراف ٦٣).

١١ - عدم وجود أدوات أو وسائل إنتاج، حيث تم صنع طوف من ألواح خشبية مشدود بعضها إلى بعض بألياف طبيعية، بدليل قوله تعالى ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ (القمر ١٣).

١٢ - عدم وجود وسائل تجديد أو توجيه أو دفع (مجازيف، دقة، أشعة)، فالأطواف لا تتحرك إلا بفعل الأمواج والتيارات.

١٣ - لم تكن الأنعام قد ذُلَّت بعد في عهد نوح، ولم تكن الزراعة قد اتسعت، حتى لو سلّمنا جدلاً بوجود بعض أنواع الحيوانات المستأنسة، فهي قليلة. أما ما يقوله أهل التوراة وَمَنْ لَفَّ لَقُّهُمْ وأخذ عنهم من مفسرين ومؤرخين من أن نوح بنى سفينة من ثلاثة طوابق وضع فيها زوجين من كل حيوانات الدنيا وطيورها بسباعها وأفيالها ونسورها وجمالها، ومن كل نباتات الدنيا وأشجارها، إلى جانب ما يحتاج إليه ركاب السفينة من طعام، فليس عندنا بشيء. لسبب بسيط هو أن ذلك كله يحتاج إلى أسطول من حاملات الطائرات وليس إلى طوف بدائي من ألواح ودر.

ولا تقدّم نتائج التنقيبات الأثرية والأبحاث التاريخية والأنثروبولوجية دليلاً قاطعاً جازماً على زمن حصول الطوفان، لكنها تؤكد حصوله، وذلك بالاستناد إلى الوثائق التي تحدثت عنه ولاسيما في موطن الطوفان الأول في بلاد ما بين النهرين. يبدو أن رواية الطوفان الذي كان محلياً قد تعمّمت في شتى ثقافات الشعوب شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، مع اختلاف في تفاصيل الحكاية، لكنّ المبدأ العام يستند إلى ضرورة حصول طوفان من أجل معاقبة الإنسان وإعادة إنتاج نسل صالح جديد، عبر رجل صالح وحكيم اختاره الإله لهذه المهمة ونجا من الطوفان مع أتباعه الصالحين. وما يعيننا هنا هو أن رواية الطوفان السومرية (الرافدية) والتي تُعتبر الرواية الأولى تاريخياً قد جرى تطويرها في الرواية البابلية،

<http://abuabdoalbagl.blogspot.com/>

ثم تم نقلها إلى التوراة حيث جرت إضافات عليها بما يلائم الشخصية اليهودية، ومن ثم نجدها قد وردت في القرآن الكريم بشكلها النهائي، متبعة الخطوط العامة للرواية المشرقية، غير أنها منزلة من الله إلى البشر في حين أن رواية الطوفان المشرقية كانت بشرية المصدر .

ويمكننا مقارنة روايات الطوفان ما قبل القرآنية وصولاً إلى قصة النبي نوح في القرآن الكريم منطلقين من المنجز السومري الرافدي.

### الطوفان السومري

أول وثيقة تذكر رواية الطوفان نجدها في نص مسماري عُثر عليه في مدينة نمر (نيبور) الرافدية ويعود إلى بداية الألف الثاني قبل الميلاد، يبدو أن هذه الرواية انتقلت من الحيز الشفاهي إلى الكتابي، حيث يبدو أنها موعلة في القدم ربما إلى الألف الخامس أو الرابع قبل الميلاد في فترة الثقافة العبيدية.

يتألف هذا النص من ستة حقول، ويتحدث عن الطوفان ومقدماته:

أولاً: ثمة قرار إلهي بإنهاء الحياة على الأرض عبر طوفان شامل.

ثانياً: انتقاء مُخلص لإنقاذ البشر بعد الطوفان، لابل وإنقاذ الحيوانات.

ثالثاً: حصول الطوفان وإنقاذ الحياة عبر المُخلص، محبوب الإله.

رابعاً: انتهاء الطوفان وانبعاث الحياة من جديد عبر المُخلص ومراقبيه.

وفي الرواية أن مجمع الآلهة انعقد لإقرار ضرورة إفناء الحياة بواسطة طوفان يغمر الأرض، ولم يحصل أمر الطوفان على الإجماع الإلهي مما يدفع الإله انكي إلى مساعدة البشر عبر اتصاله بنوح السومري / زيوسودرا/ ، وزيوسودرا كان ملكاً تقياً رأى حلمًا سيئاً وطلب من الإله من وراء الحجاب أن يكشف له عن معنى الحلم، فأبلغه الإله أن الطوفان حاصل وثمة حاجة لأن ينقذ زيوسودرا نفسه، وطلب منه بناء سفينة كبيرة تحمل الصالحين من البشر وبعض الحيوانات، وينتهي النص المهشم بذكر نجاة زيوسودرا وتقديمه القرايين للآلهة / كبش وثور/ حيث يكافأ بإعطائه نعمة الخلود وإسكانه في أرض دلمون (الجنة السومرية).

لنقرأ:

«في تلك الأيام زيوسودرا كان ملكاً و قِيماً على المعبد

قام بتقديم [قربان] عظيم

وجعل يسجد بخضوع [ويركع] بخشوع

ودونما كلل توجه للآلهة [في المعبد]

فراى في أحد الأيام حلماً لم ير له مثيلاً

الإله [...] جدار [...] . . .

وعندما وقف زيوسودرا قرب الجدار سمع صوتاً:

«قف قرب الجدار على يساري واسمع

سأقول كلاماً فاتبع كلامي

أعط أذنأ صاغية لوصاياي

إننا مرسلون طوفاناً من المطر [...] . . .

فيقضي على بني الإنسان [...] . . .

ذلك حكم وقضاء من مجمع الآلهة

أمر آنو وانليل

[فنضع حدأ] لملكوت البشر»

- «هبت العاصفة كلها دفعة واحدة

ومعها انداحت سيول الطوفان فوق [وجه الأرض].

ولسبعة أيام وسبع ليال

غمرت سيول الأمطار وجه الأرض

ودفعت العواصف المركب العملاق فوق المياه العظيمة

ثم ظهر «أوتو» (إله الشمس السومري) ناشراً ضوئه في السماء على الأرض

فتح زيوسودرا كوة في المركب الكبير

تاركاً أشعة البطل أوتو تدخل منه

زيوسودرا الملك

خرّ ساجداً أمام أوتو  
ونحر ثوراً وقدم ذبيحة من غنم»  
- «زيوسودرا الملك  
سجد أمام آنو وانليل  
وكمثل إله وهباه حياة أبدية  
ومثل إله وهباه روحاً خالدة  
عند ذلك زيوسودرا، الملك  
دعي باسم حافظ بذرة الحياة  
وفي أرض [...] أرض دلمون  
حيث تشرق الشمس أسكنه.

إن تشوّه النصّ المسماري لا يقدم معلومات تفصيلية، لكنه يعطينا فكرة  
أساسية حول الطوفان سنجد تطورها في الرواية البابلية .

### الطوفان البابلي

قدّمت وثائق الرافدين العائدة للألف الثاني قبل الميلاد معلومات دقيقة  
وغزيرة عن معالم الطوفان البابلي، وهذا ما نجده في ملحمة جلجامش، الملك  
السومري الذي حكم مدينة أوروك في حوالي ٢٦٥٠ ق.م .  
تتحدث الملحمة عن ملك أوروك الذي يُفجّع بموت صديقه ونذّه أنكيديو،  
ويقف أمام الموت ورهبته مصدوماً، ويسعى للبحث عن الحياة الخالدة، معانياً  
الصعوبات والعذاب حتى استطاع الوصول إلى نوح البابلي/أوتونابشتيم/ الذي  
مُنح الحياة الأبدية من قبل الآلهة.  
ويتحدث أوتونابشتيم لجلجامش عن الطوفان وعن اختياره من قبل الآلهة  
لإنقاذ الحياة على الأرض ثم يدلّه على عُشبة في أعماق البحر تمنح الخلود  
للإنسان .

يمضي جلجامش ويعثر على العشبة لكنّ أفعى تخطفها ويفقد الحياة الأبدية

ويُكتب الموت عليه كباقي البشر .  
نقرأ في الملحمة :  
قال جلجامش لأوتونابشتيم البعيد :  
أنظر إليك يا أوتونابشتيم  
فأرى شكلك الرقيق لا يختلف عن شكلي  
نعم إنك لا تختلف عني في شيء  
لقد صوّرتك في نفسي كبطل على أهبة القتال  
ولكن ها أنت مستلق بتراخ أو متكئ  
أخبرني كيف حصلت على رفقة الآلهة ونلت الخلود؟  
فقال أوتونابشتيم لجلجامش :  
جلجامش . . سأكشف لك أمراً كان مخبوءاً  
وأبوح لك بسرّ من أسرار الآلهة  
«شوروباك» مدينة أنت تعرفها  
تقع على شاطئ نهر الفرات  
لقد شاخت المدينة والآلهة في وسطها  
فحدثتهم نفوسهم أن يرسلوا طوفاناً  
كان هناك آنو أبوهم  
كما كان انليل مستشارهم  
و«نورتا» ممثلهم  
و«اينوجي» وزيرهم  
و«ننجيكو» الذي هو «إيا» كان حاضراً أيضاً  
فنقل حديثهم إلى كوخ القصب  
«يا كوخ القصب، يا كوخ القصب، جدار يا جدار  
أصغ يا كوخ القصب، وتفكر يا جدار  
رجل شوروباك يا ابن أوبارا-توتو

قَوْضُ بَيْتِكَ وَابْنِ سَفِينَةٍ  
أَهْجَرُ مَمْلُوكَاتِكَ وَأَنْجُ بِنَفْسِكَ  
أَتْرَكَ مَتَاعَكَ وَأَنْقَذَ حَيَاتَكَ  
أَعْمَلَ عَلَى حِمْلِ بَذْرَةٍ كُلِّ ذِي حَيَاةٍ  
وَالسَفِينَةِ الَّتِي أَنْتَ بَانِيهَا  
سَتَكُونُ وَفَقّاً لِمَقَاسَاتٍ مُضْبُوطَةٍ  
فَيَكُونُ عَرْضُهَا مُعَادِلًا لَطَوْلِهَا  
وَعُظْمُهَا كَمَا هِيَ الْمِيَاهُ السُّفْلَى  
عِنْدَمَا فَهَمْتَ ذَلِكَ قُلْتَ لـ «إِيَا» مُوَلَايَ  
[سَأُضَعُ نُصْبَ عَيْنِي] مَا قَدْ أَمَرْتَنِي بِهِ  
وَأَعْمَلَ عَلَى تَنْفِيذِهِ  
[وَلَكِنْ بِمَاذَا] أَجِيبُ الْمَدِينَةَ وَالنَّاسَ وَالشُّيُوخَ؟  
فَفَتَحَ إِيَا فَمَهُ وَقَالَ  
مَتَوَجَّهًا بِالْحَدِيثِ إِلَيَّ أَنَا خَادِمُهُ:  
«إِلَيْكَ مَا سَتَقُولُهُ لَهُمْ:  
لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ أَنْثِلِيلَ يَكْرَهُنِي  
وَعَلَيَّ بَعْدَ الْآنَ أَلَّا أَبْقَى فِي مَدِينَتِكُمْ  
وَأَلَّا أُدِيرَ وَجْهِي نَحْوَ أَرْضِ أَنْثِلِيلِ  
سَأَهْبِطُ إِلَى «أَبْسُو» أَعِيشْ مَعَ مُوَلَايَ إِيَا  
أَمَّا أَنْتُمْ فَسَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مَطَرٌ وَافِرٌ  
[... ] مِنْ الطُّيُورِ ... مِنْ الْأَسْمَاكِ  
[... ] غَلَالُ الْحَصَادِ  
وَفِي الْمَسَاءِ رَبُّ الْعَاصِفَةِ  
سَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ خَيْرَاتُهُ مَطَرًا مِنَ الْقَمْحِ  
وَمَا إِنْ [لَا حَ] أَوَّلَ قَبْسٍ مِنْ نُورِ الصَّبَاحِ



حتى تجتمع الناس حولي

[...]

(سطران مشوّهان)

جلب الأطفال القار [بينما] جلب الكبار [كل ذي] فائدة

وفي اليوم الخامس أنهيت هيكل [السفينة]

كانت أرضيتها «ايكو» واحد وارتفاع جدرانها مائة

وطول كل جانب من جوانب سطحها مائة وعشرون ذراعاً

حدّدت شكلها الخارجي وشكّله

وسّعة سطوح سفلية بنيت فيها

وبذلك قسمتها لسبعة طوابق

كما قمت بتقسيم أرضيتها لتسعة أقسام

وثبّت على جوانبها مصدّات المياه

زوّدتها بالمؤن والذخيرة

وسكبت في الفرن ستة وزنات من القار

وثلاث وزنات من الإسفلت

ثلاث وزنات من الزيت أتى بها حاملو السلال

واحدة استهلكها تقع مصدات المياه

واثنتان قام ملاح السفينة بخزنها

ذبحت للناس عجولاً

ورحت أنحر الخراف كل يوم

عصير العنب والخمر الأحمر والزيت والخمر الأبيض

أعطيت الصنّاع فشربوا كما من نهر ماء

واحتفلوا كأعياد رأس السنة

و[....] المرهم وضعت يدي

[....] أضحت السفينة جاهزة

[ . . . . ] كان صعباً للغاية

[ . . . . ] من فوق ومن تحت

[ . . . . ] .. ثلثاها

حملت إليها كل ما أملكه

كل ما أملكه من فضة حملت إليها

كل ما أملكه من ذهب حملت إليها

كل ما لديّ من بذور كل شيء حملت إليها

وبعد أن أدخلت إليها أهلي وأقاربي جميعاً

وطرائد البرية ووحوشها وكل أصحاب الحرف

عيّن لي الإله «شمس» وقتاً محدداً:

«عندما يرسل سيّد العاصفة مطراً مدمراً في المساء

ادخل الفلك وأغلق عليك بابك».

وما إن أزف الموعد

حتى أرسل سيد العاصفة مطراً مدمراً في المساء

قلّبت وجهي في السماء، كان الجو مربعاً للنظر

دخلت السفينة وأغلقت عليّ بابي

وأسلمت قيادها للملاح بوزور-أموري

أسلمته الهيكل العظيم بكل ما فيه

وما أن لاحت تباشير الصباح

حتى علت الأفق غيمة كبيرة سوداء

يجلجل في وسطها صوت «أدد»

ويسبقها «شوللات» و«خانيش»

اقتلع أريجال الدعائم

وقام ننورتا بفتح السدود

رفع «الأنوناكي» مشاعلهم

حتى أضاءت الأرض ببريقها  
 إلا أن ثورة أدد بلغت حدود السماء  
 أحالت إلى ظلمة ما كان مضيئاً  
 وقام بتحطيم الأرض كما تُحطَّم الجرة  
 عصفت الريح العاتية يوماً كاملاً  
 بعنف عصفت و[.....]  
 أتت على الناس وحصدتهم كما الحرب  
 حتى عمي الأخ عن أخيه  
 وبات أهل السماء لا يرون أهل الأرض  
 حتى الآلهة دُعروا من هول الطوفان  
 وهربوا صاعدين إلى سماء آنو  
 انكمشوا كالكلاب الخائفة وريضوا في أسي  
 صرخت عشتار كامراًة في المخاض  
 ناحت سيدة الآلهة ذات الصوت العذب:  
 «لقد آلت إلى طين تلك الأيام القديمة  
 ذلك بأنني نطقت بالشر في مجمع الآلهة،  
 فكيف استطعت أن آمر بمثل هذا الشر.  
 كيف استطعت أن آمر بالحرب لتدمير شعبي،  
 تدمير من أعطيتهم أنا الميلاد،  
 وها هم يملأون اليَمَّ كصغار السمك»  
 وبكى معها آلهة الأنوناكي  
 جلسوا يندبون وينوحون  
 وقد غطوا أفواههم  
 ستة أيام وست ليال،  
 والرياح تهبّ والعاصفة وسيول المطر تغطي على الأرض.

ومع حلول اليوم السابع . العاصفة والظوفان،  
خففت من وطأتها وكانت قبلُ كأنها الجيوش المحاربة .  
وأخذ البحر يهدأ والعاصفة تسكن . والظوفان يتوقف .  
فتحت نافذة فوق النور على وجهي .  
نظرت إلى البحر . كان الهدوء شاملاً  
وقد عاد البشر إلى الطين .  
كان ال[ . . . ] بمحاذاة السقف،  
جلست وانحنيت أبكي،  
وانسالت دموعي على وجهي،  
ثم نهضت وتطلعت في كل الاتجاهات،  
مستطلعاً حدود البحر .  
على بعد اثني عشرة ساعة مضاعفة، انبثقت قطع من الأرض،  
واستقرت السفينة على جبل (نصير) .  
أمسك الجبل بالسفينة ومنعها من الحركة .  
ومضى اليوم الأول والثاني والجبل ممسك بالسفينة .  
ومضى اليوم الثالث والرابع والجبل ممسك بالسفينة .  
ومضى اليوم الخامس والسادس والجبل ممسك بالسفينة .  
وعندما حلّ اليوم السابع،  
أتيت بحمامة وأطلقتها في السماء .  
طارت الحمامة بعيداً وما لبثت أن عادت إليّ  
لم تجد مستقراً فأبت .  
فأتيت بسنونو وأطلقته في السماء،  
طار بعيداً وما لبث أن عاد إليّ .  
لم يجد موطناً لقدميه فأب،  
ثم أتيت بغراب وأطلقته في السماء،

فطار الغراب بعيداً ولما رأى أن الماء قد انحسر،  
أكل وحام وحط ولم يعد.  
عند ذلك أطلقت الجميع للجهات الأربع وقدمت أضحية.  
سكبت خمر القربان على قمة الجبل.  
أقامت سبعة قدور وسبعة أخرى،  
وجمعت تحتها قصب السكر الحلو وخشب الأرز والآس.  
فتشمم الآلهة الرائحة الذكية،  
تجمعوا على الأضحية كالذباب،  
وعندما وصلت الآلهة العظيمة (عشتار)  
رفعت عقدها الكريم الذي صنعه آنو وفق رغباتها وقالت:  
«أيها الآلهة الحاضرون. كما لا أنسى هذا العقد اللازوردي  
الذي يزين عنقي.  
فإنني لن أنسى هذه الأيام قط وسأذكرها دوماً  
تقدموا جميعاً وقربوا من الذبيحة،  
إلا انليل وحده لن يقترب،  
لأنه سبب الطوفان دونما تروء،  
وأسلم شعبي للدمار».  
وعندما وصل انليل،  
ورأى السفينة انتابه الغيظ الشديد،  
واستشاط غضباً من إلهة الايجيجي  
أنجا أحد من الفانين؟ ألم يكن مقدراً أن يهلكوا جميعاً؟  
فتفتح ننورتا فمه وقال مخاطباً انليل المقاتل:  
«أيها المحارب، أيها الحكيم بين الآلهة.

كيف، آه كيف دونما تفكّر جلبت هذا الطوفان؟  
حمل المذنب ذنبه، والآثم إثمه .  
أمهله حتى لا يفنى، ولا تهمله كي لا يفسد .  
كنت تستطيع بدل الطوفان أن تسلط الأسود لتتنقص عدد البشر .  
كنت تستطيع أن تطلق الذئاب فتتنقص من تعدادهم .  
أو تُحدث القحط الذي يهلك البلاد .  
أو تأتي بaira فيحصد الناس .  
ثم إنني لست الذي أفشى سرّ الآلهة العظام .  
لقد أريت أتراخيس\ أوتونا بستم، حلماً فاستشف منه السرّ .  
والآن اعقد أمرك بشأنه  
فصعد انليل إلى السفينة،  
وأخذ بيدي وأصعدني معه .  
كما أصعد زوجتي أيضاً وجعلها تركع إلى جواري،  
ثم وقف بيننا ولمس جبهتنا مباركاً:  
«ما كنت يا أوتونا بستم إلا بشراً فانياً  
ولكنك وزوجك منذ الآن ستغدوان مثلنا (خالدين)  
وفي القاصي البعيد عند فم الأنهار ستعيشان»  
ثم أخذوني وأسكنوني في البعيد حيث فم الأنهار .

في هذا النص نجد أن بطل الملحمة استطاع أن يلتقي بنوح البابلي \  
أوتونا بستم \ الذي حدّثه بتفاصيل قصة الطوفان ونجاته منه باختيار الإله له كونه  
رجل ثقي وورع ومؤمن بحسب الذهنية الاعتقادية لتلك الفترة . كما نلاحظ أن  
الطوفان اختص بمدينة شوروياك تحديداً، بمعنى أنه ليس عالمياً .  
وثمة روايات عديدة أخرى عن الطوفان نجدها في الوثائق البابلية لكن أهمّها  
بعد ملحمة جلجامش هي ملحمة أتراخيس .

## ملحمة أتراخيس

يعمد الإله انليل إلى نشر الأمراض والأوبئة قبل الطوفان في محاولة منه للتقليل من تعداد البشر حيث أصبح تكاثرهم وضجيجهم يقض مضجعه .  
أتراخيس التقي يرى حلمًا سيئًا وحين يقضه على الإله إيا، ينصحه الإله ببناء سفينة للنجاة من الطوفان الآتي .

نقرأ من الملحمة :

الكسرة الأولى :

{لقد عمرت الأرض وتكاثر الناس  
تكاثروا حتى أتخمت بهم الأرض كما تُتخم الشاة  
وتزايدوا حتى أزعجوا الإله «انليل» بتجمعاتهم  
لقد وصل ضجيجهم إليه (في عليائه)  
فقال للآلهة الكبرى

لقد ازداد صخب البشر  
وجعل النوم بعيداً عن عيوني  
فلتقلع الأشجار التي تطعمهم  
ولتعو بطونهم طلباً للطعام  
وليمنع «أدد» في الأعالي مطره عنهم .  
وفي الأعماق فلتنضب مياه الينابيع  
وليتوقف سيل المياه من العيون  
ولتهب الرياح  
[.....]

لتحرم السماء من غيومها  
وتبق الأرض دونما مطر  
لتمنع الحقول غلالها  
ولتحجب «نيسابا» صدرها الخصب {

الكسرة الثانية:

{فتح أترaxis فمه وقال لمولاه:

هلاً أعطيتني شرحاً لأحلامي

[.....]

حسناً فلتصغ إليّ

اسمع يا جدار

وتملّ كلماتي يا كوخ القصب:

قوض بيتك وابن سفينة

اهجر ممتلكاتك

وخلّص حياتك

والسفينة التي أنت بانيها. }

الكسرة الثالثة:

{وفي الوقت المحدد الذي ساعته لك

ادخل الفلك وأغلق عليك بابك

احمل إليها الحبوب والمتاع والمواشي

زوجك وعائلتك وأقربائك وأصحاب الحرف

طرائد البرية ووحوشها، وما استطعت من أكلة الأعشاب

سأدفع بها إليك، وتقبع عند أبوابك تحرسها لك

ففتح أترaxis فمه وقال

محدثاً «إيا» مولاه:

لم يسبق لي أن بنيت سفينة

فهلاً رسمت لي شكلاً لها على الأرض

أستعين به على بنائها

[...] على الأرض [...]

ثم أني سأعمل على تنفيذ كل ما أمرتني به. }



الكسرة الرابعة :  
وعندما حلّت ال [ سنة الثانية ]  
وتبعثها السنة الثالثة  
تبذلّ الناس في [ سهم  
وعندما حلّت السنة الرابعة [ . . . ] في ضيق  
[ . . . ] الواسع غدا ضيقاً  
وهام الناس في الطرقات باكتئاب  
وعندما حلّت السنة الخامسة طرقت البنت باب أمها  
ولكن الأم لم تفتح لابتتها بابها  
وراقبت البنت ميزان أمها  
وراقبت الأم ميزان ابنتها  
وعندما حلّت السنة السادسة . أعدت الابنة لتكون طعاماً  
كما هيئ الأطفال ليكونوا طعاماً . ال [ . . . ] مليئاً  
وراح البيت يفترس البيت الآخر  
وصارت وجوه الناس كوجوه أشباح الموتى  
[ وعاشوا ] بأنفاس خفيضة (مكتومة تكاد لوهنها تتوقف)  
ولكنهم تلقوا رسالة [ . . . ]  
في الأعالي [ أمسك أدد أمطاره ]  
وفي الأعماق نضبت (الينابيع) ولم تصل المياه لآبارها  
وضئت الحقول بخيراتها  
لأن نيسابا قد حجبت صدرها [ . . . ]  
فاضت السهول بالملح  
ولم يظهر الزرع ولا أزهز النبات  
واجتاحت الأمراض والأوبئة الناس أجمعين  
أغلقت الأرحام وباتت بلا حبل ولا ولادة

ولكن أتراخيس الرجل [الحكيم]  
توجّه بقلبه [إلى ايا سيده]  
[وتكلّم] مع إلهه  
وسيّده ايا تكلّم معه  
[.....] باب إلهه  
والى جانب النهر أقام سريره  
[.....] الأمطار [.....]  
بسبب ضوضائهم غدا «انليل» منزعجاً  
وبسبب ضجيجهم لم يطرق الكرى جفونه  
فعقد انليل اجتماعاً  
وقال للآلهة أبنائه:  
«عظيمة صارت ضوضاء البشر  
وبسببها أنا منزعج  
وبسببها لا يطرق الكرى جفوني  
[.....] فلتكن هناك ملاريا  
وبلحظة خاطفة فلتضع الأويثة حدّاً لصخبهم  
وتهب عليهم كما العواصف (والأعاصير)  
علل وأمراض وأويثة وحُمى»  
[.....] فكانت ملاريا  
وبلحظة خاطفة وضعت الأويثة حدّاً لضجيجهم  
وكالعواصف هبّت عليهم وحصدتهم  
علل وأمراض وأويثة وحُمى  
ولكنّ أتراخيس توجّه بقلبه إلى سيّده ايا  
وتكلّم مع إلهه  
وسيّده ايا تكلّم معه

فتح أتراخييس فمه وقال  
مخاطباً ايا سيده:  
«يا إلهي إن البشر يثنون  
وقد طغى على الأرض غضب الآلهة  
[... ] وأنت يا من خلقتنا  
هلاً اجتثت العلل والأمراض والأوبئة والحُمى  
ففتح ايا فمه وقال له لَمَّا سمع نداءه:  
[... ] في الأرض  
[... ] وصلّ لآلهتك  
فعقد انليل اجتماعاً وقال للآلهة أبنائه:  
«[... ] لا تضعوهم  
لم ينقص البشر بل ازدادوا عما قبل  
ضوضاؤهم تزعجني (وتؤرقني)  
وضجيجهم يمنع عن عيني الكرى  
فلتمنع الأشجار عنهم ثمارها  
ولتعو بطونهم طلباً للخضار  
في الأعالي فليمسك أدد مطره عنهم  
وفي الأعماق فلتنضب ينباع ولا تصل المياه لآبارها  
ولتبخل الحقول بخيراتها  
ولتحجب نيسابا صدرها (الخصب)...  
ولتتج السهول العريضة ملحاً  
فلا يظهر الزرع ولا يزهر النبات  
ولتعصف الأمراض والأوبئة بالناس أجمعين  
ولتغلق الأرحام فلا حبل ولا ولادة»  
(فكان ما قال)

منعت الأشجار ثمارها عن الناس  
وعوت بطونهم طلباً للخضار  
وفي الأعالي أمسك أدد \ إله المطر \ مطره عنهم  
وفي الأعماق نضبت الينابيع ولم تصل المياه لآبارها  
وضئت الحقول بخيراتها  
وحجبت نيسابا صدرها (الخصب)  
وعصفت الأمراض والأوبئة بالناس أجمعين  
وأغلقت الأرحام فلا حبل ولا ولادة.  
نلاحظ هنا أن سبب الطوفان هو كثرة البشر وضجيجهم الذي أزعج الإله  
انليل سيد العاصفة، ما دفعه إلى معاقبتهم بالأوبئة وبالطوفان.

### الطوفان التوراتي

إذا ما قرأنا رواية الطوفان في سفر التكوين / الإصحاح ٦-٧-٨ / نجد أننا  
أمام حالة تشابه واضح مع النصوص البابلية الطوفانية، ويبدو أن مدوني التوراة  
في القرن السادس قبل الميلاد في بابل وأثناء فترة السبي البابلي قد استوحوا  
القصة البابلية أو أنهم استمدوها من ثقافة بلاد كنعان قبل سبيهم.  
وقد أجروا بعض التعديلات والتغييرات ولا سيما ما تعلّق منها بشخصية الإله  
الرئيسي فمقابل التشابك الإلهي والتناقض الظاهر في الرؤية البابلية بين الآلهة نجد  
أن يهوه إله التوراة ينفرد بالفعل الإلهي الوحيد في الرواية التوراتية.  
ونوح كما ورد اسمه في التوراة هو بطل الطوفان وهو نوح بن لامك بن  
متوشالch بن أخنوخ: وهو إدريس بن يارد بن مهليل بن قينان بن أنوش بن شيت  
بن آدم.

لنقرأ:

سفر التكوين

الإصحاح السادس:

- «١- ولما ابتدأ الناس يكثرون على وجه الأرض و ولد لهم بنات. -٢- رأى بنو الله بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لهم نساء من جميع من اختاروا. -٣- فقال الرب لا تحل روجي على الإنسان أبداً لأنه جسد وتكون أيامه مئة وعشرين سنة. -٤- و كان على الأرض جبابرة في تلك الأيام، وأيضاً بعد أن دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً أولئك هم الجبابرة المذكورون منذ الدهر. -٥- ورأى الرب شر الناس قد كثر على الأرض وأن كل تصور أفكار قلوبهم إنما هو شر في جميع الأيام. -٦- فندم الرب أنه عمل الإنسان على الأرض و تأسف من قلبه. -٧- فقال الرب أمحو الإنسان الذي خلقت على وجه الأرض، الإنسان والبهائم والدبابات وطير السماء لأنني ندمت على خلقي لهم. -٨- أما نوح فنال حظوة في عيني الرب. -٩- وهؤلاء مواليد نوح. كان نوح رجلاً براً كاملاً في أجياله وسلك نوح مع الله. -١٠- وولد نوح ثلاثة بنين ساماً وحاماً وياث. -١١- وفسدت الأرض أمام الله وملئت جوراً. -١٢- ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت لأن كل جسد قد أفسد طريقه إليها. -١٣- فقال الله لنوح قدرنا أجل كل بشر بين يدي فقد امتلأت الأرض من أيديهم جوراً فهأنذا مهلكهم مع الأرض. -١٤- اصنع لك تابوتاً من خشب قطراني واجعله مساكن واطله من داخل ومن خارج بالقار. -١٥- كذا تصنعه، ثلاث مائة ذراع طوله وخمسون ذراعاً عرضه، وثلاثون ذراعاً سمكه. -١٦- وتجعل طاقاً التابوت وإلى قدر ذراع تكمله من فوق واجعل باب التابوت من جانبه ومساكن سفلى وثنائي وثنائي تصنعه. -١٧- وها أنذا آت بطوفان مياه على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء وكل ما في الأرض يهلك. -١٨- وأقيم عهدي معك فتدخل التابوت أنت وبنوك وامراتك ونسوة بنيك معك. -١٩- ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تدخل التابوت لتحيي معك. ذكر وأنثى تكون. -٢٠- من الطير بأصنافها ومن البهائم بأصنافها ومن الطيور بأصنافها ومن جميع دبابات الأرض بأصنافها يدخل إليك اثنان من كل لتحيي. -٢١- وأنت فخذ لك من كل طعام يؤكل وضمه إليك فيكون لك ولهم مأكلاً. -

٢٢- فعمل نوح بحسب ما أمره به هكذا فعل .

الإصحاح السابع :

١- وقال الله لنوح ادخل التابوت أنت وجميع أهلِكَ فإنِّي إياكَ رأيت باراً أمامي في هذا الجيل . -٢- وخذ من جميع البهائم الطاهرة سبعة سبعة ذكوراً وإناثاً . ومن البهائم التي ليست طاهرة اثنين ذكر وأنثى . -٣- وخذ أيضاً من طير السماء سبعة ذكوراً وإناثاً ليحيا نسلها على وجه الأرض . -٤- فإنني بعد سبعة أيام ممطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة وماح كل قائم مما صنعت عن وجه الأرض . -٥- فعمل نوح بحسب كل ما أمره الرب به . -٦- وكان نوح ابن ست مئة سنة حين كان ماء الطوفان على الأرض . -٧- ودخل نوح التابوت هو وبنوه وامراته ونسوة بنيه معه من ماء الطوفان . -٨- ومن البهائم الطاهرة ومن البهائم التي ليست بطاهرة ومن الطير وجميع ما يدب على الأرض . -٩- دخل التابوت اثنان اثنان إلى نوح ذكوراً وإناثاً كما أمر الله نوحاً . -١٠- وبعد سبعة أيام كانت مياه الطوفان على الأرض . -١١- في السنة الست مئة من عمر نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر منه في ذلك اليوم تفجرت غيوم الغمر العظيم وتفتحت كوى السماء . -١٢- وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة . -١٣- في ذلك اليوم نفسه دخل نوح هو وسام وحام ويافت بنوه وامرأة نوح وثلاث نسوة بنيه معهم . -١٤- هم وجميع الوحوش بأصنافها وجميع البهائم كل طائر كل ذي جناح . -١٥- ودخلت التابوت إلى نوح اثنين اثنين من كل ذي جسد فيه روح حياة -١٦- والداخلون دخلوا ذكوراً وإناثاً من كل ذي جسد فيه كما أمره الله وأغلق الرب عليه . -١٧- وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض فكثرت المياه وحمل التابوت فارتفع عن الأرض . -١٨- وكثرت المياه جداً وتعاضمت على الأرض فسار التابوت على وجه الماء . -١٩- وكثرت المياه جداً على الأرض فغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت السماء كلها . -٢٠- وعلت المياه خمس عشرة ذراعاً على الأرض وتغطت الجبال . -٢١- فهلك كل ذي جسد يدب على الأرض والناس كافة . -٢٢- كل من في أنفه

نسمة حياة من كل من في اليبس ماتوا. -٢٣- ومحا الله كل قائم على وجه الأرض من الناس والبهائم والدبابات وطير السماء فانمحت من الأرض وبقي نوح ومن معه في التابوت فقط. -٢٤- وتعاضمت المياه على الأرض مئة وخمسين يوماً.

#### الإصحاح الثامن:

١- وذكر الله نوحاً وجميع الوحوش والبهائم التي معه في التابوت. فأرسل الله ريحاً على الأرض فتناقصت المياه. -٢- وانسدت عيون الغمر وكوى السماء واحتبس المطر من السماء. -٣- وكانت المياه تتراجع عن الأرض كلما مرت وعادت ونقصت المياه بعد مئة وخمسين يوماً. -٤- واستقر التابوت في الشهر السابع في اليوم السابع عشر منه على جبال آراط. -٥- وكانت المياه كلما مرت نقصت إلى الشهر العاشر وفي أول يوم منه ظهرت رؤوس الجبال. -٦- وكان بعد أربعين يوماً أن فتح نوح كوة التابوت التي صنعها. -٧- وأطلق الغراب فخرج وجعل يتردد إلى أن جفت المياه عن الأرض. -٨- ثم أطلق الحمامة من عنده لينظر هل غاصت المياه من وجه الأرض. -٩- فلم تجد الحمامة مستقراً لرجلها فرجعت إليه إلى التابوت إذ كانت المياه على وجه الأرض كلها فمد يده فأخذها وأدخلها إلى التابوت. -١٠- ولبث أيضاً سبعة أيام آخر وعاد فأطلق الحمامة من التابوت. -١١- فعادت إليه الحمامة وقت العشاء وفي فيها ورقة زيتون خضراء فعلم نوح أن المياه قد جفت عن الأرض. -١٢- ولبث أيضاً سبعة أيام آخر ثم أطلقها فلم تعد ترجع إليه أيضاً. -١٣- وكان في سنة إحدى وست مائة في اليوم الأول من الشهر الأول أن جفت المياه عن الأرض فرفع نوح غطاء التابوت ونظر فإذا وجه الأرض قد نشف. -١٤- وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين منه جفت الأرض. -١٥- فخاطب الله نوحاً قائلاً. -١٦- اخرج من التابوت أنت وامراتك وبنوك ونسوة بنيك معك. -١٧- وجميع الوحوش التي معك من كل ذي جسد من الطير والبهائم وسائر الدبيب الساعي على الأرض أخرجهن معك ليتوالدوا في الأرض وينمون ويكثرون عليها. -١٨-

فخرج نوح وبنوه وامراته ونسوة بنيه معه . -١٩- وجميع الوحوش والدبابات والطيور وكل ما يدب على الأرض بأصنافها خرجت من التابوت . -٢٠- وبنى نوح مذبحاً للرب وأخذ جميع البهائم الطاهرة ومن جميع الطير الطاهرة فأصعد محرقات الذبيح . -٢١- فتنسم الرب رائحة الرضا وقال الرب في نفسه لا أعيد لعن الأرض أيضاً بسبب الإنسان بما تصور قلب الإنسان شرير منذ حدوثه ولا أعود أهلك كل حي كما صنعت . -٢٢- وأبدأ مادامت الأرض فالزرع والحصاد والبرد والحر والصيف والشتاء والنهار والليل لا تبطل .

إن السبب الرئيسي - في رأينا - الذي قاد إلى هذه المبالغة غير المعقولة في وصف «سفينة نوح» في كتب بني إسرائيل، وانتقلت منها إلى تراثنا العقائدي دون فحص ولا تحليل، هو أن أحبار اليهود ما زالوا يعتقدون إلى اليوم بأن الطوفان شمل الكرة الأرضية كلها وأهلك ما فيها من حيوانات ونباتات وبشر . وهذا سبب أعجب بحد ذاته من سفينة نوح .

مقارنات بين النص التوراتي والنصوص المشرقية / السومرية-البابلية / :

النصوص المشرقية	التوراة	
- مجمع الآلهة يقرر الطوفان. انليل/ إله العاصفة هو المسؤول/ المنشق الأساسي عن الطوفان وليس آنو كبير الآلهة.	- يهوه	الإله
- يلمح النص البابلي إلى الأسباب الأخلاقية .	- أسباب أخلاقية حيث فسد البشر، وامتلات الأرض بالعنف والشر.	أسباب الطوفان
- زيوسودرا: وتعني في السومرية الذي وضع يده على العمر المديد. عاش في شوروباك .	- نوح لم يذكر التوراة المدينة التي عاش فيها نوح .	بطل الطوفان



<p>أوتونابشتيم: وتعني الذي رأى الحياة.</p> <p>أتراخيس: الواسع الحكمة.</p> <p>- نجاة أبطال الطوفان المشرقين لكونهم صالحين.</p> <p>- أبطال الطوفان المشرقين رأوا أحلاماً منذرة، وتكلموا مع الإله عبر حجاب.</p>	<p>- نجا نوح لكونه رجلاً ورعاً وتقياً.</p> <p>- يهوه أعلم نوح مباشرة عن الطوفان دون حاجة لحلم أو حجاب.</p>	
<p>- السفينة السومرية «ماجور» (العلاقة)، في نص جلجامش ايليبو (الهيكل العظيم).</p> <p>- السفينة البابلية تحوي سبعة طوابق وتنقسم عمودياً إلى تسعة أقسام وفيها نوافذ.</p> <p>- أوتونابشتيم استعمل القار في طلي السفينة.</p>	<p>- اسم السفينة يتبا وتعني الصندوق (الثابت)</p> <p>- تحوي سفينة نوح على ثلاثة طوابق، تتألف من عدد غير محدد من الأقسام، لها باب إلى جانبها وفتحة للنور تحت السقف مباشرة.</p> <p>- نوح استعمل القار في طلي السفينة.</p>	<p>السفينة</p>
<p>- حمل أوتونابشتيم كل ما يملك من ذهب وفضة وأهله وأقاربه وجميع أهل الحرف وطرائد البرية ووحوشها وطيورها.</p> <p>زيوسودرا حمل بعض الحيوانات وقدم ذبائح الشكر وكذلك فعل أتراخيس في ضم كائنات وأصحاب حرف.</p>	<p>- ثمانية أفراد هم نوح وزوجته وأولاده الثلاثة وزوجاتهم.</p> <p>الحيوانات: من كل حي من كل ذي جسد اثنين.</p>	<p>ركاب السفينة</p>

زمن ابتداء الطوفان	- السنة الستمائة من عمر نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر منه . (السنة العبرية الزراعية تبدأ في أواخر تشرين الأول فيكون الشهر الثاني هو كانون الأول وهو موسم الأمطار في بلاد الشام).	- لا تذكر النصوص السومرية والبابلية أي موعد لبدء الطوفان.
علل الطوفان	- الأمطار هي سبب الطوفان.	- البابلي من الأمطار والعاصفة والمياه السفلية . السومري من المطر كعنصر أساسي .
مدة الطوفان	- أربعين يوماً ثم بدأت المياه بالتناقص بعد ١٥٠ يوماً . المدة الفاصلة بين الطوفان وخروج نوح من السفينة امتدت حوالي سنة كاملة .	- السومري : استمر الطوفان سبعة أيام وسبعة ليال . البابلي : ستة أيام وسبعة ليال .
استقرار السفينة	- سفينة نوح استقرت على جبل أراراط . أراراط اسم يطلق على بلاد أرمينيا وليس اسماً لجبل ، ربما السفينة رست على قمة جبل في تلك البلاد .	- السفينة البابلية استقرت على جبل «نصير» أي جبل الخلاص .
إطلاق الطيور	- أطلق نوح غراباً ، ثم أطلق حمامة فعادت ، بعد سبعة أيام أطلق حمامة ثانية وعادت في المساء وفي متقارها غصن زيتون طري ، بعد سبعة أيام أطلق حمامة ثالثة فلم تعد .	-أوتونابشتيم أطلق في اليوم السابع حمامة فعادت ، وبعد فاصل زمني غير محدد أطلق سنونو فعاد ، ثم بعد ذلك أطلق غراباً فلم يعد . زيوسودرا لا يرسل طيوراً .

مغادرة السفينة	- خرج نوح بناء على أمر يهوه وانتظر فترة أطول قبل خروجه من السفينة.	- زيوسودرا وأتونابشتيم خرجا أسرع من نوح وبناء على تقديرهما.
تقديم القرابين	- نوح بنى مذبحاً ليهوه وقدم قرابين طاهرة، تقبل يهوه القرابين وندم على فعلته وقطع عهداً أبدياً على نفسه ألا يدمر الأرض ثانية بطوفان مماثل. - لا يمنح يهوه نوحاً الخلود، ويقدم النص التوراتي بعد ذلك نوحاً كرجل سكير عرييد يسكر ويرقص عارياً.	- يقدم أبطال الطوفان البابلي والسموري القرابين للآلهة، حيث تنسى الآلهي غضبها على البشر وتسرع بنجاة الحياة على الأرض. - يمنح أوتونابشتيم وزوجته الحياة الخالدة ويسكنان عند فم الأنهار. زيوسودرا يمنح الحياة الأبدية في الجنة السومرية.

### الطوفان في النص القرآني

والسؤال الآن: هل يوجد في التنزيل الحكيم ما يعيننا على تصحيح الصورة ورفع المتناقضات وردّ ما لا يتوافق مع مكتشفات العلم الحديث؟ والجواب بكل بساطة: نعم يوجد.

يقول تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (هود ٤٠). ويقول تعالى ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ (المؤمنون ٢٧).

آيتان قرآنيتان لا ثالث لهما في التنزيل الحكيم تشرحان ما حدث. يقول الفخر الرازي في التفسير الكبير ج ١٧ ص ١٨٠ - ١٨٢ عن تفسير آية هود ٤٠: «الأمر في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ فيه قولان: الأول أنه تعالى يبين

أن لاشيء يحدث إلا بأمره، والثاني أن المراد بالأمر ههنا هو العذاب الموعود به.

وفي التنور قولان: أحدهما أنه التنور الذي يُخبز فيه، والثاني أنه غيره. أما الأول فهو قول جماعة عظيمة من المفسرين كابن عباس والحسن ومجاهد، وهؤلاء اختلفوا، فمنهم من قال إنه لنوح (ع)، ومنهم من قال كان لآدم. قال الحسن: كان تنوراً من الحجارة لحواء ثم صار لنوح (ع)، واختلفوا في موضعه فقال الشعبي إنه بناحية الكوفة، وعن علي (رض) أنه في مسجد الكوفة وقد صلى فيه سبعون نبياً، وقيل بالشام في موضع يقال له عين وردان، وهو قول مقاتل. وقيل فار التنور بالهند، وقيل إن امرأة نوح كانت تخبز في ذلك التنور فأخبرته بخروج الماء.

وأما الثاني، فالتقدير أنه ليس التنور الذي يخبز فيه، وعلى هذا ففيه أقوال: الأول أن الماء انفجر من وجه الأرض، والعرب تسمي وجه الأرض تنوراً. والثاني أن التنور أعلى مكان في الأرض وقد أخرج إليه الماء من ذلك الموضع ليكون معجزة له. والثالث فار التنور أي طلع الصبح وهو قول منقول عن الإمام علي (رض). والرابع فار التنور يحتمل أن يكون معناه اشتداد الأمر كقولنا حمي الوطيس. قال الأزهري التنور اسم أعجمي عربته العرب فصار عربياً ونظيره ما دخل في كلام العرب من كلام العجم كالديباج والدينار والسندس والاستبرق وغيرها.

والزوجان عبارة عن كل شيئين يكون أحدهما ذكر والآخر أنثى. فالسمااء زوج والأرض زوج. والشتاء زوج والصيف زوج. قال الأخفش: الإثنان زوجان. ولذلك قرأ حفص: (قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين) أما الباقي من القراءات المشهورة فقرؤوا (قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين) واختلفوا في أنه هل دخل في قوله (زوجين اثنين) غير الحيوان أم لا؟ فنقول: أما الحيوان فدخل لأن القول يدخل فيه كل الحيوانات، وأما النبات فاللفظ لا يدل عليه إلا أنه بحسب قرينة الحال لا يبعد بسبب أن الناس محتاجون إلى النبات بجميع أقسامه.

وجاء في الروايات عن ابن مسعود (رض) أنه قال: لم يستطع نوح أن يحمل الأسد حتى ألقيت عليه الحمى، وذلك أن نوحاً (ع) قال: يا ربّ فمّن أين أطعم الأسد إذا حملته؟ قال تعالى: فسوف أشغله عن الطعام. وسلّط عليه الحمى. وأمثال هذه الكلمات الأولى تركها، فإن حاجة الفيل إلى الطعام أكثر وليس به حمى.. أھ.

وقال في تفسير آية المؤمنون ٢٧ (ج ٢٣ ص ٨٢-٨٣):

«.. واختلفوا في التنور، والأكثرون على أنه هو التنور المعروف. قيل كان تنور آدم من حجارة فصار إلى نوح. واختلف في مكانه، فعن الشعبي أنه في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كنده، وكان نوح عمل السقيفة في وسط المسجد. وقيل بالشام بموضع يقال له عين وردة، وقيل بالهند. القول الثاني أن التنور وجه الأرض عن ابن عباس (رض). الثالث أنه أشرف موضع في الأرض وأعلاه. الرابع فار التنور أي طلع الصبح عن علي عليه السلام. والخامس هو مثل قولهم حمي الوطيس. والسادس أنه الموضع المنخفض من السفينة.

أما قوله (فاسلك فيها) أي أدخل فيها (من كلّ زوجين اثنين) أي من كل زوجين من الحيوان الذي يحضره في الوقت اثنين، الذكر والأنثى كي لا ينقطع نسل ذلك الحيوان، وكل واحد منهما زوج لا كما تقول العامة من أن الزوج هو الإثنين، وروي أنه لم يحمل إلا ما يلد ويبيض، وقرئ (من كلّ) بالتنوين أي من كل أمة زوجين، واثنين تأكيد وزيادة بيان». أھ.

كان لا بدّ من هذه الإطالة في نقل تفسير الآيتين الذي نجده مطوّلاً حيناً في بعض التفاسير الأخرى كما عند السيوطي وابن الأثير، وموجزاً في بعض كما عند الزمخشري. والقصد منها وضع نموذج بين يدي القارئ يعطيه فكرة واضحة صحيحة عمّا تطفح به كتب التفسير والأخبار التراثية من خلافات واختلافات في فهم كتاب الله تعالى، ومن تفريع لمعاني الألفاظ تفريعاً يخرج بها عن سياقها في الآية، ومن هذر وهراء لا يعلم أحد - إلا الله العليم - من أين تسلل إلينا، ومع

ذلك بصّر المتشددون من مقدسي التراث وأهله على إلزامنا به حرفياً تحت طائلة التكفير، وفي معظم كتب التفسير تقرأ كل شيء فيها ماعدا التفسير وهي إن اشتركت في شيء فهو منتهى الاحتقار للعقل الإنساني.

أ - لقد اختلف المفسرون في أمر الله، أهو الأمر أم العذاب، واختلفوا في التنور أهو مكان خبز الخبز أم غيره. فإن كان غيره، أهو وجه الأرض أم أعلاها أم أخفض موضع من السفينة، أهو طلوع الفجر أم اشتداد الأمر. واختلفوا في قراءة (كل) أهى بالتنوين أم بدونه. واختلفوا في النبات هل يدخل في الأمر بالتحميل أم لايدخل. صحيح أنهم في المحصلة أدخلوه بحسب قرينة الحال إلا أن الخلاف بقي قائماً. واختلفوا في الزوج أهو واحد أم اثنان. واختلفوا في التنور أهو لآدم أم لحواء أم لنوح. واختلفوا في مكانه أهو في الكوفة أم في الشام أم في الهند، فإن كان في الشام أهو في عين وردان أم في عين وردة. واختلفوا في لفظ التنور أهو عربي أم عجمي معرب. لكنهم - مع ذلك كله - اتفقوا على أمور أخذوها عن بني إسرائيل. الأول أن نوح كان نجاراً، والثاني أن الطوف كان سفينة من ثلاثة طوابق، والثالث أن الطوفان عمّ الكرة الأرضية جميعها.

ب - لقد نسبوا للإمام عليّ - كرم الله وجهه - أن فوران التنور في الآية هو طلوع الفجر. وقد يكون هذا صحيحاً في لسان العرب ضمن سياق آخر بعيداً عن الآية، لكنه في هذه الآية بالذات يستحيل أن يكون كذلك. إلا إذا اعتبرنا أن أمر الله وعذابه مرهون بشكل أو بآخر بطلوع الفجر، الأمر الذي يتعارض عمودياً مع قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ \* أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأعراف ٩٧-٩٨). وهناك احتمال بأن التنور هو فوهة بركان، فإذا ثار البركان يمكن أن يراه الناس من أماكن بعيدة.

ج - تحدّث المفسرون بالتفصيل المملّ عن أن ركاب السفينة ثلاثة أنواع: الأول يشمل الحيوانات والنباتات ويحكمه مبدأ من كل زوجين اثنين أولهما ذكر والثاني أنثى. والثاني يشمل أهل نوح وهم ثمانية: نوح وامرأته وأبنائه الثلاثة سام وحام ويافث ولكل واحد منهم زوجة. وهذا النوع الثاني يحكمه ما يحكم

النوع الأول. أما الثالث فيشمل من آمن بنوح وهم قليل. لكننا لم نسمع أحداً من المفسرين أشار إلى المبدأ الذي يحكمهم، أهو مبدأ الإيمان فقط أم هو مبدأ من كل زوجين اثنين الذي حكم النوعين الأول والثاني؟ والسؤال الآن: ماذا يفعل نوح بشاب عازب مؤمن؟ هل يتركه للغرق لأنه عازب؟ أم يحمله معه لأنه مؤمن ليسطو على زوجات الآخرين بعد انحسار الطوفان؟ وإن كان المعيار في الدخول إلى السفينة هو الإيمان فلماذا حمل نوح امرأته وقد ضربها الله في كتابه مثلاً للذين كفروا ولم يحمل ابنه والأهل هم الزوجة والأولاد، وابنه ممن سبق عليه القول لأنه ليس ابنه.

١٤ - طبقاً للمراحل الحضارية التي مر بها الإنسان وأثبتتها الحفريات الآثارية، فإن النجارة والحدادة لم تكن معروفة في عهد نوح، وقُل مثل ذلك في العمارة والأبنية. ولايتعارض مع قول نوح في التنزيل الحكيم: ﴿رَبِّ أَغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا...﴾ (نوح ٢٨)، فالبيت هو مكان المبيت، وقد يكون كهفاً أو كوخاً بدائياً في غابة. أما مفهوم البناء فلم يتبلور إلا بعد الاستقرار الزراعي وتذليل الأنعام، لكنّ نوح من مقام النبوة بشّر بظهور مفاهيم جديدة في التمويل والبناء وذلك في قوله تعالى على لسان نوح لقومه ﴿... اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُمْ كَانَ غَفَّارًا \* يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا \* وَيُسَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنِزِّلْ لَكُمْ مَاءً مِّنَ السَّمَاءِ فَتَجْرِى سَوَافِحٌ مِّنَ الْفِضَّةِ وَأَنظِرْ لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (نوح ١٠-١٢).

وتشير المعطيات الآثارية وتنقيباتها إلى أن بلاد ما بين النهرين شهدت بالفعل قبل خمسة أو ستة آلاف سنة حدثاً طبيعياً يحمل طابعاً كارثياً ويمكن تسميته بالطوفان على الرغم من كونه ليس عالمياً.

وقد قام ليوناردو وولي بإجراء حفريات أثرية في مدينة أور جنوب الرافدين حيث قام ب ١٢ موسماً تنقيبياً، ويشير إلى أنه حين وصلوا في حفرياتهم إلى الطبقة السفلى التي تتكون من المزيج الاعتيادي الذي تمتاز به المواقع السكنية الأثرية حيث قطع الأجّر والفخار والأوساخ والرماد، فجأة يختفي كل شيء بعد

ذلك ولم يعد هناك آثار تدلّ على نشاط بشري لكنه بعد إجراء قياسات معيّنة أحسّ أنه ينبغي أن تكون التربة النقية واقعة في عمق آخر.

ثم يمضي في حفرياته عمقاً نحو مترين ونصف وإذا بقطع وشظايا الصوّان والفخار والأواني تظهر من جديد.

تساءل المنقّب وولي عن وجود تلك الطبقة النقية الخالية من الأشكال والنشاط البشري وتوصّل إلى نتيجة أن ذلك يعني الطوفان.

يقول وولي: لقد اقتنعنا بأن الطوفان وقع بالفعل وهو في أساسه حقيقة تاريخية، تقول التوراة إن المياه ارتفعت ثمانية أمتار ويبدو أن الأمر كان كذلك بالفعل.

تقول الأسطورة السومرية إن الناس قبل الطوفان كانوا يعيشون في أكواخ من قصب وقد عُثر على هذه الأكواخ في أور في العُبيد. وكان نوح قد صنع سفينته من أشجار خفيفة ثم طراها بالزفت، وقد عُثر في الطبقة العليا على كومة كبيرة من الزفت على آثار السلّة التي كان يحفظ فيها الزفت.

ويشير هذا الباحث إلى أن هذا الطوفان لم يكن طوفاناً عالمياً بل مجرد طوفان اعتيادي غمر المناطق السكنية الواقعة بين الجبال والصحراء ووادي دجلة والفرات ولكن الوادي كان عالمياً كاملاً بالنسبة لسكانه.

وعن فترة حدوث الطوفان يشير إلى أن الفترة العُبيدية تُعتبر فترة نموذجية حضارية للعصر الحجري الحديث حيث كان الناس يعيشون في أكواخ بدائية مطلية بالطين واستخدموا المعادن للزينة. غير أن التنقيبات الحاصلة في موقع أور ومن ثم أريدو حيث «هبط الحكم الملكي من السماء لأول مرة» حسب إثبات الملوك السومريين وضعت الحضارة العبيدية / ما قبل السومرية / في وضع جديد. ففي تلك الفترة تم تحقيق الطفرة الكبيرة من المجتمع البدائي نحو المجتمع المدني المبكر وفي تلك الحقبة بالذات تم تدجين البقر والماشية واخترعت العجلة والقوس وفي تلك الحقبة بالذات بدأ الناس بتشييد المعابد والقصور وفي تلك الحقبة أيضاً ظهرت أقدم مدن الرافدين: أريدو - أور - أوروك.



ويصل الباحث وولي للقول: إن الحضارة العبيدية عاشت الطوفان..  
فالعبيديون هم من عاش هذه الكارثة.

ويشير الباحث كاسيدوفسكي في كتابه «الواقع والأسطورة في التوراة» إلى أن المدى الذي شمله الطوفان كان بالنسبة لسكان آسيا الأمامية آنذ يشكل العالم كله ولذلك كان ذلك الغمر بالنسبة إليهم طوفاناً عالمياً صنّعه الآلهة عقاباً للبشر على شرورهم وتناقلت الأجيال قصة الطوفان هذه من السومريين إلى الأكديين ثم تسرّبت إلى أرض كنعان وأخذها قدماء اليهود ودوّنوا روايتهم عن الطوفان في التوراة.

ولا بأس هنا من تتبّع معالم الثقافة العبيدية كي تتضح الصورة التاريخية لعصر الطوفان :

الثقافة العبيدية : ظهرت مع بداية الألف الخامس قبل الميلاد واستمرت حتى منتصف الألف الرابع. وسُمّيت بهذا الاسم نسبة إلى تل العُبيد في جنوب الرافدين.

تطورت ثقافة العُبيد تبعاً للزمن وكذلك توسّع انتشارها مع الزمن حيث أصبحنا نتلمّس انتشارها في الشمال وحتى سواحل المتوسط.

في مراحلها الأولى نجد أنها صنّعت الفخّار وأشادت أبنية من اللّبن، ثم تطورت في المراحل اللاحقة لنجد أننا أمام صناعة أدوات من حجر الصوّان والأوبسيديان. ويُعتقَد أن الزراعة بالمحراث عُرفت في هذه الفترة، كما استؤنست الأبقار. وفي مجال المعتقدات نجد أن تقديس الأم الكبرى كان سائداً، دلّت على ذلك التماثيل التي عُثر عليها في مواقع مختلفة.

مع المرحلة الثالثة انتشرت هذه الثقافة حتى شمال سوريا وغرباً باتجاه سواحل البحر المتوسط، حيث نجد أنه تم هنا اختراع دولاب الفخار.

وفي المناطق الشمالية استأنسوا الأغنام والماعز ومارسوا الزراعة البعلية.

في مرحلتها الرابعة تميزت هذه الثقافة بتطور اختراعاتها ويلاحظ حصول

تطور مهم في مجال العمارة الدينية حيث نلاحظ اتساع المباني وكأنها تمنح دليلاً على اتساع أهمية المعبد اجتماعياً.

١٥ - كانت الأعمار في عهد نوح لا تزيد أبداً عن الأعمار في يومنا هذا، بل لعلها كانت أقل. فلقد أثبتت الوثائق التاريخية أن متوسط الأعمار عند الفراعنة لا يزيد عن ٤٠ عاماً. أما الزعم بأن عمر آدم كان ألف عام وأن نوح لبث في قومه تسعمائة وخمسين عاماً يدعوهم إلى الإسلام فهذا ضرب من العبث والتخريف، لا نلوم عليه أصحاب التراث التوراتي لأن علوم التاريخ والبيولوجيا كانت مجهولة لديهم، لكننا نلوم المعاصرين الذين ما زالوا يظنون - ويفرضون علينا ظنهم - أن الإنسان كان يعيش ألف عام أو أكثر. فإن احتج علينا مستنكر بأن عمر نوح مذكور صراحة في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (العنكبوت ١٤). نقول: هذا احتجاج وجيه يجب الوقوف عنده بالتأمل والتوضيح.

في وثيقة تعود لنهاية الألف الثالث قبل الميلاد وضع الكهنة قائمة للملوك السومريين الذين حكموا مدن الرافدين قبل الطوفان وبعده.

يقدم هذا النص معطيات عن وجود خمس مدن في عصر ما قبل الطوفان حيث نزلت الملوكية من السماء (وهذا تعبير أن النذر كانت من الملائكة فقط قبل الرسل من البشر وكان أولهم نوح) وأسست تلك المدن وهي: اريدو حيث حكمها ملكان استمر حكمهما لمدة ٦٤٠٠٠ سنة.

ثم انتقلت الملوكية إلى مدينة باد - تيرا وحكمها ثلاثة ملوك لمدة ١٨٠٠٠٠ سنة.

وانتقلت فيما بعد إلى مدينة لرك وحكمها ملك واحد لمدة ٢٨٠٠٠ سنة.

ثم سبار حيث حكمها ملك واحد لمدة ٢١٠٠٠ سنة.

وأخيراً مدينة شوروباك التي حكمها ملك واحد لمدة ١٨٠٠٠ سنة.

وما نلاحظه هنا هو فترات حكم الملوك الخيالية والمبالغ فيها، أو ربما لا يمكن فهمها إلا ضمن مساقها السومري آنذاك.

ويبدو أن هذه الفترات الخيالية انسحبت بدورها على ما جاء في التوراة من أعمار خيالية للأنبياء.

إذن في فترة ما قبل الطوفان كان هناك خمس مدن حكمها ثمانية ملوك لمدة ٢٤٠٠٠ سنة.

ثم حلّ الطوفان / كما ورد في الوثائق السومرية- البابلية / و«جرف البلاد»، لتعود الملوكية مرة ثانية وتنزل في مدينة كيش الرافدية حيث حكمها ٢٣ ملكاً لمدة ٢٤١٥٠ سنة وثلاثة أشهر وثلاثة أيام ونصف اليوم.

ثم دُمرت كيش (في حرب) وانتقلت الملوكية إلى مدينة اي-أنا حيث حكمها ١٢ ملكاً لمدة ٢٣١٠ سنوات.

ثم دمرت أوروك وانتقلت الملوكية إلى أور حيث حكمها أربعة ملوك لمدة ١٧٧ عاماً.

وبعد دمار أور انتقلت الملوكية إلى أوان وحكمها ثلاثة ملوك لمدة ٣٥٦ عاماً.

وتدمرت أوان وانتقلت الملوكية إلى مدينة خمازي وحكم ملك واحد لمدة ٣٦ عاماً.

ودمرت خمازي وانتقلت الملوكية إلى أوروك وحكم ثلاثة ملوك لمدة ١٨٧ عاماً.

وبعد دمار أوروك انتقلت الملوكية إلى أور حيث حكمها ثلاثة ملوك لمدة ١١٦ عاماً.

ومن أوروك إلى أدب حيث حكمها ملك واحد لمدة ٩٠ عاماً.

ومن أدب إلى ماري حيث حكم فيها ٦ ملوك مدة ١٣٦ عاماً.

ومن ماري إلى كيش حيث حكمتها ملكة واحدة لمدة ١٠٠ سنة.

ومن كيش انتقلت الملوكية إلى مدينة اكشك حيث حكمها ٦ ملوك لمدة ٩٩ سنة.

وبعد اكشك انتقلت إلى كيش حيث حكمها سبعة ملوك لمدة ٤٩١ سنة.

ثم من كيش إلى أوروك حيث حكمها لوجال زاجيزي لمدة ٢٥ عاماً.  
ومن أوروك إلى أكد وحكم فيها ١١ ملكاً لمدة ١٩٧ سنة.  
ومن أكد إلى أوروك حيث حكمها خمسة ملوك لمدة ٣٠ سنة.  
وبعد دمار أوروك انتقلت الملوكية إلى الكوتيين حيث حكم ١٢ ملكاً لمدة ٩١ سنة.

دُمر الكوتيون وانتقلت الملوكية إلى أوروك وحكم ملك واحد ٧ سنوات و٦ أشهر و١٥ يوماً.

ثم دمرت أوروك وانتقلت الملوكية إلى أور.  
ويتتهي إثبات الملوك السومريين عبر سلاتي أور الثالثة وسلالة مدينة إيسن في ٢٠١٧-١٧٩٤ ق.م.  
ويبدو أن الفترات المحددة فيما بعد الطوفان ولا سيما في وسط ونهاية القائمة كانت واقعية إلى حد ما.

وقد ذكرت إحدى الوثائق: «أن الطوفان قضى على الجميع وبعد الطوفان نزل الحكم الملكي من السماء من جديد وأصبحت مدينة كيش مقر حكم الملوك. وقبل الطوفان كان الحكم الملكي قد هبط من السماء لأول مرة في مدينة اريدو». ونؤكد هنا أيضاً أنه قبل نوح كانت النذر من الملائكة فقط، وقد تم التعبير عنه بأن الحكم هبط من السماء، ثم صار مشتركاً بشراً وملائكة (نوح حتى إبراهيم) ثم بشر فقط وهو الرسول محمد (ص) وظل هذا المعتقد ساري المفعول فترة طويلة من الزمن بأن سلالات الملوك مقدسة.

من حيث المبدأ، إذا تعارض ظاهر نص قرآني مع حقيقة علمية ثابتة وجب اللجوء إلى التأويل. وإن تعارض فهمنا لنص قرآني مع حقيقة علمية ثابتة حكمنا بأن فهمنا للنص هو الخطأ وليس النص بذاته، لأن كلام الله تعالى - بداهة - لا يمكن ولا يجوز أن يتعارض مع كلماته أي مع قوانينه ونواميسه.

ولقد نظرنا في التنزيل الحكيم فوجدنا فيه حقيقة ومجازاً، ووجدنا فيه أعداداً تشير إلى القلة أو إلى الكثرة أكثر مما تشير إلى رقم إحصائي بعينه، كعدد الملائكة في قوله تعالى ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ \* بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران ١٢٤-١٢٥). وفي قوله تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَتَىٰ مُمِدَّدُكُمْ بِآَلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَوِّفِينَ﴾ (الأنفال ٩). والواضح أن هذه الآلاف (٣/٥/١) ليست أرقاماً إحصائية بقدر ما هي البُشرى والتثبيت وإثارة مشاعر الصمود والصبر. وكعدد السنين التي يرجوها المشرك في نفسه في قوله تعالى ﴿... وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَذُ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَزَّحٍ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ...﴾ (البقرة ٩٦). ووجدنا أن الزمن يطول ويقصر، فالיום الواحد يعادل حيناً ألف سنة كما في قوله تعالى ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة ٥). وقوله (مما تعدون) يدل بكل وضوح على أن هناك سنين قابلة للعد وأخرى غير قابلة للعد. والليلة الواحدة أكثر خيرية من ألف شهر كما في قوله تعالى ﴿يَلَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (القدر ٣). وكانت يجب أن تكون - بحساب آية السجدة ٥ - خيراً من ستة آلاف شهر. هذا إن اعتبرنا أن الشهر هو زمن وليس حدثاً وهو الإشهار. وأرى أن الشهر في سورة القدر هو من الإشهار وليس فترة زمنية.

فإن انتقلنا من آيات التنزيل الحكيم إلى ما نتداوله نحن في حياتنا اليومية، وجدنا أن هناك سنة شمسية وسنة قمرية تختلفان بعدد الأيام، وأن هناك أسبوعاً مؤلفاً من سبعة أيام، لكنه لم يكن كذلك دائماً، فقد مرت على الإنسانية فترات كانت أيام الأسبوع فيها ثمانية. وانظر حين نقول: الساعة الآن عشرة إلا خمسة، نجد أننا لا نعني إطلاقاً أنها الساعة الخامسة (١٠-٥=٥) لأننا استعملنا وحدتين زمنيتين مختلفتين الأولى ساعة والثانية دقيقة وكذلك التنزيل الحكيم استعمل

وحدثين مختلفتين هما السنة والعام، وهذا يعني بالضرورة أن حاصل الطرح بين ألف سنة وخمسين عاماً ليس ٩٥٠.

هذا كله يعطينا فسحة تسمح لنا بمرونة تأويلية يتطابق فيها الدليل العلمي مع العدد القرآني، ومع ذلك فقد أعطانا الدليل العلمي أن القرآن استعمل التقويم الذي كان سائداً في عهد نوح وليس في تقويمنا نحن. فمتوسط الأعمار عند البشر في نمو مستمر وليس العكس، والدليل العلمي أعطانا بأن نقول (صدق الله العظيم) حول زمن دعوة نوح في قومه. حيث نبهنا التنزيل الحكيم قبل الاكتشافات الأثرية بأن التقويم المستعمل في عهد نوح يختلف عن التقويم المستعمل الآن.

١٦ - لقد حمل نوح معه في السفينة مجموعة من المؤمنين وأهله إلا من سبق عليه القول، أي أن ابن نوح ليس من أهله والاحتمال وارد بأن نوح كان أبوه ولكن ليس والده، لأن امرأة نوح كانت من الكافرين ولم تقم لنوح أي عهد، وكذلك امرأة لوط حيث قال تعالى عنها ﴿إلا امرأتك فإنه مصيبها ما أصابهم﴾ أما عن امرأة نوح فلم يذكر أنها هلكت مع قومها لأنها من أهله ووعد الله بأن ينجي أهله.

١٧ - ظهور طبقة المملأ وطبقة الأراذل. فقد بدأ منذ نوح (ع) ظهور التمايز الاجتماعي - أو التمايز الطبقي كما يسميه البعض - والمملأ: الأشراف من الناس الذين ملثوا كرمياً وحسن خلق (ابن فارس، ج ٥ ص ٣٤٦). ونحن نرى أن كل من امتلأ بصفة ما كريمة أو خسيصة واشتهر بها فهو من المملأ. وعلى هذا، فالمملأ عندنا ثلاثة أصناف: المملأ السياسي، وهم كل من امتلأ بالقوة والسلطة، والمملأ المالي أو الاقتصادي، وهم كل من امتلأ بالثروة، والمملأ الديني، وهم كل من امتلأ بالعلوم الدينية كرجال الدين والهامانات.

وبالعودة إلى معالم الثقافة العبيدية والتي يُعتقد أن الطوفان حصل خلالها، بمعنى بين الألف الخامس ومنتصف الألف الرابع قبل الميلاد، فإننا نجد أن

العبيدين كانوا قد عرفوا الزراعة وتأنيس الحيوان وصناعة الفخّار، واعتمدوا في أبنيتهم وأدواتهم على القصب والطين ومارسوا الزراعة المروية.

فإن كان المَلَأ السياسي غير متصالح مع شعبه ويحكمه بالقمع والإكراه فهو مَلَأٌ مستبد ومثاله فرعون. وإن كان المَلَأ المالي يستغل شعبه ويجوّعه فهو أيضاً مستبد مثاله قارون، وإن كان المَلَأ الديني يمسك برقاب الخلق، وينصب نفسه وصياً مرجعياً على عقولهم، ورقبياً على جسور العلاقة بينهم وبين ربهم لا يمر عليها شيء في الاتجاهين إلا بإذنه، ويعتبر أنه ممثل الإله في الأرض، فهو بدوره مَلَأٌ مستبد مثاله هامان.

أما الأراذل فهم من فعل رذل وهو الدون من كل شيء (ابن فارس ج ٢ ص ٢٠٩). والأراذل بالنسبة للفراعين هم الدهماء، وبالنسبة للهامانات هم العوام، وبالنسبة للقوارين هم الفقراء، وبالنسبة للعلماء من غير رجال الدين هم الجهلة<sup>(١)</sup>.

بالمقابل، قد يكون هذا المَلَأ إيجابياً كمَلَأ بلقيس ملكة سبأ، وهم من نسمّهم الآن «البطانة الصالحة» التي ندعو الله في صلاة الجمعة أن يعطيها للحكام، لكن الله سبحانه في معظم الحالات لا يستجيب.

ثمة قانون عام يقول إن لكل مَلَأ مصالحه الخاصة، فإذا ظهر ما يضرب هذه المصالح فإن أول من يهتّب للدفاع عنها هم المَلَأ الذين يخافون على مصالحهم وامتيازاتهم. وأنا أرى أن المَلَأ المستبد الأساسي هم رجال الدين (العلماء الأفاضل) الذين يقفون في وجه كل دعوة إصلاحية وخاصة على الصعيد الديني، لأن أي إصلاح ديني لا بد أن يضرب مصالحهم ويطيح بامتيازاتهم. وأرى أن المَلَأ الديني هم أخطر مَلَأ موجود في العالم الإسلامي اليوم، لأنهم أكثر طبقة

(١) المثقفون في الوطن العربي يعتبرون أنفسهم من المَلَأ لكنهم ليسوا كذلك، فهم - حسب التعبير القرآني - في أحسن أحوالهم جنود لصنف من أصناف المَلَأ الثلاثة. ولقد شاع في الثقافة العربية الإسلامية اسم «أهل الحل والعقد» وهؤلاء هم المَلَأ حسب المصطلح القرآني.

تسعى إلى تكريس العامة والجهل عند الناس وتحولهم إلى قطع، وتتدخل باسم الإله في أدق تفاصيل حياتهم. ولا تؤمن بشيء اسمه حرية الاختيار، أو بشيء اسمه العقل النقدي.

١٨ - لقد عاش نوح وقومه في منطقة غنية بالينابيع تحيط بها جبال غزيرة الأمطار بدليل قوله تعالى على لسان ابن نوح ﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ...﴾ (هود ٤٣). والمعروف أن العواصف المطرية في الجبال تسبب سيولاً مدمرة تجتاح المناطق المنخفضة والسهول والوديان. وكلنا يذكر أن أخبار خراب الكعبة المشرفة وقيام القبائل بترميمها قبل البعثة النبوية إنما حصل بسبب السيول النازلة من الجبال المحيطة بمكة.

لكن الله تعالى إذا أراد إغراق قوم يعيشون في الأناضول مثلاً فهو لا يحتاج إلى إغراق من في الهند والصين واليابان، خصوصاً أنه يقول ﴿... وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِّلْ وَائِزَةً وَنَزَّلْ أُخْرَى...﴾ (الأنعام ١٦٤). ومن هنا نقول إن الطوفان كان محلياً وليس عالمياً.

فإن سأل سائل: فكيف سار هذا الطوفان بين الجبال دون أدوات توجيه ودون أشرعة؟ أجابه: لقد تم صنع الفلك بوحي من الله ورعايته. وسار باسم الله في جريه بدلالة قوله تعالى ﴿وَقَالَ أَزْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرَهَا وَرُسُهَا إِنَّ رَبِّي لَفَعُورٌ رَجِيمٌ \* وَهِيَ تَجْرَى بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ...﴾ (هود ٤١-٤٢).

١٩ - لقد دعا نوح على قومه أثناء الطوفان لاقبله، بعد أن رأى الأهوال وتصور ما يمكن أن يفعله من سيبقى على قيد الحياة، بدلالة دعائه قائلاً ﴿... رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا \* إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِراً كَفَّارًا﴾ (نوح ٢٦-٢٧). وهذه عبرة عامة بأن كل من يتعرض للمخاطر والأهوال وينجو فسوف ينتقم انتقاماً شديداً ممن كان السبب في تلك الأهوال. وفي هذه الآية نفهم أن فعل (يلدوا) يحمل مفهوماً تربوياً ولا يحمل مفهوماً بيولوجياً أي منذ الصغر يربون أولادهم على الفجور والكفر.



## - معنى اسم نوح :

اشتقاق اسم نوح حسب النص التوراتي العبري (جذر نحم):  
اشتق كلمة التوراة اسم (نوح) من جذر (نحم) العبري (ويعني عزى) وهو جذر مصري قديم، وربما طابق (نحم) العربي. فقد ورد بالنص التوراتي [شموح نوح لأمر زه ينحمنوا]، ومثله بالتوراة السامرية.

اشتقاق اسم نوح حسب بعض ترجمات النص التوراتي (جذر نوح):  
استعملت التوراة السبعينية (ترجمة يونانية للتوراة منذ القرن الثالث ق.م) وكذلك كتاب منسوب لفيلو (من القرن الأول الميلادي) أثناء ترجمة النص العبري السابق، كلمة (rest) التي يُترجم بها عادة معنى جذر نوح العبري (سكون، قرار، استقرار، نزول، جلوس، استراحة، توقف، ..)، أي نفس الجذر العربي (نوخ) تقريباً، وقد حذت حذوهما بعض الترجمات الحديثة.

اشتقاق اسم نوح حسب جمهور علماء أو مصادر أهل الكتاب (جذر نوح):  
يُشتق اسم نوح (لدى جُلّ علماء أهل الكتاب) من جذر (نوح) العبري الذي لا يكاد يختلف عن جذر (نوخ) بالعربية. وجذر (نوح) بالعربية يعني (استقر، نزل، حلّ، خفض، سكن، خيم، استراح ومنه الأسماء (منزل، قرار، مقر، مستقر، سكن، حلول، جلوس). ونفس الاشتقاق لاسم نوح (من معنى جذر نوح) لدى الموسوعة اليهودية والكاثوليكية وغيره.

وتفسير اسم نوح من معنى (rest) تفسير صحيح أو قريب منه، ولكنه لم يفسّر السبب الحقيقي (الذي سنعلمه لاحقاً) لتسمية نوح. ولعل قول بعض مفسري المسلمين أن (السكن أو الساكن) اسماً أقدم لنوح، هو بتأثير من أهل الكتاب.

## معنى اسم نوح عند أكثر المفسرين المسلمين :

فسّره أكثرهم بمعنى النواح (البكاء والصياح والعيول). وهو تفسير سطحي غير موفق، لأنه فسّر معنى كلمة قديمة (نوح)، بمعنى كلمة عربية (نوح) لمجرد تطابق اللفظ.

الاحتمال الأصح والأقرب لمعنى نوح  
(نوح أي الذي أناخ في قومه ألف سنة)

اسم (نوح) عليه السلام لغة قديمة في نفس معنى الإناخة والنوخة (الإقامة والمكوث بالأرض)، وذلك لطول لبث نوح بالأرض وبقائه حيّاً بها:  
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا {١٤}  
العنكبوت، فاشتقاق اسم نوح من النوخة، لأنه أناخ بقومه ٩٥٠ سنة (اللبث والبقاء والمقام في قومه نحو ألف سنة). فكأن اسمه هو (الذي أناخ بالأرض)، أي مكث وقر واستقر وظل وخلد فيها كثيراً جداً، فاسمه بمعنى (الذي أناخ بالأرض فلبث حيّاً ألف سنة).

جذر نوح يستعمل في أمور عديدة أكثرها في شأن الإبل مثل: (أَنُخْتُ الجمل)، (نَوَخَ البعير)، (وَتَنَوَخَ الجملُ الناقةً)، (نَخْنَخْتُ الناقةَ فَتَنَخْنَخْتُ)، (تَنَخَّنَخَ البعيرُ)، (أناخ الجملُ)، (نَوَخَ الجملُ)، (تَنَوَخَ الجملُ)، وقد يستعمل للنعم عموماً (النَّخ) أو للأسد (المُنِيخ)، أو في غير ذلك مثل: (أناخ بالمكان)، (مُناخ سوء)، (يُنِيخ الرجلُ)، (وَلَوْ أَنُخْنَا جَمْعَهُم تَنَخَّنَخُوا)، (أناخ بفلان حاجته) (أناخ به البلاء والذل)، (أناخ بهم المخلُ)، (أناخ الدهرُ)، (أناخ الشتاء)، (أناخ الأمرُ عليهم)، (أناخ الخطبُ قبض...)، (أناخ الشيبُ ضيفاً)، (أناخ اللَّيْلُ غَارِب...)، (نَوَخَ اللّهُ الأرضَ)، (أناخ السحابُ)، (م ن خ ت، م ن خ ي، بلسان اليمن القديم).

ولكن يبدو أن القدماء بزمان نوح (أو قومه على الأقل)، لم يعرفوا الخاء فلفظوها حاء. فاسم (نوح) هو اسم ناداه به قومه لطول نوحته (إقامته ومكثه ولبثه في الأرض)، فكأنهم (بسبب طول حياته وعدم موته) نعتوه باسم المُنِيخ أو المعمر أو الخالد أو الأبدي أو الماكث أو القارّ أو اللابث اللابد المقيم الذي لا يبرح ولا يزول [يا نوح يا أكبر الأنبياء ويا طويل العمر]، أو بالأحرى كما سمّوه بلسانهم القديم (نوح).

وقد أصاب رؤوف أبو سعدة رحمه الله في تفسير اسم نوح في كتابه (من

إعجاز القرآن في أعجمي القرآن). ومن الخطأ ما جاء بالتوراة أن قوم نوح كانوا يعمرّون بضع مئات من السنين، لأنه لن تكون لنوح ميزة في اسمه أو خصوصية لو أناخ قومه مثله.

لفظ ومعنى (نوح) بالحاء هو نفسه (نوخ) بالخاء

- التبادل بين حرفي الخاء والحاء قد يحدث بين لغات المنطقة المختلفة (نوح- نوخ)، (تنوخ- تنوخ). فالعرب مثلاً لفظوا كلمة (تنوخ) بالخاء، بينما لُفِظ نفس الاسم باللغة الآرامية النبطية بصورة (تنوخ) بالحاء.

- وقد يحدث هذا التبادل بين حرفي الخاء والحاء بين الفصحى والعامية (تنخ/ تنح). فبالفصحى لفظة (تنخ) بالخاء، وبالعامية تُلفظ بالحاء (تنح) كفعل، و(تناحة) و(تنيح) كمصدر، و(مُتنِح) و(تنح) كصفة للشخص (اللابث والرابض والجاثم في مكانه لا يتحرك).

- كما قد يحدث هذا التبادل بين حرفي الخاء والحاء بين لهجات الفصحى نفسها.

جذر (نوح) بالحاء في اللغات القديمة للشام والعراق

عرفت اللغات القديمة بالشام (كالآرامية والكنعانية ولهجة في الأوغاريتية) وبشمال الحجاز (كالآرامية النبطية) جذر (نوح) بلفظه بالحاء (وبمعنى جذر نوخ العربي). كما عرفته النصوص التوراتية بهذا المعنى. ولا تزال مدن بالشام (لبنان) تسمى بهذا الجذر مثل (نيحا) و(يانوح).

وقد اشتقت كلمة (night) كما بالإنجليزية، أو بلهجات لغات أوروبا الأخرى) من جذر (نوح، نوخ) لأن الليل (night) نوخة (سكن واستراحة). وربما الآنك (الرصاص) من ثقله (كأنه لغة قديمة في جذر نوخ أو هما تنوخ لفظي من أصل واحد).

كما يرد لفظ (نحت) بالكنعانية أو الآرامية أو (نخت) بلسان العراق وبعض الشام القديمين بنفس معنى (نوح).

لفظ مصري قديم قريب من لفظ نوح ومعناه وينقوش مصر جاء لفظ (نحج) بمعنى الأبدية، وتسمى به آلهة الخلود والأبدية. كما سمي القبر : أس - ت نحج (مكان الأبدية)، بر نحج (بيت الأبدية)، تا نحج (أرض الأبدية)، وغيره من التسميات. وأصبحت لفظة (نحج) بالقبطية (إنج).

واسم نوح (لفظاً ومعنى) غير بعيد عن ذلك الجذر المصري القديم. كما ارتبط لفظ (نخج) المصري (بالهرم وطول العمر). وهذا قد يكون من نفس أصل جذر (نوخ) العربي.

بعض اللغات القديمة لفظت نوخ بالخاء كلفظه العربي كالأكدية (بالعراق) والأوغاريتية والعمورية (بالشام) تلفظه بالخاء كلفظه العربي (نوخ) ومعناه.

### مراجع البحث:

- ١- فراس السواح - مغامرة العقل الأولى ط ٢ - دار سومر للنشر ١٩٨٦.
- ٢- صموئيل كريم - من ألواح سومر - ت: طه باقر - مكتبة المشى بغداد.
- ٣- طه باقر - ملحمة جلجامش - وزارة الإعلام - العراق ١٩٧٥.
- ٤- طه باقر - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة - نسخة إلكترونية.
- ٥- زينون كاسيدوفسكي - الواقع و الأسطورة في التوراة. - ت: د. حسان إسحاق - دار الأبجدية - دمشق ١٩٩٠ ط ١.
- ٦- أ- كوندرا توف - الطوفان العظيم - ت: د. عدنان حمودي - دار وهران - قبرص ط ١ ١٩٨٦ م.
- ٧- د. نائل حنون - ملحمة جلجامش - دار الخريف - دمشق ط ١ ٢٠٠٦ م.
- ٨- د. سلطان محيسن - المزارعون الأوائل.
- ٩- برورهارد بريتنس - نشوء الحضارات القديمة.
- ١٠- سيتون لوين - آثار بلاد الرافدين - ت: محمد طلب - دار دمشق ط ١ ١٩٩٣ - دمشق.



## هود عليه السلام

كان الصيد البرّي هو الغالب في عهد نوح (ع). أما في عهد هود فقد بدأت الزراعة بالظهور، وظهر معها بناء الحضائر لحماية الحيوانات المستأنسة، كالضأن والماعز والبقر والإبل، من الحيوانات البريّة المفترسة. ولم يعد الصيد هو الغالب بل حلّ محله الرعي. وترافق ذلك مع ظهور الأبنية البدائية للسكن، وكانت نوعين: نوع متنقل خفيف يسهل حمله أيام الطعن، ونوع ثقيل لا يمكن نقله هو البيوت من الشجر أو من الحجر أو من كليهما معاً، والنوعان مذكوران في قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن يُّوْتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَثَا وَمَتَنَعَا إِلَيْنَ جِئِينَ﴾ (النحل ٨٠).

ونلاحظ أن لفظ الأنعام رغم وروده في اثنين وثلاثين موضعاً من التنزيل الحكيم، ورغم وجود سورة فيه تحمل هذا الاسم هي السورة رقم ٦، إلا أنه لم يرد مطلقاً في قصة نوح. وهذا لا يعني أنها لم تكن موجودة. بل يعني أنها لم تكن من سمات عهد نوح.

وكما وقفنا في قصة نوح عند قوله لقومه (ويمدكم بأموال وبنين.. ) نوح ١٢، واعتبرناه نبوءة حق تستشرف ما سيحصل فيما بعد، كذلك نقف في قصة هود عند قوله لقومه ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ \* أَمَدَّكُمْ بِأَنْصَارٍ وَبَيْنَ﴾ (الشعراء ١٣٢-١٣٣). ونقارن بين الآيتين لنلاحظ ما يلي:

أ - الأموال في آية نوح ١٢ هي نفسها الأنعام في آية الشعراء ١٣٣ .

ب - الإمداد بصيغة المضارع التي تحمل في طياتها لمسة دلالية على المستقبل ، تحوّل إلى إمداد بصيغة الماضي ، في إشارة إلى أن نبوءة نوح في وقتها أصبحت واقعاً تؤكدته الدراسات في عهد هود .

وننتقل إلى تعريف الأنعام وتعريف البنين باعتبارهما من أبرز سمات عهد هود .

### الأنعام:

النَّعَمُ: جمع لامفرد له يشمل الإبل والبقر والماعز والضأن . ورد مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ (المائدة ٩٥) ، فإذا أفردناه إلى نِعَمَةٍ أو إلى نعمة صارت شيئاً آخر من حيث الدلالة .

والأنعام جمعُ جمعٍ للنعم ، فهو مثله في الدلالة يشمل الإبل والبقر والماعز والضأن ، والأنعام من نعم الله على خلقه كحلقة في سلسلة الدورة الغذائية للبشر والإنسان . والانتفاع بها لا يقتصر على أكل لحومها ، بل يتعداه إلى وجوه قررها سبحانه في كتابه العزيز . كقوله تعالى ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ \* وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَرَحُّونَ \* وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تُكُونُوا لِيَلْفِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ . . .﴾ (النحل ٥-٧) . إضافة إلى جعل جلودها بيوتاً خفيفة في الترحال ، وإلى الانتفاع من أصوافها وأوبارها وأشعارها في صنع الملابس والأثاث والمتاع ، كما مر معنا في آية النحل ٨٠ .

والأنعام - بالأصل - هي الحيوانات المستأنسة من آكلات العشب في قوله تعالى ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَهَا \* وَالْجِبَالَ أَرْسَهَا \* مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (النازعات ٣١-٣٣) أي ماءها + مرعاها = متاعاً لكم ولأنعامكم ، وإنما قلنا المستأنسة لنخرج منها الغزلان والزرافة والسناجب والثيران الوحشية ، وقلنا من آكلات العشب لنخرج منها القطط والكلاب وكل ما له مخالب وأنياب - حسب الحديث

الرسولي - وإن كان أليفاً، التي لم يحلّ أكلها ولم تدخل في قوله تعالى ﴿... وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ...﴾ (الحج ٣٠).

قد يسأل سائل: وهل كانت الأنعام محرمة حتى يقال (وأحلت) بقصد تحليلها؟ نقول: التحليل والتحرير في التنزيل الحكيم يتناول الأفعال ولا يضاف إلى ذوات الأشياء، وهذه واحدة. والحلال هو الأصل في الأشياء والحرام هو الاستثناء، بدلالة قوله تعالى ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ...﴾ (آل عمران ٩٣). إلا في مسألة قتل النفس، إنساناً كان أو حيواناً أو نباتاً، فالحرام هو الأصل والحلال هو الاستثناء. وهذه واحدة ثانية. وفي ضوء هاتين يصبح معنى الآية: أحل لكم ذبح الأنعام لأكلها والانتفاع بها، بعد أن كان ذلك محرماً بالأصل، عدا ما ذكر التنزيل الحكيم من أنواع بقيت على تحريمها كلحم الخنزير رغم أنه من الحيوانات المستأنسة آكلات العشب لذا فإننا نذكر اسم الله عند ذبح الأنعام لتذكر بأن الله أحل لنا قتلها وأن التحريم هو الأساس في الدماء.

لا بد قبل أن نختم فقرتنا هذه من أن نتحدث عن «بهيمة الأنعام» التي ورد ذكرها في ثلاثة مواضع من التنزيل الحكيم:

١ - ﴿... أَحَلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (المائدة ١).

٢ - ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَقْلُومَةٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ...﴾ (الحج ٢٨).

٣ - ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَسْكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ...﴾ (الحج ٣٤).

لقد شرحنا المقصود بالأنعام في الفقرة السابقة، بقي أن نشرح المقصود بالبهيمة لنتقل بعدها إلى تعريف بهيمة الأنعام.

البَّهِيْمَةُ : ولد الضأن والماعز ذكراً كان أم أنثى، جمعها بُهْمٌ، وجمع الجمع



بهم. والبهم: الأسود، والبهم من الألوان ما كان لوناً واحداً يخالطه غيره سواداً أم بياضاً، جمعها بهم. والبهم: المجهول الذي لا يعرف. والبهيمة: كل ذات أربع قوائم من دواب البر والبحر ما عدا السباع، جمعها بهائم. والبهيمة: كل حي لا يميز.

فإذا عرفنا هذا، وأردنا تعريف بهيمة الأنعام فنحن أمام أحد اعتبارين: إما أن البهيمة والأنعام شيء واحد والإضافة بينهما للبيان لقولك خاتم فضة، وفي ضوء هذا الاعتبار يصبح معنى قوله تعالى ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ كمعنى قوله ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ وهذا غير وارد في التنزيل الحكيم. أو أن المراد بالبهيمة شيء وبالأنعام شيء آخر، وعلى هذا الاعتبار في المراد قولان: الأول أن المراد ببهيمة الأنعام الطباء ويقر الوحش ونحوها، وكأنهم أرادوا ما يدانيها من جنس البهائم ويشابها في الاجترار ويمثلها في عدم الأنياب (وهذا ما نميل نحن إليه أي هي الأنعام المستأنسة المذلة) والثاني أن المراد ببهيمة الأنعام أجنّتها.

والخلاصة أننا نفهم من آيتي الحج وآية المائدة أن بهيمة الأنعام هي الحيوانات المستأنسة المذلة من الأنعام آكلة الحشائش وهي التي تصلح كأضاحي، ومن هنا فنحن في الأضاحي لا نذبح فيلة ولا زرافات ولا وحيد القرن، أما الطباء فيروى عن عمر بن الخطاب أنه أجاز ذبحها كأضحية في الحج.

البنين: قد تأتي من فعل بنن وقد تأتي من فعل بنو. أي أن البنين في قوله تعالى ﴿أَمَذَكُرُ بِأَنعَمِرَ وَيَنِينَ﴾ (الشعراء ١٣٣)، والبنون في قوله تعالى ﴿أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ (الكهف ٤٦)، لا علاقة له بالذكور من الأولاد، بل بالبنيان. ودليل ذلك أمران: الأول لغوي والثاني قرآني ونبوي. أما الأول، فيقول أصحاب المعاجم: كل ما زاد مفردة عن جمعه بالهاء فإنه يؤنث ويذكر، فمثلاً: كنانة مفرد جمعه كنان وجمع الجمع كنون، وظنانة مفرد جمعه ظنان وجمع الجمع ظنون كما في قوله تعالى ﴿وَنَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونُ﴾ (الأحزاب ١٠)، وكذلك بنانة مفرد جمعه بنان وجمع الجمع بنون (انظر مختار الصحاح / محمد بن أبي بكر الرازي)

وأما الثاني، فإن الله تعالى يقول عن يوم الحشر: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (الشعراء ٨٨)، والنبي (ص) يتحدث عن الباقيات الصالحات في حديثه - إن صح - : ينقطع عمل العبد بموته إلا من ثلاث، صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له. أهـ. ونفهم أن دعاء الولد الصالح ينفع والديه يوم الحشر. فإن نحن فهمنا أن (البنون) في آية الشعراء هم الذكور من الأولاد، تماماً ك (البنين) في قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً...﴾ (النحل ٧٢)، وفي قوله تعالى ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا...﴾ (الإسراء ٤٠)، هنا نرى أن الحديث النبوي تطابق تماماً مع القرآن حيث ذكر الولد، والولد هو الذكر والأنثى، ولتتج لدينا أن دعاء البنات الصالحات لوالديهم لا ينفعهم يوم الحشر من جانب آخر، وكلاهما لا يقول بهما عاقل.

نأتي الآن إلى ما رأيناه من العبر في قصة هود:

١ - بعد تحقيق نبوءة نوح في ظهور تذليل الأنعام والبناء، بدأ ظهور القرى التي ستصبح بلداناً ومدناً فيما بعد، والتي جاء اسمها من فعل قرَّ أي سكن واستقر وهذه حقيقة تاريخية أي حصول الاستقرار (القرى) مع تذليل الأنعام.

٢ - اتجه هذا البنيان إلى رؤوس التلال في عهد هود، لأن طوفان نوح الذي جرف المناطق المنخفضة ما زال باقياً في ذاكرة الأجيال، بدليل قوله تعالى ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَبْنُونَ﴾ (الشعراء ١٢٨)، والرَّيْع بكسر الراء وفتحها هو المرتفع من الأرض والهضبة المشرفة على مسارب الناس، جمعه رِيع وريوع وأرياع، ولكن لماذا سمى الله البناء على التلال عبثاً؟ والجواب في قصة نوح حين قال له ابنه ﴿سَآوِئَ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِيُنِي مِنَكُمُ الْمَاءُ﴾ فأجابه نوح ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ﴾ (هود ٤٣). وكان قوم هود يفعلون ما فعله ابن نوح، ويحاولون الهرب إلى الجبال من أمر الله وعذابه، وهذا هو العبث الذي لافائدة منه.

٣ - لقد سكن قوم هود في منطقة جبلية غزيرة الأمطار، حيث بنوا مصانع

لتجميع مياه الأمطار، إذ لا أنهار في الجبال ولا سواقي، بدليل قوله تعالى ﴿وَتَتَخِذُونَ مَصَافِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (الشعراء ١٢٩). والمصانع جمع مفردة مصنع، والمصنعة: شبه الحوض يجمع فيه ماء المطر (انظر مختار الصحاح).

٤ - ظهور التعددية في التخصص والاختصاص عند الآلهة، فهناك إله للخير وإله للشر، وإله للخصب وإله للمطر، وهذه مرحلة متقدمة بالنسبة لقوم نوح الذين عبدوا ظواهر الطبيعة من شمس وقمر. والدليل قوله تعالى عن هود ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصْبٌ أَنْجِدُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَيِّئُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ...﴾ (الأعراف ٧١).

٥ - كانت بعثة هود مقتصرة على الدعوة إلى التوحيد، إذ لم أجد في التنزيل الحكيم أنه دعا إلى أمر آخر غير التوحيد. يقول تعالى ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقُوتُ﴾ (الأعراف ٦٥).

٦ - جاء إهلاك قوم هود بظاهرة طبيعية هي الريح التي يكون تأثيرها في المناطق المرتفعة أكثر بكثير منه في المناطق المنخفضة، بعكس الطوفان الذي يكون تأثيره على المناطق المنخفضة أكبر. بدلالة قوله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَّخْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ (القمر ١٩). والريح الصرصر هي العاتية الشديدة البرد والصوت التي لا ينقطع هبوبها ولا تتراخي شدتها. أما قوله ﴿فِي يَوْمٍ نَّخْسٍ﴾ فالיום هنا لا يعني الوقت والزمان الذي مقداره ٢٤ ساعة، بل يعني الحين والمناسبة كقولنا: عام الفيل وشهر الحج، وإلا فكيف يقول تعالى في موضع آخر ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّجَسَاتٍ...﴾ (فصلت ١٦)؟ أضف إلى ذلك أن الزمان وعاء يتضمن الأحداث وأن المكان وعاء يتضمن الأشياء والأشخاص، وأن النحس والسعد لا يطالهما بالذات بل يطال الأحداث في الزمان والأشياء في المكان.

٧ - مرة أخرى، وكما قلنا إن الطوفان في عهد نوح كارثة محلية وليست عالمية، نقول عن الريح الصرصر التي أرسلها تعالى على قوم هود.

٨ - كان هود وقومه من قبيلة عاد، بدلالة قوله تعالى ﴿... أَلَا بَعْدُ إِعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾ (هود ٦٠). وهي قبيلة عربية بائدة من العمالة سكنت في أرض الأحقاف من جهة اليمن جنوب شبه الجزيرة العربية شمال حضرموت، بدليل قوله تعالى ﴿وَأَذْكُرْ أَنَا عَادِ إِذْ أُنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ...﴾ (الأحقاف ٢١). وهذه هي عاد الأولى التي أشار إليها تعالى بقوله ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ (النجم ٥٠)، وهي عاد إرم التي ذكرها تعالى بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ \* إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ \* آلِئِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْعَالَمِ﴾ (الفجر ٦-٨). يقول المؤرخون إنهم أول من اتخذ الأصنام وكان لهم آلهة يعبدونها أكبرها صدا وصمودا وهرا. (انظر البداية والنهاية ج ١ ص ١٢١). ومن هنا نستنتج أن هناك أكثر من عاد واحدة.

٩ - لم يأت هود قومه بأية معجزة تدلّ على نبوته، ويؤكد ذلك قوله تعالى ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ...﴾ (هود ٥٣).

فإن قال قائل: إن حجة قوم هود قوية، والناس عادة لا تترك معتقداتها لمجرد قول أو زعم لا دليل على صحته، خصوصاً وأن الله تعالى يقول ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء ١٥)، قلنا في الجواب: لا شك أبداً في أنه سبحانه لا يغير قوانينه ولا يبدل كلماته بين مناسبة وأخرى. صحيح أننا لا نجد في التنزيل الحكيم ما يشير إلى معجزة تدلّ على صدق نبوة هود، لكننا نجد في أكثر من آية منه ذكراً لرسل سبقوا هوداً لقوم عاد وهم النذر ويحتمل أنهم كانوا معه أيضاً وهم دليل الإنذار. وإليك هذه الآيات:

- ١ - ﴿كَذَّبَ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء ١٢٣).
- ٢ - ﴿رَبِّكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ...﴾ (هود ٥٩).
- ٣ - ﴿كَذَّبَ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (القمر ١٨).
- ٤ - ﴿وَأَذْكُرْ أَنَا عَادِ إِذْ أُنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ...﴾ (الأحقاف ٢١).

وإذا ما تتبّعنا ما تُقدّمه المعطيات الأثرية والتاريخية نجد أنها تمنحنا دليلاً علمياً مهماً يُعتبر مصداقاً لما جاء في القرآن الكريم لا سيّما لجهة العمران وأحوال الحياة والبيئة الطبيعية.

في بداية عام ١٩٩٠ أعلن عن اكتشاف مدينة \ وبار - عُبار \، والأمر الذي جعل ذلك الاكتشاف مثيراً للاهتمام هو الإشارة إلى تلك المدينة في القرآن الكريم. ومنذ ذلك الحين فإن الناس الذين كانوا يعتقدون أن «عاداً» التي روى عنها القرآن الكريم هي محض خيال، وأنه لا يمكن اكتشاف مكانها، لم يستطيعوا إخفاء دهشتهم أمام ذلك الاكتشاف. فاكشاف تلك المدينة التي لم تُذكر إلا على السنة البدو قد أثار اهتماماً وفضولاً كبيرين.

يعود الفضل في اكتشاف هذه المدينة الغارقة تحت الرمال إلى نيكولاس كلاب، وهو عالم آثار هاوي.

ومع إجراء التنقيبات الأثرية تبين أن تلك المدينة الأبدية تنتمي لقوم «عاد» ولعماد مدينة «إزم» التي ذُكرت في القرآن الكريم؛ حيث إن الأعمدة الضخمة التي أشار إليها القرآن بوجه خاص كانت من ضمن الأبنية التي كشفت عنها الرمال.

وقد أشار الدكتور زاريتز، وهو أحد أعضاء فريق البحث ومدير التنقيب، إلى أنه بما أن الأعمدة الضخمة تُعدّ من العلامات المميزة لمدينة «عُبار»، وحيث إن مدينة «إزم» وُصفت في القرآن بأنها ذات العماد أي الأعمدة الضخمة، فإن ذلك يُقدّم دليلاً على أن المدينة المكتشفة هي مدينة «إزم» التي ذُكرت في القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) أَلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨)﴾. وقد أبانت التنقيبات الأثرية عن مخطط المدينة الدائري حيث يمر بها رواق معمد دائري، في حين أن المواقع الأخرى في اليمن التي اكتشفت حتى الآن كانت أبنيتها ذات أعمدة مرتّعة. ويبدو أن سكان مدينة أرم بنوا العديد من الأعمدة التي عُطيت بالذهب أو صُنعت من الفضة وكانت هذه الأعمدة رائعة المنظر. ولقد كشفت الأبحاث التاريخية أن هذه

المنطقة تعرّضت لتغيّرات مناخية حولتها إلى صحارى، وكانت قبل ذلك أراضي خصيبة .

كما أن صور الأقمار الصناعية عام ١٩٩٠ قدّمت أدلة على وجود نظام متقدم من الإنشاءات المائية من قنوات وسدود استعملت في الرّي ويُعتقد أنها كانت قادرة على توفير المياه لـ ٢٠٠,٠٠٠ شخص، كما تم تصوير مجرى لنهرين جافّين .

أما سبب اندثار حضارة عاد فقد فسّره مجلة A m'interesse الفرنسية التي ذكرت أن مدينة إرم أو «عُبار» تعرّضت لعاصفة رملية عنيفة أدّت إلى غمر المدينة بطبقات من الرمال وصلت سماكتها إلى حوالي ١٢ متراً.

وقد احتار الدارسون في معرفة حقيقة تلك الآثار، فلجأوا إلى الكتابات القديمة الموجودة في إحدى المكتبات المتخصصة في ولاية كاليفورنيا وتعرف باسم مكتبة هنتنغتون Huntington Library، وإلى عدد من المتخصصين في تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم وفي مقدمتهم الأمريكي جويس زارينز Juris Zarins والبريطاني رانولف فينيس Ranulph Fiennes. وبعد دراسة مستفيضة أجمعوا على أنها هي آثار عاصمة مملكة عاد التي ذكر القرآن الكريم أن اسمها (إرم) كما جاء في سورة الفجر، التي تعود إلى الفترة ٣٠٠٠ ق.م. إلى أن نزل بها عقاب ربّها فطمرتها عاصفة رملية غير عادية. وعلى الفور قام معمل الدفع النفاث (The Jet Propulsion Laboratories J.P.L) في معهد كاليفورنيا للتقنية (California Institute of Technology)، بإعداد تقرير مطوّل يضمّ نتائج الدراسة، ويدعو رجال الأعمال والحكومات العربية إلى التبرّع بسخاء للكشف عن تلك الآثار التي تملأ فراغاً في تاريخ البشرية، وكان عنوان التقرير هو: البعثة عبر الجزيرة (The Trans - Arabia Expedition). وقد ذكر التقرير أن اثنين من العلماء القدامى قد سبق لهما زيارة مملكة عاد في أواخر حكمها، وكانت المنطقة لا تزال عامرة بحضارة زاهرة، والأنهار فيها متدفقة بالماء، والبحيرات زاخرة بالحياة، والأرض مكسوّة بالخضرة، وقوم عاد مستكبرون في الأرض، ويشكلون

الحضارة السائدة فيها، وذلك قبل أن يهلكهم الله (تعالى) مباشرة. وكان أحد هؤلاء هو بليني الكبير من علماء الحضارة الرومانية الذي عاش في الفترة من ٢٣ م إلى ٧٩ م، والآخر هو الفلكي والجغرافي بطليموس الإسكندري الذي كان أميناً لمكتبة الإسكندرية، وعاش في الفترة من ١٠٠ م إلى ١٧٠ م تقريباً، وقام برسم خريطة للمنطقة بأنهارها المتدفقة، وطرقاتها المتشعبة التي تلتقي حول منطقة واسعة سمّاها باسم (سوق عُمان).

ووصف بليني الكبير حضارة عاد الأولى بأنها لم يكن يدانيها في زمانها حضارة أخرى على وجه الأرض، وذلك في ثرائها، ووفرة خيراتها، وقوتها، حيث كانت على مفترق طرق التجارة بين كل من الصين والهند من جهة وبلاد الشام وأوروبا من جهة أخرى، وكانت تصدر إليها البخور والعطور والأخشاب، والفواكه المجففة، والذهب، والحبر وغيرها.

وقد علّق بعض المؤرخين على كتابات كل من بليني الكبير وبتليموس الاسكندري بأنها ضرب من الخرافات والأساطير، كما يتشكك فيها بعض مدّعي العلم في زماننا ممّن لم يستطيعوا تصوّر الربع الخالي، وهو من أكثر أجزاء الأرض قحلاً وجفافاً اليوم، مليئاً في يوم من الأيام بالأنهار والبحيرات والعمران، ولكن صور المكوك الفضائي جاءت مطابقة لخريطة بطليموس الإسكندري، ومؤكدة ما كتبه من قبل بطليموس وبليني الكبير كما جاء في تقرير معهد الدفع النفّاث.

في تموز/ يوليو سنة ١٩٩٠م تشكل فريق من البعثات في وكالة الفضاء الأمريكية (NASA) برئاسة (Charles Elachi) ومن معهد الدفع النفّاث (J.P.L) برئاسة (Ronald Blom) للبحث عن (إرم ذات العماد) تحت رعاية وتشجيع عدد من الأسماء البارزة منها: Armand Hammar و Sir Ranulph Fiennes و George Hedges ولكن البحث تأجل بسبب حرب الخليج. بعد الكشف عن إرم.

\* في كانون الثاني/يناير سنة ١٩٩١م بدأت عمليات الكشف عن الآثار في

المنطقة التي حددتها الصور الفضائية واسمها الحالي الشصر واستمر إلى مطلع سنة ١٩٩٨م وأعلن خلال ذلك عن اكتشاف قلعة ثمانية الأضلاع سمكة الجدران بأبراج في زواياها مقامة على أعمدة ضخمة يصل ارتفاعها إلى ٩ أمتار وقُطرها إلى ٣ أمتار ربما تكون هي التي وصفها القرآن الكريم.

\* في ١٧/٢/١٩٩٨م نُشر في مجلة تايم (Time) الأمريكية مقال بعنوان (Arabias Lost Sand Castle) بقلم (Richard Ostling) ذكر فيه الكشف عن إرم.

\* بتاريخ ١٠/٤/١٩٩٢م كتب مقالاً بعنوان اكتشاف مدينة إرم ذات العماد نُشر بجريدة الأهرام القاهرية لخص فيه ما توصل إليه ذلك الكشف حتى تاريخه.  
\* في سنة ١٩٩٣م نشر بيل هاريس (Bill Harris) كتابه المعلنون: (Lost Civilizations)

\* بتاريخ ٢٣/٤/١٩٩٨م نشر (Nicholas Clapp) كتابه المعلنون: The Road to Ubar.

\* بتاريخ ١٤/٦/١٩٩٩م نشر بيكو إير (Pico Iyer) كتابه المعلنون: (Falling off The Map: Some Lonely Places in The World)

وتوالت الكتب والنشرات والمواقع على شبكة المعلومات الدولية الأنترنت منذ ذلك التاريخ، وكل ما نشر يؤكد صدق ما جاء بالقرآن الكريم عن قوم عاد ومدينتهم إرم ذات العماد بأنهم :

(١) كانوا في نعمة من الله عظيمة ولكنهم بطروها ولم يشكروها. ووصف بليني الكبير لتلك الحضارة بأنها لم يكن يدانيها في زمانها حضارة أخرى كأنه ترجمة لمنطوق الآية الكريمة (التي لم يخلق مثلها في البلاد).

(٢) أن هذه الحضارة قد طمرتها عاصفة رملية غير عادية وهو ما سبق القرآن الكريم بالإشارة إليه.

هذه قصة (إرم ذات العماد) مدينة قوم عاد، التي جاءت الكشوف الأثرية الحديثة بإثبات ما ذكر عنها في القرآن الكريم.



ويبقى ما جاء في القرآن الكريم من ذكر لقوم عاد ولمدننتهم (إرم ذات العماد)، ولما أصابها وأصابهم من دمار بعاصفة رملية غير عادية صورةً من صور الإعجاز التاريخي في كتاب الله تشهد له بصفائه الرباني، وبأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

الجدير ذكره هنا هو أن علم الأنساب يعيد نسب النبي هود إلى نوح، حيث ورد :

هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد - جدّ هذه القبيلة - ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح.

كتب التاريخ الهندية القديمة تقول: إن أقدم قبر على الإطلاق في العالم معروف بالتواتر هو قبر النبي هود بالأحقاف بحضرموت منذ أكثر من أربعة آلاف سنة.

الجدير بالذكر أيضاً أن مساكن عاد تقع في أرض «الأحقاف»، من جنوب شبه الجزيرة العربية. والأحقاف تقع في شمال حضرموت، ويقع في شمال الأحقاف الربع الخالي، وفي شرقها عُمان. وموضع بلادهم اليوم رمال قاحلة، لا أنيس فيها ولا ديار.

وكانت أصنامهم ثلاثة: صدا وصمودا وهرا.

هود تسمية عربية مشتقة من الجذر العربي هاد. فهو هائد أي تائب وراجع إلى الله. أو من هدى فهو المهدي والهادي. ولا يوجد ذكر للنبي هود خارج القرآن الكريم.

## المراجع:

موقع النسابون العرب  
(علماً بأن علم الأنساب علم مشكوك به فيه كثير من المبالغات)

## صالح عليه السلام

هو نبيّ ثمود ورسول الله إليهم يدعوهم إلى التوحيد. وثمرود قبيلة من العرب البائدة كعاد الأولى وجرهم ومدين، كانت كلها قبل إسماعيل، حسب رأي صاحب تاريخ البداية والنهاية (ج ١ ص ١٢٠). وقوم ثمود هم أصحاب الحجر في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الحجر ٨٠). والحجر مكان كانت فيه مساكن ثمود يقع بين الحجاز والشام يمر عليها المسافر بطريق البر وتعرف الآن باسم «فج الناقة»، وأثار مدائنهم ما زالت ظاهرة حتى الآن باسم مدائن صالح. يقول المسعودي في مروج الذهب: حجر ثمود في الجنوب الشرقي من أرض مدين، قرية من خليج العقبة.

ونقرأ عند ابن كثير أن رسول الله (ص) مرّ بالحجر وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين، ونزل بهم عند بيوت ثمود، حيث استقى الناس من آبارهم فشربوا وعجنوا وطبخوا، فلما علم رسول الله (ص) أمرهم أن يريقوا القدور ويعلفوا العجين للإبل، وارتحل بهم حتى نزل البئر التي تشرب منها الناقة.

ويجدر الذكر هنا إلى أن ثمود كما تشير المرويات قطنت منطقة الحجاز وجوارها أي المنطقة الممتدة من الحجاز وحتى سوريا. ويشير بطرس البستاني إلى أن ديار الثموديين امتدت من الحجاز حتى البلاد السورية.

وتشير المعطيات إلى أن قبيلة ثمود كانت تقيم في المناطق التي تشكل اليوم

جزءاً من المدينة ومكة وذلك في القرن الثامن قبل الميلاد. وهم في الغالب من السكان الأصليين الذين استعاروا اسمهم من معطى الطبيعة ف«ثمد» تعني مجرى الماء الذي يجف في الصيف. وفي تلك الفترة كانت ثمود قبيلة بالمعنى الحرفي للكلمة والنصوص الآشورية كانت تستعمل تعبير قبيلة ثمود.

وقد أشار بطليموس، وفق ما ذكره الدكتور جواد علي، إلى أن الأماكن التي استوطنتها ثمود كانت مدينة آمن من جنوب العقبة، إلى نواحي شمال ينبع بالقرب من المويلح، وكذلك كان منهم جموع منتشرة في داخل البلاد إلى نواحي خيبر وفدك.

وتشير المعطيات إلى أن مواطن ثمود في القرن الأول الميلادي كانت من جنوب مكة إلى تهامة عسير.

وبعد أن سبا شاروكين الثاني الآشوري قسماً منها إلى السامرة بقي قسم آخر ما لبث أن قام بالارتحال نحو الشمال حيث حصل تواجدهم في القرن السادس قبل الميلاد. وتأثروا بحضارة الشعوب المحلية وثقافتها منذ ذلك التاريخ.

الجدير ذكره هنا أن ملوك آشور وبابل في حروبهم ضد العرب في شبه الجزيرة العربية كانوا يطلقون عليهم اسم «العرب» وذلك بدءاً من القرن التاسع وحتى القرن السادس قبل الميلاد.

وقد ذكر في وثائق تعود إلى القرن الخامس الميلادي وجود فرقتين عربيتين في الجيش الروماني الفرقة الأولى تكوّنت من الفرسان العرب الثموديين وأقامت على الحدود الشمالية الشرقية لمصر. والفرقة الثانية في بلاد «إيليري» وسُميت فرقة إيليري الثمودية وقد تواجدت هذه الفرقة في «بيت شام» في فلسطين في القرن الخامس الميلادي، وقد كان معظم هؤلاء الجنود من وسط الجزيرة العربية.

ويبدو أن مجال الفاعلية الثمودية كانت عبر نطاقين، نطاق ثابت حيث إقامتها الدائمة، ونطاق هو مجال ارتحالها الطبيعي وفق إيقاع الفصول والمناخ والكلاء، وقد امتد هذا المجال من المدينة / يثرب / وحتى بادية الشام. وكون أن الثقافة

الشمودية كانت على شيء من بداية التحضر، بدوياً، أو أشباه بدو، فلا بد أن تتأثر بالمراكز الحضارية المتقدمة ثقافياً عليها، سواء في الكتابة أو نمط المعيشة أو في المعتقدات.

ففي مجال الكتابة لم يستطع الشموديون الكتابة إلا بعد مرور خمسة قرون على تواجدهم، وذلك بعد أن امتلكوا أدوات التفاعل مع المراكز الحضارية المشرقية، حيث لم تظهر النقوش الشمودية إلا في القرن الرابع قبل الميلاد.

ولقد اختلف المؤرخون حول زمن وجود ثمود فقال بعضهم إنهم بقية من قوم عاد، وقال آخرون إنهم بقية من العماليق انتقلوا إلى ذلك المكان من غرب الفرات. لكن الأصح أنهم كانوا عرباً من بقايا قوم عاد بدليل قوله تعالى على لسان نبيه صالح (ع) ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَلْعَبُدُونِ مِنْ سُهُولِهَا فُصُورًا وَنَتَجَنُّونَ أَلْجِبَالِ يَبُوتًا...﴾ (الأعراف ٧٤).

مع الإشارة هنا إلى أن ثمود لم تكن قبيلة وحدها بل أن القبائل المختلفة والتي تشغل الأمكنة نفسها، الثابتة وغير الثابتة، قد شكلت اتحاداً فيما بينها، تم تسميتها بـثمود كونها القبيلة الأقوى في هذا الاتحاد.

أما عن زمن فاعليتهم فيمتد من القرن الثامن قبل الميلاد وحتى القرن الثاني الميلادي ولكن استمر تواجدهم البشري حتى منتصف القرن الخامس الميلادي أي قبل قرن من ولادة الرسول محمد.

ويبدو أن كوارث طبيعية ولا سيما الزلازل قد أنهت تواجدها، أما التواجد الديموغرافي الشمودي العربي فقد بقي حتى القرن الخامس الميلادي، وتداخل في النسيج العربي، بعد انتهاء فاعليته السياسية لثمود.

الجدير ذكره هنا هو أن اسم عدنان وتعبير العدنانية، وقبائل عدنانية، ظهر في الإسلام ظهوراً لم يكن قبل الإسلام، غير أن النقوش الشمودية والنبطية أيضاً حوت أسماء قريبة من اسم عدنان مثل: عدنون... عبد عدنون... وهذا ما يمكن ربطه مع بعض النسابين العرب الذين نسبوا العدنانيين (ثقيف) إلى ثمود،

حيث ذكروا أن ثقيفاً هم من قبائل ثمود.

ويرى بعض المستشرقين أنهم قوم من اليهود سكنوا تلك الناحية، وهذا قول ينقضه التاريخ، لأن اليهود لم يعرفوا قبل خروج موسى ببني إسرائيل من مصر، ويكذبه التنزيل الحكيم بدليل قوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَنْقُورُ إِنَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ \* مِثْلَ دَابِ قَوْوٍ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ...﴾ (غافر ٣٠-٣١).

جاءت دعوة صالح (ع) امتداداً لدعوة نوح وهود إلى التوحيد وذلك في قوله تعالى ﴿وإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورُ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ...﴾ (الأعراف ٧٣). هذه العبارة نجدتها على رأس ما قاله الأنبياء لأقوامهم: نوح (الأعراف ٥٩)، هود (الأعراف ٦٥)، صالح (الأعراف ٧٣)، شعيب (الأعراف ٨٥). وإذا كان هود (ع) لم يؤث معجزة يصدق ويثبت بها نبوته بل جاء هو والنذر، فإن صالح أوتي أبرز معجزة مادية وأضحى آية يمكن لإنسان أن يراها ويسمعها ويلمسها هي الناقة التي جاء ذكرها في قوله تعالى ﴿...وَأَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا...﴾ (الإسراء ٥٩).

يبقى، قبل أن نعدّ ما رأيناه من عبر وعظات وحقائق تاريخية في هذه القصة، أن نشير إلى أن التنزيل الحكيم ذكر ثمود في ستة وعشرين موضعاً، وإلى أن اسم ثمود جاء من الثَّمَدِ والثَّمَدِ والثَّمَاد، وهو الماء القليل لا مدد له يتجمع في الشتاء وينضب في الصيف.

١ - ما زالت مسيرة التطور نحو التجريد مستمرة، إلا أن التجسيد والتشخيص ما زال هو الغالب. فالعبادات في عهد نوح \ الألف الخامس ق. م \ كانت تستهدف مظاهر الطبيعة، ثم تحولت في عهد هود \ الألف الثالث ق. م \ إلى أوثان مشخّصة متعددة من جانب ولكل منها مجال خاص بها من جانب آخر، إلا أنها في الغالب أوثان رمزية من صنع الطبيعة لا دور فيها ليد الإنسان لعدم وجود أدوات، وإن وجد فهو دور بدائي محدود.

وقد جمع براندن، من النقوش الثمودية، أسماء أعلام مركبة، يدخل فيها اسم الإله ايل. كبير الآلهة الكنعانية والآرامية، لنقرأ:

تيم ايل، حمي يال، عبد ايل، يشوع ايل، عمرايل، بدر ايل، زيد ايل، عدن ايل، معن ايل، ودد ايل، عم ايل، سن ايل، خل ايل، سلم ايل، يحمي ايل، ركب ايل، شد ايل، ... إلخ.

ورغم أن مجمع الآلهة الثمودي لم يحتو على إله يحمل اسم ايل، فقد عُثر عليه في الأسماء المركبة الشخصية، فقد نسب الثموديون لآلهتهم الملائكية طابعاً كوكبياً ويمكن أن يكون هذا الطابع الكوكبي قمرياً أو شمسياً أو نجمياً.

٢ - شاع في عهد ثمود قوم صالح صنع التماثيل، حيث لأول مرة يذكر النحت في التنزيل الحكيم بقوله تعالى ﴿... وَنَجِّتُونُ الْجِبَالَ بَيُوتًا...﴾ (الأعراف ٧٤)، ولأول مرة يذكر تقطيع الصخور وخرقها وشقها، وذلك في قوله تعالى ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ﴾ (الفجر ٩). والمتأمل في بيوت ثمود المنحوتة في الصخر، التي ما تزال ماثلة حتى يومنا هذا وكأنها انتهت بالأمس، ويلاحظ الزوايا القائمة بين الجدران بعضها مع بعض وبينها وبين السقف، يدرك بكل وضوح وجود أدوات للنحت ساعدت على إحداثها.

وفي الثمودية كان اسم المعبد بيت، ويتألف من حرم مقدس وضع وسطه نصب للإله المعبود. وبعض الرموز الإلهية كانت تمثل على شكل حجر.

وكانت الإلهة تمثل برموز أو صور، فهناك رأس الثور الذي كان رمز الإله القمري، عم، في الجنوب بدءاً من الألف الثاني ق.م، ونحن نعلم أن رأس الثور كان رمز الإله الوسيط حدد/ أدد / هدد، في معتقدات المشرق العربي، وقد تابع هذا الرمز تطوره وحضوره في شمال الجزيرة العربية.

وفي مجال الحياة اليومية عند الثموديين تقدم المعطيات أن النسوة الثموديات كن يضعن الحجاب على رؤوسهن، وهي الصورة ذاتها التي نجدها في منحوتات نينوى الآشورية، وفي لباس النساء العربيات المسيحيات فيما بعد أو العربيات من سكان شبه الجزيرة العربية الشمالية والجنوبية قبل الإسلام، وكانوا يستعملون اسم

اللّٰه، ولكن دون وجود حرف ألف.

ب ل هو ود : باللّٰه ود (السلام على اللّٰه)

هل مس ع د. س ع د ت. ع ل. دورت : ياللّٰه ساعد مسعدة على دورة

ومن الابتهاالات لدى الثموديين نقراً:

يا رضا منك المحبة والحنان

يا رضا أعطني

يا رضا ساعدني

يا رضا منك المعرفة

يا رضا منك السرور

يا رضا منك الشفقة

يا رضا أسبغ علي الكمال

يا رضا لطفك على ولدي

يا رضا رحمتك هي ثروتي

يا رضا أعني

يا رضا استنجد بك

يا رضا أنت المساعد

يا رضا هبني محبتك

يا رضا أنجدنا أنت الأمان

يا اللّٰه ! أنت الطمأنينة

يا اللّٰه ! منك السعادة

يا اللّٰه ! منك المحبة.

وقد كنا لاحظنا أن النقوش الثمودية حوت أيضاً على أسماء مركبة دخلت

فيها لفظة اللّٰه،

٣ - جاءت معجزة ناقة صالح، المقدودة من الصخر، منسجمة مع ما برع

فيه قوم ثمود من نحت وتقطيع لعيشهم في منطقة مليئة بالصخور الرملية. وقد

قلنا إن النبوات فيها قفزة زمنية إلى الأمام أو غيب إلى الوراء . أما ناقة ثمود فهي آية خارج النبوة، كآيات موسى التسع وآيات المسيح بن مريم .

٤ - ظهور مفهوم العشيرة في عهد صالح . بدليل ورود الرهط لأول مرة في قوله تعالى ﴿وَكَاكَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (النمل ٤٨) . والرهط : ما دون العشرة من الرجال ، ورهط الرجل عشيرته الأقربون . ولقد تحدثنا في عهد نوح عن ظهور الملأ والأراذل ، وعن بدء ظهور التمايز الطبقي في التجمعات الإنسانية ، وما نحن في عهد صالح أمام تمايز أسري عشائري متقدم عما ساد في عهد نوح وهود يقوم على أساس المصلحة المادية ، مع بقاء طبقة الملأ وطبقة الأراذل .

كان لثمود مواطن استقرار تكرست مع الزمن ، وأنبأتنا عن وجود تنظيم اجتماعي لهم .

كما أشارت المصادر إلى اسم لملك ثمود وهو «جنده» وفي حال صحة هذه المعلومة فإن علينا أن نستنتج أنه كان لثمود تنظيم اجتماعي مشابه للتنظيمات التي تذكرها الوثائق الآشورية عن الجزيرة العربية الشمالية بدءاً من القرن التاسع ق .م .

٥ - ظهر مفهوم الملكية الخاصة للأرض بفرد واحد أو بعدة أفراد ، بدليل قوله تعالى ﴿... وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا...﴾ (الأعراف ٧٤) . والقصور : قطع الأرض تفصل بينها علامات وتحيط بكل منها حواجز من طين أو من حجارة . وما يزال يراها الناظر واضحة حتى اليوم في الأراضي الزراعية . والمقصورة من الدار أو المسرح أو حمام السوق : غرفة صغيرة خاصة منفصلة عما حولها . والمقصورة من النساء : المنعمة في بيت يحميها لا تتركه لتعمل . وبهذا المعنى جاء قوله تعالى ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي لِحْيَامٍ﴾ (الرحمن ٧٢) . أما قاصرات الطرف في قوله تعالى ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْفُسٌ قَبْلَهُنَّ وَلَا جَانٌّ﴾ (الرحمن ٥٦) ، فهن اللاتي أقام الحياء والخفر الأثوي لنظراتهن حدوداً وحواجز فلا يمددنها إلى ما لا ينبغي .

٦ - لم يجعل قوم ثمود لبيوتهم نوافذ ، فما زال الطوفان من عهد نوح



والريح الصرصر من عهد هود مطبوعة في ذاكرتهم تنتقل من جيل إلى جيل كجزء من تراثهم المعرفي وخبراتهم السابقة.

٧ - كما جرى إهلاك قوم نوح بظاهرة طبيعية هي الطوفان، وإهلاك قوم هود بظاهرة طبيعية أخرى هي الريح العاتية المستمرة، كذلك تم إهلاك قوم صالح بظاهرتين طبيعيتين معاً. الأولى بالرجفة والأخرى بالصيحة. أما الرجفة فهي الزلزلة الشديدة، أشار إليها تعالى بقوله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ (الأعراف ٧٨). وأما الصيحة ففيها عند المفسرين أقوال: أصحها أنها الصاعقة في قول ابن عباس. والصاعقة صاعقتان: صاعقة مُحْرِقَةٌ يُولِّدُهَا البرق، وصاعقة رعدية توجب تموج الهواء بعنف فإذا تعدت صِماخَ أذن الإنسان إلى عصب دماغه مات. وقرأ معي قوله تعالى ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيٓ أَذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ...﴾ (البقرة ١٩). وفي رأينا أن الصاعقة الرعدية هي التي أشار إليها تعالى بقوله ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ (هود ٦٧) والديار كل غرفة أو غرف لها جدران، فإذا كان لها أبواب فقط دون نوافذ فالموجة الصوتية القوية تصعق وتقضي على كل من في الداخل، وإذا نظرنا الآن إلى آثار ثمود نرى وجود غرف في الصخور بأبواب وبدون نوافذ. أما الدار فهو مكان الإقامة أي أن الذين عاشوا في السهول أخذتهم الرجفة وهو الزلزال الشديد لأنهم لا يتأثرون بالصيحة نظراً لوجودهم في أماكن مفتوحة. وكما قلنا عن طوفان نوح وعن ريح هود أنها محلية، وليس ما يوجب بالضرورة أن تكون عالمية، كذلك نقول عن الرجفة والصيحة في قوم ثمود، فافهم هذا.

انتهت فاعلية ثمود قبل ظهور الإسلام والذي يقرأ الروايات العربية والإسلامية عن الثموديين يميل إلى الاعتقاد أنهم بادوا قبل ظهور الإسلام بزمان طويل، غير أن الواقع يشير إلى أن جموعاً من الثموديين وجدوا في نواحي العلى إلى عهد غير بعيد من ظهور الإسلام.

ويرى الباحث برو brau أن ثموداً أصيبت بكارثة عظيمة من ثوران براكين أو هزّات أرضية، وقد ورد في القرآن كلمة (رجفة) و(صيحة) عن أخبار ثمود. ويعقّب الدكتور جواد علي بالقول : إن هذا محتمل جداً لأنّ الشعاب التي كانوا يقطنونها هي مناطق الجرار.

٨ - كان هناك ناجون من الرجفة والصيحة، هم صالح (ع) والمؤمنون به، بدليل قوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ (هود ٦٦). فما هي هذه الرحمة؟ ويأتينا الجواب في قوله تعالى على لسان صالح لقومه ﴿... تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (هود ٦٥). ونفهم أن الله تعالى أخبر نبيّه صالح عن توقيت الرجفة والصيحة وأمره أن يمهل ثمود ثلاثة أيام قبل وقوعها. فكان في ذلك فسحة تمكن صالح بفضلها من أن ينجو بمن معه، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن كارثة ثمود كانت محلية.

الجدير ذكره أن سيرة النبي صالح لم ترد في أية كتب دينية أو وثائق عدا القرآن الكريم.

### المراجع:

- د. جواد علي، المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام، نسخة إلكترونية.
- براندن، وألبير فان دين، تاريخ ثمود، ت: د. نجيب غزاوي، دار الأبجدية ١٩٩٦.
- ولفنسون، أ.، تاريخ اللغات السامية، دار القلم، ص ٢٩، مغفل التاريخ.
- د. بشار خليف، نشوء فكرة الألوهة، طباعة دار الأهالي، ٢٠١١.
- محفل، ومحمد، «العربية لغة وكتابة»، مجلة التراث العربي، دمشق، موقع اتحاد الكتاب العرب.



## شُعَيْب عليه السلام

هو رسول الله إلى أهل مَدْيَن، الذين سَمَّاهم التنزيل الحكيم أصحاب الأيكة في قوله تعالى ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ \* إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبُ أَلَا نُنْقِذُكُمُ (الشعراء ١٧٦-١٧٧). وكان من الطبيعي أن يأتي التوحيد على رأس رسالته، وهو ما نجده في قوله تعالى ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ...﴾ (الأعراف ٨٥).

كان أهل مَدْيَن عرباً سكنوا من الحجاز ما يلي أرض الشام قريباً من خليج العقبة وإلى الشمال منه. يقول الطبري إن بينها وبين مصر ثمان ليال، وهي حالياً تتبع محافظة البدع التابعة لمنطقة تبوك في الشمال الغربي من المملكة العربية السعودية.

ومَدْيَن مدينة تاريخية يعود تاريخها إلى ٣٥٠٠ سنة تنبع أهميتها التاريخية والدينية من أن ثلاثة أنبياء ذُكروا في مناحيها (موسى - شُعَيْب - يوسف). وقد جمعت بين الزراعة والتجارة، حيث كانت مركزاً تجارياً ومحطة رئيسية على خط قوافل الحجاج قديماً. وهي كثيرة الأشجار وافرة الثمار واسعة الحدائق والبساتين، ومن هنا جاءت تسمية القرآن لأهلها بأصحاب الأيكة، وهي مدينة تاريخية مطمورة تحت مئات الأطنان من ركام الأتربة والصخور. يعود تاريخها إلى ٣٥٠٠ ق.م، تدلّ على ذلك المعالم الموجودة حالياً ولا سيما الصخور المنحوتة على شكل أضرحة مختلفة الأحجام، والمنحوتات التي ربما استُخدمت

للسكن، والاستعمالات الأخرى، إضافة الى النقوش والمخلفات الحضارية (المطمورة) في طبقات أرض مَذِين قديماً أو البدع حالياً، ويميّزها وجود تجويفات واسعة منحوتة داخل الصخور، وكل تجويف يشبه القُبّة من الداخل، وهذه التجويفات تكثر في جبلين متجاورين وذلك ضمن أربعة جبال متصلة ببعضها متوسطة، كل منها أقرب إلى الأكمة منه إلى الجبل وتشكّل هذه الجبال الأربعة ما يشبه نصف الدائرة.

وعندما تدخل التجويف من أبواب منحوتة أيضاً في الصخر تشعر برهبة الموقف وتشعر أنك أمام تاريخ أمة أو أمم سادت ثم بادت، وتركت خلفها ما يثبت حضارتها وقوتها، ومن مظاهر هذه القوة نحت الصخور، وهذه الأضرحة المنحوتة داخل التجويفات الصخرية، حيث نحتت هذه القبور أو الأضرحة في قلب الجبل بشكل هندسي واحد من حيث الشكل العام، وأغلبها ذات مساحة واحدة. وقد تتعدد الأجساد في الضريح الواحد وتوضع بينها فواصل لوجود أجزاء منحوتة على حواف الضريح في أبعاد مختلفة. وتكون هذه الأضرحة منحوتة في أرضية التجويف وعلى جوانبه بشكل طولي، وهناك أحجام صغيرة قد تكون للأطفال، كما أن هناك منحوتات كبيرة الحجم، مع احتمال استخدام بعضها بيوتاً. وهناك شبه كبير بين تلك الأحافير الموجودة في مدينة البدع ومدائن نبي الله صالح عليه السلام في مدينة العلا، سواء في الواجهات، أو المنحوتات الداخلية إلا أن صخور جبال ثمود قوم صالح عليه السلام أكثر صلابة من صخور جبال مَذِين قوم شُعيب عليه السلام، (وقد تكون واجهات أضرحة مدينة مَذِين حديثة ومقلدة).

ثمة نقطة تستحق التوضيح هي أن أصحاب كتب قصص الأنبياء والمؤرخين يعتمدون في قصصهم على المراجع الإسرائيلية - أو على مراجع استقت معلوماتها من كتب اليهود - حين يذكرون الأنساب وأسماء الآباء والجدود. ويهتمون كثيراً بهذه الأنساب ليتمكنوا - في رأيهم - من رسم سلسلة تاريخية تُبين مَنْ من الأنبياء جاء قبلاً، ومن منهم جاء فيما بعد. وكان يمكن أن نحذو

حذوهم لولا أننا وجدنا أن القرآن الكريم يعتمد منهجاً آخر لرسم تلك التراتبية التاريخية، يراعي تطور القيم العليا في نبوّات الأنبياء ورسالات الرسل وتراكمها، ويسير جنباً إلى جنب مع تطور الحضارة وتراكم المعارف، فأخذنا به واعتمدناه في بحثنا هذا. إننا نلاحظ بكل دقة أن التنزيل الحكيم لم يذكر نسباً لأي من الأنبياء والرسل بدءاً من نوح (ع) وانتهاءً بمحمد (ص). ونلاحظ بكل دقة أيضاً أن معيار النسب في رسم التراتبية التاريخية لم يسعف من وَهَم أن شعيباً جاء بعد موسى بعدة قرون، أو أن شعيباً عاصر موسى ظناً منهم أن موسى تزوّج بنت شعيب لأنه ورد ماء مَدْيَن، وفاته أن يقف بالتأمل عند قوله تعالى ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا...﴾ (الأعراف ١٠٣)، ولو أنه فعل لرأى أن شعيباً ورد من بين الذين جاء موسى بعدهم. وقُلْ مثل ذلك في لوط وشعيب، فنحن لايهمنا كثيراً أن يكون شعيب زوج ابنة لوط أو لا يكون، أو أن يكون موسى زوج ابنة شعيب أو لا يكون، فما يهمنا أكثر هو قوله تعالى على لسان شعيب لقومه ﴿...وَمَا قَوْمٌ لُّوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (هود ٨٩)، بما فيه من دلالة واضحة على أن لوط جاء قبل شعيب في سُلَم النبوات.

نأتي الآن إلى العبر والعظات كما رأيناها في قصة شعيب:

١ - يقول تعالى شارحاً تفصيل رسالة شعيب: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَرُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف ٨٥).

أ - ونفهم من دعوته إلى التوحيد أن لقومه آلهة يعبدونها من دون الله.

ب - ونفهم من دعوته إلى الوفاء بالكيل والميزان، أن العلاقات الاقتصادية قد تطورت في مجتمع مدين حتى وصلت إلى مرحلة تبادل السلع التي لا بدّ فيها من وجود موازين تضبط الوزن ومكاييل تضبط الحجم، لمنع التلاعب والاحتيال في عملية التبادل، الذي يؤدي إلى بخس الناس أشياءهم، وهذه القاعدة ما زالت

سارية المفعول على المستوى الإنساني العالمي، فالثورات لم تقم، والنقابات لم تنشأ، والقوانين لم توضع، إلا من أجل قاعدة ﴿وَلَا بُخْسُوا النَّكَاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.

٢ - وكان جواب قوم شعيب على دعوته لهم واضحاً في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَمْلَأُوا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَكَ وَيُسْعِبُوا الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِينِنَا...﴾ (الأعراف ٨٨)، وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَسْعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (هود ٩١).

أ - نحن في آية الأعراف ٨٨ أمام طبقة من وجوه القوم وأشرافهم، هي طبقة الملائكة، بدأت بالظهور كما قلنا في عهد نوح، لكنها اكتسبت في هذه الآية صفة جديدة هي صفة (الذين استكبروا) التي تنفي عن الملائكة كل جانب إيجابي محتمل.

ب - في ضوء هذا الاستكبار نقرأ قولهم لشعيب في آية هود ٩١ ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ﴾ وفقه القول هو فهمه وإدراك مقاصده ومعانيه. إنهم لم يفهموا ولم يدركوا قول صاحبهم ليس لأنهم أغبياء، بل لأن استكبارهم يمنعهم من الفهم والإدراك من جانب، ولأنهم يعتبرون التجارة «شطارة»، تماماً مثل العديد من تجار اليوم، من جانب آخر.

ج - أما قولهم ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَعِيفًا﴾ فالضعف هنا ليس في القدرة العضلية أو الفكرية بدليل أنهم يقولون له في موضع آخر ﴿... إِنَّكَ لَأَنْتَ أَلَحِلِيُّ الرَّشِيدُ﴾ (هود ٨٧)، وليس في المكانة الاجتماعية بدليل أن لشعيب عشيرة وهو قوي بها. الضعف المقصود هو ضعف المركز المالي وقلة الثروة.

د - وأما قولهم ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ فنفهم منه أن العصية العشائرية التي بدأت بالظهور في عهد صالح، قد رسخت وأخذت شكلها في عهد شعيب، ومنعت الملائكة المستكبر من رجمه. ولكن ما هو الرجم المقصود في الآية؟ والجواب واضح في آية الأعراف ٨٨، إنه الطرد القسري والإخراج عنوة من الديار.

إننا لم نجد لفظاً تأثر في دلالة المفسرون واللغويون وأصحاب القواميس

والمعاجم بالطريقة المشخصة الإسرائيلية أكثر من لفظ الرجم، الذي وردت مشتقاته في أربعة عشر موضعاً من التنزيل الحكيم ليس من بينها موضع واحد يدلّ على الرمي بالحجارة، ولا يخرج منها موضع واحد عن معنى الطرد القسري والإخراج غنوة.

فالإمام الرازي في تفسير كلمة (لرجمناك) من آية هود ٩١ يقول: «الرجم في اللغة عبارة عن الرمي بالحجارة عند قصد القتل، ولما كان الرجم سبباً للقتل لاجرم سمّوا القتل رجماً، وقد يكون بالقول الذي هو القذف كقوله (رجماً بالغيب)، وقد يكون بالشتم واللعن ومنه قوله (الشیطان الرجيم) وقد يكون بالطرد كقوله (رجوماً للشياطين)» أهـ.

وفي تفسير كلمة (يرجموكم) من آية الكهف ٢٠ يقول: «أي يقتلوكم، والرجم بمعنى القتل كثير في التنزيل كقوله (ولولا رهطك لرجمناك) وأصله الرمي بالحجارة. قال الزجاج: أي يقتلوكم بالرجم، والرجم أخبث أنواع القتل» أهـ.

ونحن نستغرب - إن لم نقل نستنكر - عبارة من مثل (والرجم بمعنى القتل كثير في التنزيل) أن تصدر عن إمام كالفخر الرازي بالذات ناسجاً فيها على منوال كثير من المفسرين الذين جاؤوا قبله ومعه. لأننا - ونكرر مرة أخرى - لم نجد في التنزيل الحكيم موضعاً واحداً ورد فيه الرجم بمعنى القتل رميّاً بالحجارة. لقد كان الخطب يهون لو أنه هذا حذو مجاهد في قوله: «الرجم في القرآن كله بمعنى الشتم» (انظر التفسير الكبير للرازي ج ٢١ ص ١٩٥).

قلنا إن الرجم ورد في أربعة عشر موضعاً من التنزيل الحكيم إليك بعضها: - ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (الحجر ٣٤)، وص ٧٧. والقائل في الآية هو الله والمعني بالقول هو إبليس. والرجيم اسم فاعل بمعنى طريد قام مقام اسم مفعول هو المرجوم بمعنى المطرود بدلالة قوله (فاخرج) لأن الطرد هو الإخراج القسري. وعليه، يستحيل على العاقل أن يفهم من الآية أن الله أخرج إبليس من الجنة وشتمه، حسب قول مجاهد، أو رماه بالحجارة حتى الموت، حسب قول الرازي.



- ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ (هود ٩١). الملائ من قوم شعيب يعلنونها صريحة في وجه شعيب أنهم لولا عشيرته التي تحميه وأفرادها الذين هم جزء من الملائ لطرده وأخرجوه بالقوة من مدين، بدلالة قولهم له في الأعراف ٨٨ ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ﴾ ومرة أخرى لانجد علاقة للرجم في هود ٩١ لبالشتم حسب قول مجاهد، ولا بالرمي بالحجارة حتى الموت حسب قول الرازي.

- ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (مريم ٤٦). والقاتل في الآية هو آزر أبو إبراهيم ومربيه، قال ذلك حين ترك إبراهيم الأصنام المعبودة ورغب عنها وشمها، فخلق بفعله هذا مشكلة لا حل لها في رأي آزر إلا بأحد أمرين: إما أن يطرده عنوة من المعبد ليحفظ ماء وجه آلهته بطرد شاتمها، أو أن يتطوع إبراهيم بهجر المعبد والابتعاد فترة من الزمن عن الأصنام وعن آزر سادن الآلهة ريثما تستقر الأمور والأحوال، والأمران لعلاقة لهما لا بالشتم ولا بالرمي بالحجارة. ونلاحظ في الآية اقتران الطرد القسري بالهجر الطوعي.

- ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ (المملك ٥). والمصابيح في الآية هي النجوم الساقطات على شكل شهب والرجوم هي الطوارد، وهي أدوات الطرد القسري للشياطين من أمكنتهم التي كانوا منها يسترقون السمع. ومرة رابعة لانجد أية علاقة للرجم في الآية لا بالشتم ولا بالرمي بالحجارة.

- ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَذِبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَذِبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَذِبُهُمْ...﴾ (الكهف ٢٢)، هذا هو الموضع الوحيد من بين المواضع الأربعة عشر التي ورد فيها ذكر الرجم في التنزيل الحكيم الذي لا تحمل دلالة معنى الطرد القسري ولا الخروج الطوعي. كما لا تحمل بالتالي أي معنى للشتم أو للرمي بالحجارة، بل هو كلمة تخمين تم قذفها من الفم نقول عنها (أي كلام). وكان يجدر بمجاهد في ضوء ذلك ألا يطلق حكمه الجازم بأن

«الرجم في القرآن كله بمعنى الشتم»، وكان يجدر بالرازي بدلالة آية الكهف ٢٢ ألا يقرر بشكل مطلق أن «الرجم هو الرمي بالحجارة عند قصد القتل».

لقد انطلق المفسرون وأهل اللغة وأصحاب المعاجم من روح تشخيصية ظاهرية في فهم الرجم، تماماً كالروح التي انطلق منها اليهود في فهم الرجم الوارد في كتبهم، التي تحكم بالقتل على الزانية والزاني، وتحكم بالقتل على من يخالف أوامر القضاة اللاويين في الجبل، وطريقة القتل تنفيذاً لهذا الحكم واحدة، هي الرمي بالحجارة حتى الموت.

هذه الروح التشخيصية التي تأخذ اللفظ على وجه الحقيقة وتنكر المجاز، هي التي سدّت الطريق أمام المفسرين والفقهاء لفهم الطرد والإخراج والرجم بالغيب ورجوم الشياطين، وحصرت رؤيتهم للرجم بصورة ضيقة ظاهرية توراتية هي صورة الرمي بالحجارة حتى الموت، وقادتهم إلى الوقوع في أخطاء فاحشة لا تغتفر وهم ينظرون في أحكام الزنا واللعان تفسيراً وتطبيقاً، نذكر مثلاً واحداً هو تفسيرهم لقوله تعالى في الملائكة ﴿وَيَذَرُوهَا الْعَذَابُ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾ (النور ٨). فرغم أنه تعالى يعني بالعذاب في الآية الجلد المنصوص عنه صراحة في الآية الثانية من سورة النور بقوله ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ... وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ورغم أن العذاب شيء والقتل بالرمي بالحجارة شيء آخر فالعذاب يمكن شطره إلى نصفين كما في حكم جلد الأمة الزانية في آية النساء ٢٥، أما القتل والرمي بالحجارة حتى الموت فلا نصف فيه كما يقول الإمام الشافعي في كتاب الرسالة. نقول رغم ذلك كله يصّر المفسرون والفقهاء على أن العذاب في الآية هو الرجم، وعلى أن الرجم هو الرمي بالحجارة حتى الموت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولا ذكر للنبي شعيب خارج القرآن الكريم.

## المراجع

- مجلة الفرقان - السياحة السعودية.

## إبراهيم عليه السلام

يعدّ إبراهيم (ع) بحق أبرز نقطة علام في تاريخ النبوات والرسالات الذي تنقسم فيه النبوات والرسالات إلى مرحلتين: مرحلة ما قبل إبراهيم (ع) ومرحلة ما بعد إبراهيم. فقد ظهرت في عهده مفاهيم جديدة عقائدية كالحنيفية والبر بالآباء بعد أن كان البر في عهد نوح مقصوراً على الوالدين، ستترك بصماتها على النبوات والرسالات التي جاءت بعده وخصوصاً على الرسالة المحمدية، ومفاهيم جديدة أخلاقية كقري الضيف، ستأخذ مكانها بين المتراكم من القيم العليا. وتكاملت في عهده مظاهر ومفاهيم قديمة كانت قد بدأت بالظهور في عهد من سبقه من أنبياء ورسول، كتعدّد الآلهة وتعدّد اختصاصاتها، وشيوع أصنام الآلهة وتمثيلها في معابد خاصة بكل منها أو في معابد عامة تضمّها جميعاً، واكتمال ظاهرة سدنة تماثيل الآلهة وكهّان معابدها، وهو ما سيتحول في ما بعد إلى هامانات تنطق بلسان الآلهة وإلى رجال دين (العلماء الأفاضل) يحكمون ويصدرون الفتاوى باسم الله وبتفويض منه تحت عنوان الموقعين عن الله أو قائمي مقام الرسول (ص).

يختلف المؤرّخون كعادتهم دائماً في كل صغيرة وكبيرة حول المكان الذي ولد فيه إبراهيم ونشأ. فمنهم من يذكر - حسب رواية صاحب تاريخ البداية والنهاية - أنه ولد بغوطة دمشق الغربية في قرية اسمها برزة عند سفح جبل قاسيون. إلا أن الصحيح المشهور - في رأيه - عند أهل السير والتواريخ أنه ولد ونشأ بمدينة بابل من أرض الكلدانيين في العراق، في عصر طاغية، هو النمرود بن

كنعان، قبض على زمام الملك في بابل، وأعلن نفسه إلهاً ودعا الناس إلى عبادته، من باب أنه أحق بالعبادة من معبوداتهم الحجرية التي لا تسمع ولا تبصر.

ويختلف المؤرخون وأهل الأنساب في جانب والتنزيل الحكيم في جانب آخر حول اسم أبي إبراهيم أهو تارح أم آزر. فأما مولده ونشأته فالأرجح عندنا أنها في بابل من أرض كلدان لسببين: الأول، توفر حرية العبادة في عشرات معابد الآلهة المتعددة الاختصاصات المنتشرة في أنحاء المدينة ما جعلها مركزاً تجارياً يتوافد إليه التجار من كافة الأنحاء والمدن، ولا يوجد ما ينفي أن يكون إبراهيم قد نشأ في أحد هذه المعابد تحت رعاية آزر كبير سدنتها. والثاني وجود ملك طاغية يحكم المدينة يدعي الربوبية ويدعو الناس إلى عبادته، ما يجعله قريب الشبه بالملك الذي أشار إليه تعالى بقوله ﴿الَّذِي تَرَى إِلَى اللَّهِ دُرُوءًا يُبْهِمُ فِي رَيْبِهِ أَنَّ إِلَهُهُ اللَّهُ الْمَلِكُ إِذْ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ . . .﴾ (البقرة ٢٥٨).

وأما خلاف المؤرخين كالطبري وأهل الأنساب كعبد الله بن عباس مع ما ورد في التنزيل الحكيم، فخلافاً لفظي ظاهري موهوم اعتبره اليهود دليلاً على جهل التنزيل الحكيم وصاحبه بالأنساب، وتابعناهم نحن - وما زلنا - على وهمهم هذا كالعميان من الأنعام.

لقد تحدث المؤرخون وأهل الأنساب عن والد إبراهيم باسم تارح، ولا يبعد مطلقاً أن يكون هذا صحيحاً. وتحدث التنزيل الحكيم عن أبي إبراهيم وسمّاه آزر، وهذا صحيح بلا ريب. والخلط بين الوالد والأب هو الذي قاد إلى توهم وجود خلاف ليس موجوداً، لأن الوالد قد يكون أباً وقد لا يكون، والأب قد يكون والداً وقد لا يكون، والإنسان - من الناحية البيولوجية - له والد واحد حصراً، لكن من الناحية التربوية قد يكون له أكثر من أب<sup>(١)</sup>.

(١) لمزيد من التفاصيل في الأدلة والشواهد القرآنية التي تؤكد الفرق بين الأب والوالد، انظر كتابنا الإسلام والإيمان.

الطريف في الأمر أن السيد الصابوني في كتابه النبوة والأنبياء ص ١٤٦ لم يكتف بأنه لم يلحظ الفرق بين الأب والوالد، بل راح يتعجب مستنكراً من المؤرخين وجمهور أهل النسب كيف يأخذون علومهم من تورا وإنجيل ثبت تحريفهما عند المسلمين، ثم يمضي في الانتصار للرواية القرآنية مستشهداً بحديث رواه البخاري إن صح أن النبي (ص) قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قتره وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني ألا تحزنني يوم يبعثون، وأني خزي أخزي من أبي الأبعد؟ فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقول لإبراهيم: انظر ما تحت رجلك. فينظر فإذا هو بذبح متلطح فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار»، ثم يختم قائلاً: فهذا الحديث نص على أن اسمه آزر وهو الحق الذي لا محيد عنه. أه. ومرة أخرى لا يلحظ السيد الصابوني أن النبي (ص) في حديثه يتحدث عن أبي إبراهيم لا عن والده تماماً كما ورد في التنزيل الحكيم.

كان يمكننا أن نكتفي بهذا القدر لتوضيح وجهة نظرنا حيال هذه المسألة فلا نطيل، لولا أن السيد الصابوني وهو يدافع عن زعمه، يضعنا - عامداً أو غير عامد - أمام مزاعم أخرى أدهى وأمر، نجد أن لا بد من الوقوف عندها، لكونها وردت في كتاب جامعي مقرر صاحبه أستاذ في كلية للشرعية والدراسات الإسلامية لها مكانتها في مكة المكرمة، ولكونا نعلم - نتيجة خبرتنا الطويلة في التدريس الجامعي - أن كل عبارة يقولها الأستاذ في محاضراته وكتبه مقدسة عند سامعيها وقارئها في المدرجات.

١ - علم الأنساب علم جليل من علوم التاريخ قديماً وحديثاً. تفرع عنه علم اختص به العرب المسلمون دون غيرهم هو علم تراجم الرجال وطبقاتهم، لا يقلل من جلاله تعرّضه أحياناً للتصحيح والتحريف، وتوظيفه أحياناً أخرى في الخلافات الطائفية والمذهبية. ونسف معلومة توراتية في مجال الأنساب دون دليل قاطع بحجة ثبوت تحريف التوراة والإنجيل، إنما هو حكم على غير ما

ينبغي لا يجوز أن يصدر عن أستاذ جامعي عالم، لأن التحريف بالأساس يفترض بقاء أشياء صحيحة - قلت أو كثرت - في النص المحرف.

٢ - الصفحة في صحيح البخاري - وفي جميع كتب الصحاح الأخرى - صفحة اصطلاحية لا صحة حقيقية، تشير إلى صحة السند عند صاحب الصحيح لا إلى صحة المتن. وفي متن الحديث موضع البحث مزاعم تتعارض عمودياً مع أبسط ثوابت الحساب يوم القيامة. أبرزها أن الله تعالى استجاب لشفاعة إبراهيم في أبيه الكافر عابد الأصنام، وفداه بذبح أدخله النار بدلاً منه، مفترضاً أنه سبحانه غيّر قوله في كتابه العزيز ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء ٤٨). وهل يكفي المشرك الذي يعصي رسل الله إليه أن يعلن طاعته يوم القيامة ليغفر الله له شركه وعصيانه؟ وهل تتبدل قوانين الحساب يوم الحساب التي أعلنها تعالى بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا جُئِرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التحریم ٧)، وبقوله ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَتْكُمْ النَّارُ﴾ (الحديد ١٥)؟

إننا نرى أن البخاري حين صح عنه هذا الحديث، قد اتهم رسول الله (ص) - دون أن يدري - بالعقوق بوالديه عبد الله وآمنة، فهما أحق بالشفاعة من آزر الذي دعاه إبراهيم إلى التوحيد وترك الأصنام فعصى، بينما مات والدا النبي (ص) قبل البعثة. فلماذا لم يشفع لهما النبي (ص) عند ربه وهو يرى شفاعة إبراهيم في أبيه مقبولة حسب حديث البخاري في صحيحه؟

ولكن قبل أن ندخل في تفاصيل قصة إبراهيم نضع نصب أعيننا ما يلي:

لقد ورد اسم إبراهيم في التنزيل الحكيم بصيغتين: الأولى - إبراهيم - بدون ياء بين الهاء والميم وقد وردت خمس عشرة مرة في سورة البقرة. أما في بقية سور التنزيل كلها فقد ورد اسمه - إبراهيم - بوجود ياء بين الهاء والميم. فبالضرورة اختلف النطق بين اللفظين. وقد راجعنا العهد القديم فوجدنا وجود لفظين مختلفين: الأول أبرام والثاني إبراهيم، وقد ورد أبرام فقط في سفر

التكوين الإصحاحات (١١-١٣-١٤-١٥-١٦). وقد ورد في تامة سفر التكوين وبقية الأسفار في الإصحاحات (١٧-١٨-١٩-٢٠-٢١-٢٢-٢٣-٢٤-٢٥-٢٦-٢٨-٣١-٣٢-٣٥-٤٨-٤٩-٥٠) وفي سفر الخروج في الإصحاحات (٢-٣-٤-٦-٣٢-٣٣) وفي سفر اللاويين الإصحاح (٢٦) وفي سفر التثنية الإصحاح (١). لذا وجب علينا أن نوجه لأنفسنا وللقارئ سؤالاً وجيهاً جداً: هل لهذا الاختلاف في إبراهيم في التنزيل الحكيم وفي العهد القديم معنى ما؟ وهل اسم إبراهيم هو أبرام قبل البعثة أو قبل أن يؤتى رشده مثلاً، وإبراهيم بعد البعثة؟ فهناك تطابق ما حيث ورد اسم أبرام في جزء من سفر واحد، واسم إبراهيم في سورة واحدة فقط هي البقرة. مازالت الإجابة عندنا عن هذا السؤال غير متوفرة.

مرة أخرى نعتذر عن الإطالة ونعود إلى ما كنا فيه لنلقي الضوء على ما فهمناه من عبر وعظات في قصة (إبراهيم - إبراهيم):

١ - لقد ظهر إبراهيم في منطقة ذات حضارة عريقة راسخة في منطقة شمال شبه الجزيرة العربية. تعددت فيها الآلهة حسب الاختصاص بين إله للمطر وإله للخصب وإله للجفاف وغيرها، تلك الظاهرة التي بدأت - كما قلنا - عند نوح وترسخت عند هود واكتملت عند إبراهيم.

٢ - اكتمال ظهور فن النحت الذي بدأ - كما قلنا - في عهد صالح، بدليل قوله تعالى على لسان إبراهيم لقومه ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ (الصافات ٩٥)، وشيوع الأصنام والتماثيل، الذي استدعى ظهور طبقة سدنة وكهان يخدمون هذه الأصنام والتماثيل.

٣ - اكتمال تقديس ظواهر الطبيعة من شمس وقمر وكواكب لكل منها إله ومعبد وسدنة في بابل. ونشير هنا إلى ما رواه أصحاب الأخبار في تواريخهم وأصحاب التفسير في تفاسيرهم، من أن إبراهيم هاجر مع والده آزر ومع زوجته سارة من أرض الكلدانيين في العراق إلى أرض الكنعانيين وهي بلاد المقدس فأقاموا في بلدة قريية من الشام اسمها حران، أهلها يعبدون الكواكب السبعة.



وكان أهل الشام والجزيرة - كما يروي ابن كثير - على هذه العقيدة الضالة يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة . ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكلا لكوكب منها تقام فيه الأعياد وتقدم القرابين .

ولا ريب في أن ابن كثير كان يفتش عن سبب يربط فيه بين إبراهيم وبين الشمس والقمر والكواكب في رحلته بين الشك واليقين وهو يبحث عن الله ، فلم يجد أفضل من ترحيله إلى حران مع والده آزر وزوجته سارة ، ليقرب في فقرته مع ما استقاه من أخبار توراتية تزعم أن خروج إبراهيم إلى البيت العتيق في حضن جبال بكة كان من فلسطين .

لقد كان ابن كثير بغنى عن ذلك كله ، لو عرف - كما عرفنا نحن من الدراسات الحديثة الموثقة - أن عبادة الشمس والقمر والكواكب لم تكن محصورة بحران ، بل شاركتها فيها مدن كثيرة أشهرها ملطية في ديار بكر حيث الحكماء السبعة هم أنفسهم سدنة معابد الآلهة السبعة التي عرفتها بابل وسمح بها ملوكها لغايات تجارية بحتة .

٤ - كانت رحلة إبراهيم للبحث عن ربه وهو بين الشك واليقين ، مذكورة بكل تفاصيلها في التنزيل الحكيم ، بدأت مع تقليب أنظاره في ملكوت السماء والأرض :

- ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ \* فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ \* فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُنْقَوِرُ إِيَّيَ بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ \* إِيَّيَ وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَائِفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام ٧٦-٧٩) .

كانت خطوة إبراهيم في بحثه عن ربه أنه بدأ - كما قلنا وقالت آية الأنعام ٧٥ - بتقليب أنظاره في ملكوت السماء والأرض فرأى كوكباً لامعاً منيراً لعله نجم القطب ، قارنه مع مخزونات إدراكه حين كان يتردد على المعابد ، فتوصل

إلى أن قال: هذا ربي، لكن هذا الكوكب غاب وانطفأ بريقه مع هبوط الظلام، فقارن هذه الصورة الجديدة مع ما يؤمن به عقلاً من أن الأرباب الحقيقية لا تأفل ولا تغيب، فتوصل إلى قرار يقول إنه لا يحب الأرباب المزيفة التي تأفل، ثم رأى القمر بازغاً، فعرض الصورة على مخزون إدراكه وانتهى كما انتهى أول مرة إلى القول: هذا ربي. لكن القمر أفل كما أفل الكوكب قبله، وكانت المرتان كافيتين ليكتشف إبراهيم أنه لم يصل إلى ما يبحث عنه، فاتجه إلى الله طالباً الهدى، لكن رحلة البحث لم تكن قد انتهت بعد، وطلع الفجر وأشرقت الشمس وظنها إبراهيم ربه الذي يبحث عنه باعتبارها أكبر من القمر ومن الكوكب، لولا أنها أفلت. هنا غابت شمس الكون عن الكون لتشرق شمس معرفة من نوع آخر في أعماق إبراهيم، ليدرك على نورها أن ثمة فاطراً للسموات والأرض وخالقاً للشمس والقمر والكواكب لا يغيب إذا غابت ولا يأفل إذا أفلت. فما كان منه إلا أن صاح في بني قومه: إني بريء مما تشركون، إني انحرفت عما تتوجهون أنتم إليه من نجوم وكواكب وشمس وقمر، واتجهت نحو من خلقها وفطر السموات والأرض، وها أنا أعلن أنني لست ممن يشرك بربه أحداً.

بهذا المنهج الاستقرائي الرشيد الذي أنعم الله به عليه، كما في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (الأنبياء ٥١)، صار إبراهيم إماماً للناس بعد امتحان اختبره الله به ونجح، بدلالة قوله تعالى ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...﴾ (البقرة ١٢٤) وهذه الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم هي الكواكب والشمس والقمر حيث إن الوجود هو كلمات الله.

٥ - كان آزر، أبو إبراهيم لا والده، هاماناً يشرف على سدانة المعابد وخدمة تماثيل آلهتها، ومن هنا كان بإمكان ربيّه إبراهيم أن يصل إلى الأصنام بسهولة، إذ كان ذلك ممنوعاً على العامة.

٦ - وكان آزر المثل الأعلى لإبراهيم في الدين والعقيدة، ولا يبعد أنه كان ينوي إعدادة ليتسلم مهمته من بعده. ومن هنا كان الجدل الكبير بينهما قاسياً على

نفس آزر، حين دار بينهما الحوار التالي:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا \* يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا \* يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا \* يَتَّبِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (مريم ٤٢-٤٥).

كان آزر أدرى الناس بما قاله إبراهيم عن معبوداته، وأكثر الناس إدراكاً أنها لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، ولا تأكل ولا تشرب. وكان أعرف الناس بما يتمتع به إبراهيم من راحة عقل وشفافية روح، وأكثرهم إحساساً بمحبة إبراهيم له وخوفه عليه من أن يمسه عذاب الرحمن إن هو رضي بأن يبقى عبداً للشيطان. لكن المسألة أكبر من هذا كله، ولا بد لها من حسم يتناسب مع حجمها. فغالب مرارة خيبة الأمل في ربيبه وسأله بهدوء ﴿قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَّبِعُهُمْ﴾ وصمت إبراهيم مطرقاً وتابع آزر قائلاً ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْفِي مَلِيًّا﴾ (الأنعام ٤٦).

ينتقل التنزيل الحكيم من سورة الأنعام إلى سورة الأنبياء ليضع أمامنا القسم الثاني من الحوار الذي يدور بين آزر وقومه من جانب وإبراهيم من جانب آخر. هذا الانتقال في القصة القرآنية الواحدة من سورة إلى أخرى ثم إلى ثالثة ورابعة، وهذا المزيج المدهش بين المحكم والمتشابه من الآيات في السورة الواحدة، أبرز سمة - عندنا - من سمات الإعجاز القرآني الذي تحدى به صاحبه الإنس والجن مجتمعين. ولو اقتصر الأمر - كما يتوهم السطحيون من أهل اللغة - على الإضمار والإظهار والتقديم والتأخير والوقف والابتداء واستعمال الظن بمعنى اليقين، لكان في الأمة عشرات كالجاحظ ومئات كالمعري وآلاف كالبحثري والمتنبّي يستطيعون تأليف مصحف مماثل.

المنظر في القسم الثاني من الحوار منظر مجلس يضم إبراهيم وأباه وقومه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلَ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا

عَبِيدٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ  
 أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ  
 الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذُذًا إِلَّا  
 كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ  
 ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ  
 يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا إِنَّكَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبْرُهُمْ  
 هَٰذَا فَتَسَلَوْنَهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ  
 الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ تُكْسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ  
 أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ  
 مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾  
 قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ  
 ﴿٧٠﴾ ﴿(الأنبياء).﴾

٨ - لقد قام الحوار بين إبراهيم من جانب وأبيه وقومه من جانب آخر -  
 بقسميه الأول والثاني - على المنطق الموضوعي من جهة وعلى الأدلة الحسية  
 من جهة أخرى (عجز الأصنام عن النطق وعن دفع الضرر عن نفسها وعن غيرها  
 وعن جلب النفع لنفسها ولغيرها). أما الحوار مع السلطة الحاكمة السياسية فأمر  
 آخر مختلف تماماً، يتقل بنا التنزيل الحكيم مرة ثانية معه إلى سورة البقرة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي  
 الَّذِي يُعْبَدُ وَإِيمِيَّتٌ قَالِ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ  
 الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة  
 ٢٥٨).

تلك أول مرة في تاريخ الأنبياء والرسل يأتي فيها التنزيل الحكيم على ذكر  
 السلطة الحاكمة السياسية، بعبارة (أن آتاه الله الملك) في آية البقرة ٢٥٨، لم

نجدها في قصة أحد ممن سبق إبراهيم. والملك هنا ليس ملكاً عادياً، بل مستبد يدّعي الربوبية ويأمر الناس بعبادته، وسوست له شياطينه من الإنس والجن أن ملكه لا يبلى. فكان من الطبيعي أن يأتي الحوار معه مختلفاً.

٩ - قال رجل للإمام علي: يا أمير المؤمنين، إنني أقرأ في كتاب الله فأجد في نفسي أشياء، أراها وسوسة شيطان؟ قال: ويحك، هذا أول الإيمان. رحم الله الإمام، فلا أراه وهو يقول قوله هذا إلا متمثلاً بقوله تعالى في وصف المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (الفرقان ٧٣).

كان منهج إبراهيم - كما ذكرنا في الفقرة ٤ - منهجاً استقرائياً استدلالياً ينطلق في طريق البحث عن الله من الحواس إلى الفكر ومن الشك إلى الإيمان، فاستحق بذلك أن يكون إماماً للناس. ولعل أبرز مظاهر هذا المنهج عند إبراهيم هو في قوله ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ (البقرة ٢٦٠) الذي يتجلى في المنهج الإبراهيمي بالانطلاق من الشك إلى اليقين، وهذه انطلاقة يرضى الله عن صاحبها بدلالة قوله تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا...﴾ (النحل ١٢٠)<sup>(١)</sup>، وبدلالة أنه تعالى لم يكفره ولم يعنفه ولم يوبخه ولم يعاتبه، بل سأل به بكل هدوء ﴿... قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنُوا...﴾ (البقرة ٢٦٠). وفي هذا درس تربوي بليغ حبذا لو عمل به علماؤنا الأفاضل ممن يتصدّرون المدرجات في الجامعات ومجالس العلم في المساجد، فالإيمان الأعمى لا يكفي عند الله إن لم يصحبه نظر وتفكير وبحث وسؤال يحمل صاحبه من حيرة الشك إلى اطمئنان اليقين. ويأتي جواب إبراهيم عن سؤال ربه واضحاً حاسماً في قوله ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنَّ لِّيُطْمَئِنَّ

(١) قوله (إن إبراهيم كان أمة) يعني أنه كان صاحب منهج سلوكي خاص به، وانظر تعريفنا للأمة في موضعه من هذا الكتاب ففيه ما يفيد. أما قوله (حنيفاً) فيعني منحرفاً عن الذين إذا ثلّبت عليهم آيات ربهم خروا عليها صمّاً وعمياناً والفترة الحنيفية هي طبيعة التغير في الزمان والمكان ومنها جاء الدين الحنيف.

قَلْبِي... ﴿ (البقرة ٢٦٠)، أي ليسكن تردده وشكه مطمئناً على أرضية يقينية راسخة، وهذا لا يكون إلا حسب منهج استقرائي يرى فيه الباحث بعينه ويسمع بأذنه ويلمس بيده.

١٠ - يستوقفنا قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ نُرِىْ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَيَكُوْنَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾ (الأنعام ٧٥). ونفهم أن إبراهيم بعد رؤيته رؤية فؤادية ملكوت السموات، وبعد رؤيته رؤية عينية بصرية كيف يحيي الله الموتى صار من الموقنين. ونفهم أنه، وهو ينظر بعين فؤاده في ملكوت السموات باحثاً، كان يعرف أنه يبحث عن فاطر السموات والأرض وخالق الشمس والقمر والكواكب الذي لا يغيب إن غابت ولا يأفل إن أفلت بدليل قوله لقومه بعد أن نجا من النار ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِيْنَ﴾ (الصافات ٩٩)، الذي نشم فيه رائحة مفهوم الهجرة إلى الله. هذا المفهوم الذي سيكتمل ظهوره على يد خاتم النبيين بعد قرون وقرون. لكن السؤال الكبير هو: هل كان إبراهيم وهو يجوب في ملكوت الأرض من بلاد الكلدانيين إلى بلاد الكنعانيين إلى بلاد الشام - إن صحت - إلى أرض مصر، ليحط في وادٍ غير ذي زرع لم يكن عند وصوله إليه يدري إن كان آخر محطة في رحلته الطويلة أم لا، يعرف عما يبحث؟ الأرجح عندنا أنه لم يكن يعرف بالتحديد عما يبحث، حتى جاء الأمر الإلهي برفع القواعد من البيت العتيق وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود. لعل شيئاً ما كالحديث الغامض تحرك في داخله وهو عند بيت الله المحرم فدعا ربه - وما أكثر ما دعاه في رحلته الرضوية تلك - قائلاً: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم ٣٧). لكنه بقي مجرد حديث غامض توهم إبراهيم معه أن سكناه في هذا المكان إنما هو لإقامة الصلاة لا غير، حتى جاء الأمر الإلهي كما ذكرنا. ونرى هذا تكرر مع موسى حين أحيط به، البحر من جانب وفرعون وجنده من جانب آخر عندما قال أصحابه (إنا لمدركون) فأجاب

موسى (كلا إن معي ربي سيهدين) وحتى لحظة هذا القول لم يكن موسى يعلم كيف سيهديه ربه حتى جاءه الأمر (اضرب بعصاك البحر).

١١ - حين تحدثنا عن الزمان، وأوضحنا أن معياره عندنا القرون والعقود والسنين والشهور والأسابيع والأيام والساعات والدقائق، أشرنا إلى أن له عند الله معايير أخرى. فاليوم عنده كألف سنة، والساعة عنده كلمح البصر بينما هي بمعايرنا دهور متطاولة، ونحن نجد في قصة إبراهيم ما يشير إلى ذلك. فالقصة تنتقل بعفوية سلسلة ومدهشة من إبراهيم الفتى الرشيد في معابد الآلهة برعاية آزر، إلى إبراهيم الشاب وهو يبحث عن ربه في ملكوت السموات، إلى إبراهيم الرجل وهو يعظ أباه وقومه ثم يلقي في النار ويخرج منها ثم يمضي في ملكوت الأرض مدفوعاً بما لا يدري وباحثاً عما لا يعرف، إلى إبراهيم الشيخ وزوجته العجوز العقيم، ثم لا يهتم التنزيل الحكيم كثيراً - في العديد من الأحيان - بتحديد مقدار الزمن الفاصل بين حدث وآخر، فالفاصل الزمني بمعايرنا بين قوله ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ﴾ (إبراهيم ٣٧)، وقوله بعد رفع القواعد من البيت وتطهيره ﴿رَبَّنَا لَقَبَلْنَا مِنَّا﴾ (البقرة ١٢٧)، لا يقل عن عشرين عاماً، كان إسماعيل في الأولى وليداً وصار في الثانية قادراً على مشاركة والده في عملية تطهير البيت. ولا يهتم - في العديد من الأحيان الأخرى - باستكمال توضيح جميع التفاصيل، فنحن لا نعرف أين بقيت سارة أم إسحق وابنها، وهل كانا معه ومع هاجر أم إسماعيل عند بيت الله المحرم أم لا، ولا نعرف ما جرى لآزر بعد خروج إبراهيم من بابل، ولا نستطيع أن نتصور عدد ونوع المخاطر التي يتعرض لها رحالة إبراهيم - رغم رجاحة عقله - وهو يضرب بعصاه بطون الأودية ورؤوس التلال، ولا نعرف إلى أين ذهب إبراهيم حين ترك زوجته هاجر ورضيعها إسماعيل تسعى بين الصفا والمروة بانتظار عودته. لكن ذلك كله ليس عندنا محل استغراب، فالتنزيل الحكيم، رغم أنه لا يهمل مطلقاً الجانب الروائي، ليس كتاب حكايا، غايته التسلية وإلهاب الخيال، بل هو كتاب قصص هدفه العبر وقصده العظة وغايته التعليم.

١٢- نعود إلى قوله تعالى ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ  
إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ  
السُّجُودِ﴾ (البقرة ١٢٥)، ثم إلى قوله تعالى بعدها مباشرة ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ  
الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة ١٢٧).  
فإذا نحن وضعنا قبلهما قوله تعالى ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ  
عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ...﴾ (إبراهيم ٣٧)، بان معنا بما لا يقبل الشك أن البيت  
العتيق المحرم كان موجوداً قبل قدوم إبراهيم. ودليلنا الأول أن الأمر لإبراهيم  
وإسماعيل جاء بالتطهير لا بالبناء. والثاني قوله (القواعد من البيت) ولو كانت  
القواعد هي الأساسات - كما توهم المفسرون - التي لا بد من رفعها لبناء الكعبة  
عليها لقال «قواعد البيت». وهذا يضعنا - للإنصاف - أمام احتمال وجود قواعد  
وأساسات سليمة ومثلها مخربة والمطلوب إعادة بناء المخرب، لولا أن العملية  
في هذه الحالة اسمها ترميم لا بناء، والترميم عادة لا يطل الأساسات. الثالث أن  
رفع القواعد جاء تنفيذاً للأمر بالتطهير، وتطهير البيوت - سواء المساجد منها أو  
المساكن - لا يشمل عقلاً حفر الأساسات وبناءها.

يقول الإمام الرازي في تفسيره الكبير (ج ٤ ص ٥٢):

«القواعد جمع قاعدة هي الأساس والأصل لما فوقها، ويجوز أن يكون  
المراد بها سافات البناء لأن كل سافٍ هو قاعدة لما يبنى عليه ويوضع فوقه،  
ومعنى رفع القواعد رفعها بالبناء. والأكثرون من أهل الأخبار على أن هذا البيت  
كان موجوداً قبل إبراهيم (ع)... وإنما قال (القواعد من البيت) ولم يقل (قواعد  
البيت) لأن في إبهام القواعد وتبيينها بعد الإبهام من تفخيم الشأن ما ليس في  
العبارة الأخرى» أهـ.

إننا لا نعرف سبباً يدعو المفسرين إلى الإصرار منفردين بعيداً عن أهل  
الأخبار وغيرهم، على أن القواعد في البقرة ١٢٧ هي الأساسات أو السافات بلغة  
المعمارين عند الرازي، وأن إبراهيم وإسماعيل هما اللذان رفعا قواعد البيت



وأساساته بالبناء، رغم أنف الدلائل القرآنية التي تشير إلى غير ذلك. وإذا كان الإمام الرازي لا يرضى أن يأخذ عن أهل الأخبار تفسيرهم للقرآن، فنحن أيضاً بدورنا لا نرضى أن نأخذ منه التعاريف في علم العمارة والهندسة. فالقواعد عند أهل هذا العلم هي الإشغالات، فكل المنشآت الخشبية المؤقتة التي يقيمها الباعة المتجولون على الأرصفة وفي الساحات العامة إشغالات، وكل أكوام المخلفات في المواقع الهندسية إشغالات. والقواعد في التنزيل الحكيم جمع مؤنث مفردة قاعدة خلاف واقفة، وردت بمعنى لا علاقة له بالأساسات من قريب ولا من بعيد في قوله تعالى ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النَّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ...﴾ (النور ٦٠). ولا ننسى أبداً أن المسيح عيسى بن مريم رفع القواعد وأخلى بيت المقدس من الإشغالات حين طرد الصيارفة اليهود منه، وكانوا قد جعلوه مركزاً مؤقتاً لهم، وأن النبي الأعظم (ص) رفع القواعد من الكعبة يوم فتح مكة وأخلاها من إشغالاتها حين أزال ما فيها من أصنام وتماثيل.

١٣ - لقد رأينا كيف شاع التشخيص قبل إبراهيم وانتشرت ظاهرة تعدد الآلهة من كواكب ونجوم وأصنام وتماثيل، وكيف كان مفهوم الإله المجرد غامضاً لا اسم له لعدم اكتمال القدرة العقلية على التجريد عند أهل تلك العصور، فقد كان اسمه عند الأسباط «إله إبراهيم» وذلك في قوله تعالى ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهِكَ وَإِلَهِ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة ١٣٣). وكان اسمه عند فرعون «إله موسى» كما في قوله تعالى ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَيْنَ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ \* أَسَجَلَبَ السَّمَوَاتِ فَاطْلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ (غافر ٣٦-٣٧)، وكان اسمه عند سحرة فرعون «رب العالمين» و«رب موسى وهارون» كما في قوله تعالى ﴿قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ \* رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (الأعراف ١٢١-١٢٢)، أو لم يكن له اسم على الإطلاق كما عند فرعون في

قوله تعالى ﴿... حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس ٩٠).

ثم يأتي إبراهيم ليبدأ رحلته الطويلة في البحث عن الله من الشخص إلى المجرد، وليولد عنده مفهوم الإسلام والتسليم لهذا الإله المجرد لأول مرة في تاريخ الإنسان، بدلالة قوله تعالى ﴿... وَلِلَّهِ أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمُ هُوَ سَمَّكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ...﴾ (الحج ٧٨)، وليرسخ عنده مفهوم الشخص والمجرد منفصلين ومتصلين. فالمشخص منفصلاً تجسّد لديه بالبيت الحرام (الكعبة)، والمجرد منفصلاً تجلّى لديه بالركوع والسجود في الصلاة، واتصالهما يظهر عند القيام والتوجّه أثناء الصلاة نحو الكعبة.

١٤ - كان الناس قبل إبراهيم يقدمون القرابين البشرية لألهتهم، وكان ذلك طقساً شائعاً في تلك الأوقات في جميع المعابد الوثنية<sup>(١)</sup>، لكن ذلك انتهى في عهد إبراهيم كما سنرى.

إن ذكر القرابين ينبهنا إلى العلاقة بين الشخص والمجرد، وذكّرنا بالأضحيات في شعيرة الحج، ويعيدنا إلى خبر رؤيا إبراهيم في قوله لإسماعيل ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ فلنبداً من البداية:

أ - كان إسماعيل لا يزال رضيعاً حين وصل إبراهيم إلى وادٍ أجرد بين أربعة جبال فيه بيت قائم لعبادة الله. وهذا معنى قوله تعالى على لسان إبراهيم ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ...﴾ (إبراهيم ٣٧)، ويستوقفنا في الآية أمران: الأول، قوله (بيتك). فالبيت العتيق لم يكن فقط موجوداً عند وصول إبراهيم إلى الوادي القاحل - كما شرحنا في فقرة سابقة -

(١) لا أحد ممن قرأ تاريخ مصر يجهل أن المصريين كانوا يقدمون لنهر النيل في يوم معين يسمونه «وفاء النيل» من كل عام بتاً من بناتهم كقربان يسترضونه به، واستمر ذلك حتى عهد عمر بن الخطاب الذي أمر بالكف عن هذا الطقس الوثني، في قصة طريفة رواها ابن عبد الحكم في تاريخ فتح مصر.

بل كان معروفاً لدى إبراهيم على الأقل بأنه بيت الله . الثاني، قوله (المحرم) معروفاً بآل العهد، مما يدل على أن المعروف المعهود عن بيت الله هو التحريم . ولكن محرم من ماذا؟ وعلى ماذا؟ وماذا حرم فيه . . الشرك أم القرابين أم الاثنان معاً؟

ب - ننتقل الآن إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ \* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا...﴾ (آل عمران ٩٦-٩٧).

حتى نفهم القصد من قوله تعالى (أول بيت) نسأل: ما هو البيت المقصود الموجود في مكان بعينه من مكة المكرمة؟ وهل هو مكان مبيت الله أو سكن الله أم ماذا؟ وكيف نفهمها علماً بأنه تعالى لا يحده زمان ولا مكان؟ من هنا نفرق بين البيت والسكن<sup>(١)</sup>.

\* البيت: (الباء والياء والتاء) أصل واحد، وهو المأوى والمآب ومَجْمَع الشَّمْل. يقال بَيْتٌ وَيُوتٌ وأبياتٌ. ومنه يقال لبيت الشعر بَيْتٌ على التشبيه لأنه مَجْمَع الألفاظ والحروف والمعاني، على شرط مخصوص هو الوزن. وإيائه أراد القائل:

بَيْتٍ عَلَى ظَهْرِ الْمَطِيِّ بَنِيْتُهُ بِأَسْمَرَ مَشْقُوقِ الْخِيَاشِيمِ يَزْعُفُ  
أَرَادَ بِالْأَسْمَرِ الْقَلَمَ. والبيت: عِيَالُ الرَّجُلِ وَالَّذِينَ يَبِيتُ عَنْدهم.

يقال: ما لِفُلَانٍ بَيْتُهُ لَيْلَةً، أي ما يَبِيتُ عليه من طعام وغيره. وَبِيتَ الْأَمْرَ إِذَا دَبَّرَهُ لَيْلًا. قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضُونَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء ١٠٨]، أي حِينَ يَجْتَمِعُونَ فِي بُيُوتِهِمْ. غير أن ذلك يُخَصَّ بِاللَّيْلِ. النهار يَظَلُّ كَذَا. وَالْبُيُوتُ: الماء الذي يبيت لَيْلًا. وَالْبُيُوتُ: الْأَمْرُ يُبَيِّتُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ مَهْتَمًا بِهِ. قال أُمَيَّة:

(١) نقدّم الشكر إلى الباحثة المغربية لطيفة الحياة حيث نبهتنا إلى أن هناك فرقاً كبيراً بين البيت والمسكن. وهنا نلاحظ كيف أن منهج عدم الترادف وتقاطع الآيات بعضها ببعض والمصادقية على أرض الواقع كيف أن هذا المنهج يؤدي إلى نتائج سليمة.

وَأَجْعَلْ فُقْرَتَهَا عُدَّةً إِذَا خِفْتُ بَيُوتَ أَمْرِ عُضَالٍ.  
والبيات والتبّيت: أن تأتي العدو ليلاً، كأنك أخذته في بيته. وقد روي عن [أبي] عبيدة أنه قال: بُتَّ الشيء إذا قُدِّر، ويُشَبَّه ذلك بتقدير بيوت الشعر. وهذا ليس ببعيد من الأصل الذي أصلناه وقسنا عليه). أه (معجم مقاييس اللغة).

نرى أن له عدة فروع معظمها وردت في المصحف في معانيها وأهم ما نرى فيها هو جمع الشمل الذي ينطبق على مفهوم البيت الحرام أي إن كل من يريد أن يجمع شمله مع الله وإنشاء علاقة روحية معه فليأت إلى البيت الحرام وهو مكان مشخص يمكن أن يُرى بالعين لنزوع الإنسان إلى المشخص، لذا فهو ليس مكان مبيت الله وإنما هو مكان إقامة علاقة روحية مع الله، ولذا طلب منا أن نتجه في الصلاة إليه أينما كنا. وكما قلنا فقد ربط قمة المجرد، وهو الصلاة، بقمة المشخص وهو البيت الحرام.

ونرى أن وقوف المؤمنين في الصلاة متجهين للمسجد الحرام مهما بعدوا هو عملية لم شمل عالمية. ولنفهم فهماً أفضل ننظر إلى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت ٤١). نرى هنا أن للعنكبوت بيتاً لا سكناً حيث إن بيت العنكبوت هو شبكة تنسجها العنكبوت حول محيطها وهي في مركزها، وعن طريقها تتصل بالعالم الخارجي، وهو ليس مكان المبيت بل العلاقات مع العالم الخارجي. وكذلك نفهم قوله تعالى ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ...﴾ (النور ٣٦) ففي هذه البيوت تحدث العلاقة الروحية بين الله والإنسان. وكذلك نفهم قوله تعالى ﴿رَبِّ أَعْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا﴾ (إبراهيم ٤١) أي دخل في علاقة الإيمان معي وليس بالضرورة سكني أو مكان مبيتي.

\* السكن: السين والكاف والنون (س ك ن) أصل واحد مطرد، يدل على خلاف الاضطراب والحركة. يقال سَكَنَ الشيء يسكن سكناً فهو ساكن.

والسَّكَنُ: الأهل الذين يسكنون الدَّارَ. وفي الحديث: «حَتَّى إِنَّ الرُّمَّانَةَ لَتُسَيِّعُ السَّكَنَ». والسَّكَنُ: النار، في قول القائل: \* قد قُومَتِ بِسَكَنٍ وَأَذْهَانُ وَإِنَّمَا سَمَّيْتُ سَكَنًا للمعنى الأول، وهو أَنَّ النَّازِلَ يُسَكِّنُ إِلَيْهَا وَإِلَى أَهْلِهَا. ولذلك قالوا: «أَنَسُ مِنْ نَارٍ». ويقولون: «هو أحسن من النَّارِ في عين المقرور». والسَّكَنُ: كُلُّ مَا سَكَنَتْ إِلَيْهِ مِنْ مَحْبُوبٍ. والسَّكَّينُ معروف، قال بعضُ أهل اللغة: هو فَعِيلٌ لِأَنَّهُ يَسَكِّنُ حَرَكَةَ الْمَذْبُوحَ بِهِ. ومن الباب السَّكِينَةُ، وهو الوقار، وسُكَّانُ السَّفِينَةِ سَمِّيَ لِأَنَّهُ يُسَكِّنُهَا عَنِ الاضطراب، وهو عربيٌّ. أهـ. (معجم مقاييس اللغة).

هنا نرى أن السكن شيء والبيت شيء آخر حيث لأن المسكين هو القليل الحركة، وهو الذي يقال عنه المعاق أو ذو الاحتياجات الخاصة كالأعمى والأصم والأبكم والمشلول، وكل أصحاب الإعاقات هم مساكين. فالسكن هو مكان السكينة والهدوء لذا قال تعالى (ومساكن ترضونها). والغريب أن كل كتب الفقه إلى يومنا هذا ليس عندها وصف لذوي الإعاقات على أنهم هم المساكين، علماً بأنهم ذكروا في التنزيل الحكيم أكثر من ذكر الفقراء.

يصف تعالى بيته المحرّم هذا بأنه أول بيت للعبادة (وإنما أضفنا كلمة للعبادة بدلالة قوله تعالى (هدى للعالمين) (بيت الله هو ليس مبيت الله ولا سكن الله) ثم يصفه بأنه وُضِعَ للناس ولم يقل وضع للبشر، والناس جمع إنسان، ليدل على أنه وضع ليتعبّد فيه العقلاء الذين ورثوا نفخة الروح عن أبيهم آدم. ثم يصفه بأنه مبارك ليدل على رسوخه وثباته من جانب وعلى نموّ أثره وتنامي قيمته من جانب آخر وعلى رسوخ فكرة التوحيد فيه ثم انتشارها منه في نمو متزايد من جانب ثالث. ثم يحدد أن مكانه ببكة. وبكة اسم قديم لمكة عرفت به منذ عصور وعصور يشير إلى قلة الكلام ومحدودية المفردات اللغوية آنذاك. ثم يقرر أن فيه آيات واضحة قابلة للمشاهدة بالعين وباللب يذكر واحدة من بينها هي مقام إبراهيم الذي ما زلنا حتى اليوم نراه أثناء الطواف، ويغفل ذكر الباقي. ولعل

حجر إسماعيل من بين الآيات البينات التي جرى إغفالها. ثم يصفه بأنه هدى للعالمين، ولم يقل للمؤمنين ولا للمسلمين. والمقصود بهم الناس من أهل الأرض جميعاً بدلالة أن الحج تكليف ونداء للناس جميعاً (ولله على الناس حج البيت. . الآية). نصل أخيراً إلى صفة لهذا البيت يقرّر فيها سبحانه أن من دخله كان آمناً. وكما وقفنا عند كلمة (المحرم) في إبراهيم ٣٧، كذلك نقف عند كلمة (آمناً) في هذه الآية لنتساءل: آمناً من ماذا؟ إن قلنا آمناً من الشرك أخطأنا، فالكعبة - قبل الفتح في العهد المحمدي - لم تخل يوماً من أصنام الآلهة وأنصابها وتماثيلها. وإن قلنا من وسوسة الشيطان أخطأنا أيضاً، لأن الشيطان يجري في الإنسان مجرى الدم. وإن قلنا آمناً من القتل أخطأنا أيضاً وأيضاً، لأن الواقع لا يؤيد ذلك، فهناك العديد ممن قتل داخل المسجد الحرام ولم يكن آمناً.

١٥ - قلنا إن تقديم القرابين البشرية للآلهة قبل عهد إبراهيم كان ظاهرة شائعة في العديد من بقاع العالم، وفي أغلب الهياكل والمعابد، ونرى الآن أن هذه الظاهرة قد اختفت تماماً، علماً أن الحروب ما زالت موجودة والقتل ما زال موجوداً، هنا يأتي التنزيل الحكيم ليحكى لنا في قصة إبراهيم متى اختفت هذه الظاهرة وكيف.

١٦ - عندما اهتدى إبراهيم للذي فطر السموات والأرض حنيفاً، واكتشف عبر رحلته الطويلة بين الشك واليقين أن الله هو الواحد الأحد الذي لا يتغير ولا يتبدل وأن الكون بكل ما فيه متحرك حنيف، احتار ماذا يفعل ليتقرب من هذا الإله. فالناس يقدمون قرابين لآلهة مزيفة لا تملك ضراً ولا نفعاً لأحد، والمتنفع الوحيد من هذه القرابين على اختلاف أشكالها هم السدنة والكهنة والهامانات من أمثال آزر أبي إبراهيم الروحي ومريه.

١٧ - ظلت فكرة تقديم القرابين لله تدور في رأس إبراهيم حتى سيطرت عليه، وبدأ يرى في المنام أنه يذبح ابنه. ثم تكررت الرؤيا حتى ترسّخت، فقرر إبراهيم أن يحولها إلى فعل على أرض الواقع، بعد أن أيقن أنها ليست مجرد رؤيا، بل تكليف وأمر إلهي. وهذا ما نفهمه من قوله تعالى مصوراً القسم الأول

مما دار بين إبراهيم وابنه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَازِلِ آيَاتٍ أَذْبَحْكَ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَى ۖ قَالَ يَتَأَتَّى أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الصافات ١٠٢).

إننا لا يعنينا كثيراً - ونحن نرصد في التنزيل الحكيم كيف جرى وضع حد لتقديم القرابين البشرية للمعبودات - أن يكون الذبيح إسماعيل أم إسحق، خصوصاً ونحن نجد أن القائلين بإسحق هم: عمر وعلي والعباس وابن مسعود وكعب الأحبار وقتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة والزهري والسدي ومقاتل، وأن القائلين بإسماعيل هم: ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن والشعبي ومجاهد والكلبي. ولكل من هؤلاء وأولئك حجة ودليل.

ولا يعنينا كثيراً أن يكون المكان الذي جرت فيه هذه الأحداث هو بمنى أم بالشام أم بيت المقدس.

ولا يعنينا كثيراً إن كان التكليف المأمور به هو الذبح بقطع الحلقوم أم هو مقدمات الذبح من إضجاع، وربط بالحبال، وسنّ سكين، وما ينتج عن كل من الأمرين في حال ترجيحه.

فقد اقتضى ذلك كله من الإمام الرازي في تفسيره الكبير (ج ٢٦ ص ١٣٢ - ١٣٧) حوالي ١٣٠ سطرًا/ ٢٦٠٠ كلمة. ولو أننا مضينا خلفه في الشرح والبيان لشغلنا - كما شغله تماماً - عن القصد الأساسي الأول من هذا الجزء من قصة إبراهيم.

ما يعنينا ويهمنا من آية الصافات ١٠٢ هو التالي، مفترضين دون دخول بالتفاصيل، أن الذبيح هو إسماعيل ودليلنا هو قوله تعالى عندما بشر إبراهيم بإسماعيل قال ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعُلَاقٍ حَلِيمٍ﴾ (الصافات ١٠١):

آ - قوله ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ الذي نفهم منه أن إسماعيل بلغ سنًا يستطيع فيها مع أبيه القيام بالمسعى النبوي الأول عند الأنبياء وهو الدعوة إلى التوحيد. أي إن إسماعيل في لحظة أحداث الآية كان نبياً.

ب - قوله (إني أرى) ونفهم أن الرؤية ليست بالعين وأنها إدراك بالفؤاد لأنها

في المنام، وأنها تكررت أكثر من مرة بدلالة استعمال الفعل المضارع «أرى» لا الفعل الماضي «رأيت»، كما في قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ يُسُفُّ لِأَبِيهِ يَتَابَتِ إِنْ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كُوكَبًا...﴾ (يوسف ٤).

ج - قوله (فانظر ماذا ترى) ونفهم أن فعل «ترى» فيه هو من الرأي لا من الرؤية.

د - قوله (افعل ما تؤمر)، الذي يمثل رأي إسماعيل النبي فيما رآه أبوه مناماً، والذي يذكرنا بقول موسى للعبد الصالح بعد قتله الغلام ﴿... أَفَنَلَّكَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (الكهف ٧٤). وإذا كان قتل النفس الزكية - أي كانت هذه النفس - أمراً نكراً حسب تعبير آية الكهف ٧٤، فما بالك بقتل الأنبياء والرسل؟ قد يقول قائل: تلك أحكام نزلت على موسى في ما بعد ضمن الوصايا العشر، لعلها لم تكن في عهد إبراهيم وإسماعيل؟ لذا قال تعالى ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا...﴾ (المائدة ٣٢). إننا نفهم أن جواب إسماعيل لأبيه كان أن يفعل ما يؤمر لا ما يرى في المنام لأن إسماعيل أيضاً لا يقبل أن يقتله أحد بمجرد منام حتى لو كان أباه. فإن كانت المسألة أمراً بالقتل فليفعل، وإن كانت رؤيا فلا.

هـ - قوله ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ الذي نرى فيه إشارة تدل على أن إسماعيل فهم من مقام النبوة القصد الإلهي من الرؤيا ومن التكليف بالذبح، وأن المسألة ابتلاء وامتحان، وهذا ما سيتضح جلياً في القسم الثاني من القصة بقوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَّ الْبَتْلَؤُاَ الْأَمِينُ﴾ (الصافات ١٠٦). فإن قال مستنكر: أليس في زعمك هذا انتقاص من إبراهيم باتهامه بأنه لم يفهم المقصود الإلهي، وأن ابنه فهمه؟ نقول: كلا، ليس فيه ما ذكرت بدليل أمرين: الأول، قوله تعالى ﴿بَلَّغْنَا فِضْلَنَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ...﴾ (البقرة ٢٥٣)، والتفضيل شيء والانتقاص من المفضل شيء آخر. والثاني،



قوله تعالى ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ \* فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّلَاهُ إِنَّا نَافِلُونَ...﴾ (الأنبياء ٧٨-٧٩)، ولكي يؤكد أن تفهيم المسألة لسليمان لا يعني مطلقاً الانتقاص من أبيه داود، راح سبحانه يعدد ما خص به داود قائلاً: ﴿... وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ \* وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (الأنبياء ٧٩-٨٠).

إن الانتقاص الحقيقي كان بحق إسماعيل على أيدي المفسرين حين زعموا جميعاً بدون استثناء أن الصبر المذكور في آية الصافات ١٠٢ هو الصبر على الذبح وآلامه، وكان إسماعيل واحد من العوام الذين لا يعرفون شيئاً عن المعاناة النفسية والروحية والفكرية، ومنتهى الصبر عندهم هو احتمال الألم المادي الجسدي الناتج عن لسع سوط أو حز سكين أو بتر ساطور.

١٨ - بالانتقال إلى القسم الثاني من مشهد الذبح تبدأ الأمور بالوضوح وتبدأ النقاط بالتوضيح فوق حروفها: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ \* وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبراهيمُ \* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ \* إِنَّكَ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ \* وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ \* وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ \* سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ \* كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (الصافات ١٠٣-١١٠).

أ - قوله (فلما أسلما) إشارة إلى أن معركة المعاناة قد حُسمت لمصلحة التسليم لله تعالى، وإلى أن نار تنازع الأفكار وتجاذب الوسوس في أعماقهما قد انطفأت لمصلحة الإيمان والإنابة، وإلى أن الحيرة عندهما قد اطمأنت للطف الله ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ...﴾ (الشورى ١٩). ولعلم الله بما هو خير للإنسان وإن كرهه وبما هو شر له وإن أحبه ﴿... وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ٢١٦).

ب - قوله ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ تجسيد عملي بالجوارح للتسليم النظري بالفكر، سواء كانت الواو استئنافية أم حالية، والأخيرة أقوى عندنا.

ج - قوله ﴿وَنَادِيْنَاهُ يَا إِبْرَاهِيْمُ قَدْ صَدَقْتَ الرُّؤْيَا﴾ وفيه يستوقف سبحانه إبراهيم عن المضي في استكمال الذبح عملياً، إذ المراد ليس الذبح، بل امتحان إيمان إبراهيم وإسماعيل بربهما تسليماً، وقد أثبتنا ذلك فعلاً وعملاً.

د - قوله ﴿إِنَّا هَذَا كَوَّالِبَتُو الْيَمِيْنُ﴾ الذي جاء متأخراً، وفيه دليل ما فهمه إسماعيل من أن المسألة ليست مسألة قتل وذبح بقدر ما هي مسألة ابتلاء واختبار.

هـ - قوله ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِيْنَ﴾ الذي جاء متقدماً، وفيه إشارة إلى الفداء الذي خص به تعالى إبراهيم وإسماعيل جزاءً لهما على إحسانهما في الإسلام لله والتسليم لأمره.

و - قوله (وفديناه بذبح عظيم، وتركنا عليه في الآخرين) عبارتان، في الأولى يقر سبحانه أولاً القرايين من حيث المبدأ، لكنها تتحول عنده إلى صدقات عينية للفقراء والمساكين، وقروض حسنة للغارمين والمحتاجين، وأعمال صالحة يقصد بها وجه الله تعالى، فإذا كانت أضحيات نبهنا إلى أنه ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُوْمَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقُوَى مِنْكُمْ...﴾ (الحج ٣٧). ويضع ثانياً نهاية لمسألة القرايين البشرية. أما في العبارة الثانية فهو يطمئنتنا بأن ما وضعه من منع للقرايين البشرية واستبدالها ساري المفعول إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، وأنه ليس محصوراً بعصر إبراهيم، بل يشمل ما بعده من عصور متأخرة.

الآن فقط نستطيع أن نفهم معنى قوله تعالى حين قال ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيْمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا...﴾ (آل عمران ٩٧). ونستطيع أن نفهم لماذا تكررت عبارة (كذلك نجزي المحسنين) مرة في الآية ١٠٥ ومرة في الآية ١١٠ من سورة الصافات. فإبراهيم أحسن بإسلامه لله وتسليمه لأمره، فجاءه الجزاء بأن فدى الله إبنه إسماعيل بقربان جليل الشأن وأعلن سبحانه قانون جزاء الإحسان والمحسنين، وهذا معنى كلمة (إننا) في الآية ١٠٥.

وإبراهيم أحسن في الإنابة إلى الله والالتكال عليه، فجاءه الجزاء مرة ثانية

خاصاً به وهذا معنى قوله تعالى ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ بأن زاده مقاماً على مقام، فبعد أن جعله إماماً (البقرة ١٢٤) وللمؤمنين المسلمين أسوة (المتحة ٤) ترك ما نزل عليه من منع القرايين البشرية واستبدالها بالحيوان سنة يعمل بها كل من يأتي بعده إلى بيت الله الحرام. وبهذا استقر مفهوم الأضحية في الحج والفداء في القرايين، ليبين أن كل من دخل المسجد الحرام كان آمناً من تقديمه إلى الله كقربان بشري، وصدق الله العظيم. أما ما ذهب إليه بعض المفسرين من أنه آمن من اغتيال الآخرين له أو إيذائهم له أو قتله فليس عندنا بشيء. والتاريخ يؤكد عدم صحة هذا الفهم.

١٩ - كانت الفقرة الأولى من رسالة إبراهيم الدعوة إلى التوحيد، الذي يشكل محوراً دارت حوله دعوات من سبق من أنبياء ورسول. وكانت الفقرة الثانية ترسيخاً لمفهوم بر الوالدين الذي جاء به نوح، وتوسيعاً لهذا المفهوم بحيث أصبح يشمل الأبوين، تماماً كما اتسع مفهوم الدعوة إلى التوحيد ليشمل مع القوم السلطة الحاكمة. وكانت الفقرة الثالثة تضع الأسس الأولى لفكرة الهجرة إلى الله، التي جاءت لتتوج عملياً ومادياً مرحلة البحث عنه بين المعبودات الزائفة الأخرى. ثم الاهتمام إليه، ثم التعرف حسيّاً على قدراته في إحياء الموتى استنباطاً من قدرته على إحياء الشمس والقمر وباقي الكواكب والنجوم بعد أفولها. وكانت الفقرة الرابعة تتضمن الإجابة عن سؤال كبير: ماذا يفعل الباحث عن ربه الواحد الأحد بعد أن يهتدي إليه ويتعرف إلى قدراته؟ وأين وكيف يتقرب إليه ليرضى؟

لقد جاءت هجرة إبراهيم إلى منطقة مكة المكرمة عند بيت الله المحرم، وتطهيره من كل ما يشغل قاصديه ويعوقهم عن الطواف والاعتكاف والركوع والسجود، لتجيب عن الشق الأول من السؤال. وجاءت قصة الرؤيا والذبيح والنداء - التي فصلناها آنفاً - لتجيب عن الشق الآخر منه، وليأخذ مفهوم القرايين شكله الصحيح على يدي إبراهيم وإسماعيل، وليتكرس استبعاد تقديم القرايين البشرية إلى يومنا هذا.

٢٠ - لكن أبرز وأهم ما أرساه إبراهيم كنبى ورسول - مع عدم التقليل من أهمية ما أشرنا إليه في الفقرة السابقة - هو أمران:

الأول، ظهور مفهوم التجريد في التقرب من الله في الفكر الإنساني، إذ كان التشخيص هو السائد، وكان لا بد في عصر إبراهيم وما قبله من شكل بعينه واسم بعينه لكل رب معبود، ولا بد من مكان بعينه يسكنه هذا الرب المعبود يُعبد فيه وتقدم القرابين لنيل رضاه. والثاني، اكتمال الانتقال من التشخيص إلى الرمز للوصول إلى التجريد. هذا الانتقال الذي بدأت بذوره مع أول مخلوق بشري نفخ الله فيه من روحه فتحول إلى إنسان عاقل، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى وهو يستهل فصلاً من فصول قصة إبراهيم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (الأنبياء ٥١).

٢١ - لعل أوضح شعيرتين من شعائر الإيمان عند الأمة المحمدية تعودان في العديد من تفاصيلهما إلى إبراهيم، وتتجلى فيهما تلك النقلة من المشخص إلى المجرد عن طريق الرمز، هما: التجريد في الصلاة، والمشخص في الحج، وارتباطهما ببعضهما البعض.

## أ - الصلاة

نبدأ بقوله تعالى:

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ \* وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ \* وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا .﴾ (البقرة ١٢٤-١٢٦).

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (الحج ٢٦).

هذه الآيات تروي فصولاً من قصة إبراهيم مع بيت الله المحرم في وادٍ غير ذي زرع، لكن الأحداث فيها ليست مرتبة حسب وقوعها، فمثلاً:

أ - جعل البيت مثابة للناس وأمناً حصل قبل جعل إبراهيم للناس إماماً،  
بدليل الفرق بين قوله (وإذ جعلنا البيت) وقوله (إني جاعلك).

ب - اعتداء إبراهيم لمكان البيت المحرم وتلقيه الأمر بتطهيره، حصل قبل صدور الأمر له ولإسماعيل مرة أخرى بتطهير البيت.

ج - صدور الأمر للناس بقوله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) لا بد أن يأتي بعد تطهير البيت لا قبله.

ما يهتّمنا في هذه الفقرة أن نشير إلى أمرين في الآيات الأربع السالفة: الأول أن إمامة إبراهيم للناس أصبحت تشمل إمامتهم في الصلاة إلى جانب كونه إماماً لهم في منهجه الاستقرائي الذي قاده إلى التوحيد وفي الشك الذي قاده إلى اليقين. والثاني، أن تطهير البيت في المرتين المذكورتين إنما هو تطهير من أجل «الطائفين» ليتمكنوا من الطواف، ومن أجل «العاكفين» ليتمكنوا من الاعتكاف، ومن أجل «الركع السجود» ليتمكنوا من أداء صلواتهم. ولا يفوتنا أن نفهم أن الطائفين هم الوافدون، وأن العاكفين هم المقيمون، الذين سنتحدث عنهم تفصيلاً في الفقرة التالية حين نتحدث عن الحج.

إننا نرى في ضوء تكليف الناس (جمع إنسان وهو كل مخلوق عاقل) باتخاذ مقام إبراهيم مصلى<sup>(١)</sup>، وفي ضوء إشارة آتي البقرة ١٢٥ والحج ٢٦ إلى وجود طائفين وعاكفين وركع سجود في العصر الإبراهيمي، أن إقامة الصلاة بركوعها وسجودها جاءت لإبراهيم أول مرة مقترنة بالبيت المحرم أي بالكعبة المشرفة، ثم اختلفت بعد إبراهيم على أيدي أهل الملل الأخرى من يهود ونصارى. وكذلك صلوات الملل الأخرى حيث لكل ملة صلاة خاصة بها وكلهم يشترك في ظاهرة

(١) ثمة قراءتان لآية البقرة ١٢٥، في الأولى تلفظ الخاء من كلمة (واتخذوا) مكسورة بصيغة الأمر، وهذه قراءة ابن كثير وأبو عمرو وحزمة وعاصم والكسائي وهي الأرجح عندنا. وفي الثانية تلفظ مفتوحة بصيغة الخبر، وهي قراءة نافع وابن عامر وليست عندنا بشيء، إذ في الأولى تأكيد لإمامة إبراهيم من جانب، وتأكيد للقبلة الإبراهيمية من جانب آخر، دون أن يتعارض ذلك مع وجود طائفين وعاكفين وقائمين وركع سجود قبل إبراهيم معه.

التأمل والخشوع . ويقودنا التأمل في الآيات الأربع إلى عدد من النتائج :

(١) - الأمر بتطهير البيت نزل مرتين ، مرة لإبراهيم منفرداً عقب نزوله بجوار بيت الله المحرم ، بدلالة آية الحج ٢٦ ، حين كان إسماعيل لا يزال طفلاً رضيعاً ، ومرة لإبراهيم وإسماعيل معاً ، بدلالة الآية ١٢٥ من سورة البقرة ، بعد أن بلغ إسماعيل أشده وصار نبياً .

(٢) - الأمر بالتطهير في المرتين يقتضي أن الكعبة قائمة ، وأنها مثابة للناس وأمنٌ ، وأنها عامرة بالطائفين والعاكفين والقائمين والركع السجود .

(٣) - رفع القواعد بمعنى إزالة الإشغالات ، سواء أكانت أنصاباً أم أصناماً أم منصات للنخاسين والصيارفة ، داخل في أعمال التطهير ولا علاقة له بالبناء والأساسات من قريب ولا من بعيد .

(٤) - حين نقول إن إقامة الصلاة بركوعها وسجودها نزلت لأول مرة على إبراهيم مقترنة بالكعبة لا نعني أن الصلاة كصلة بين العبد وربّه لم تكن معروفة عملياً قبل ذلك ، وإلا فماذا كان يفعل الطائفون والعاكفون في البيت المحرّم ؟ فالصلاة في الأصل صلة بين العبد وربّه عمودها الدعاء تضرّعاً لدفع شر وحمداً لجر خير . وحين نقول إن الصلاة بركوعها وسجودها - كما أمر الناس أن يأتوها بإبراهيم في أدائها هي التي بدأت بإبراهيم - قد اختلفت في ما بعد على يد أهل الملل الأخرى ، فإننا نقول ذلك ناظرين إلى قوله تعالى يصف صلاة الكافرين في الكعبة لنبّيه (ص) ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (الأنفال ٣٥) (المكاء والتصدية : الصفير والتصفيق) .

(٥) - يؤكد ما ذهبنا إليه ، دليل قرآني هو قوله تعالى ﴿يَمْرِيءُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (آل عمران ٤٣) . وهنا نجد أن ترتيب الركوع والسجود عند مريم اختلف عما كان عليه عند إبراهيم ، إلا أنهما لم يختلفا من حيث شكل الأداء تطبيقياً . فالركوع - بالأصل - هو جلوس المتضرّع المستعطف

القانت جائياً على ركبتيه، وهذا ما كان عليه ركوع إبراهيم ومريم، ثم صار الركوع عند الأمة المحمدية انحناءً يعبر عن الاحترام والتعظيم بحيث تستقر راحتا الراكع المنحني على ركبتيه، تماماً كما تحوّل الصوم من امتناع عن الكلام إلى امتناع عن الطعام والشراب في أوقات معلومة على مدى شهر معلوم. ونفهم من آية آل عمران ٤٣ أن الركوع والسجود كانا موجودين في عصر مريم وابنها المسيح، تماماً كما كانا قبل ذلك في عصر إبراهيم، والسجود عند مريم والمسيحيين هو وضع الذقن على الصدر وذلك في قوله تعالى ﴿يَخْرُجُونَ لِلْآذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ونفهم أن الركوع الجثو على ركبتين يليه السجود وهو وضع الذقن على الصدر، ونرى هذا اليوم في صلاة المسيحيين.

(٦) - يؤكد ما ذهبنا إليه أيضاً خبر تاريخي يرويه الطبري في تاريخ الرسل والملوك (ج ٢ ص ٣١١) عن إسماعيل بن إلياس بن عفيف عن أبيه عن جده قال: كنت امرأة تاجراً، قدمت أيام الحج فأتيت العباس، فبينما نحن عنده إذ خرج رجل يصلي، فقام تجاه الكعبة، ثم خرجت امرأة فقامت تصلي معه، وخرج غلام فقام يصلي معهما. فقلت: يا عباس، ما هذا الدين؟ إن هذا الدين ما أدري ما هو. قال: هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله به، وأن كنوز قيصر وكسرى ستفتح عليه، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به، وهذا الغلام ابن عمه علي بن أبي طالب آمن به. قال عفيف: فليتني كنت آمنت به يومئذ وكنت رابعاً. أه.

(٧) - فإذا نحن وقفنا متأملين في قوله تعالى لنبيه الكريم في سورة هي من أوائل ما نزل عليه ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى \* عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ (العلق ٩-١٠)، فهمنا أن الصلاة هنا هي صلة بين العبد وربّه وليست الصلاة الشعائرية وكانت معروفة قبل النبي حتى وقبل إبراهيم.

(٨) - حين توجه النبي (ص) في صلاته إلى الكعبة المشرفة كان ذلك تأسيساً بقبلة إبراهيم قبله، لأن الأمر الإلهي في قوله تعالى ﴿... قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴿البقرة ١٤٤﴾، نزل في المدينة المنورة بعد الهجرة.

(٩) - كان النبي (ص) طوال فترة سبعة عشر شهراً في المدينة يتوجّه في صلاته إلى المسجد الأقصى ويقلب وجهه في السماء، حسب تعبير آية البقرة ١٤٤، بانتظار نزول أمر إلهي يكرّس اجتهاده أو يأمره باستبداله. وإذا كانت مسألة القبلة في التوجّه نحو الكعبة لم تخلق مشكلة للنبي (ص) وأصحابه وهم في مكة، فإنها بدأت تتحوّل إلى مشكلة بعد هجرتهم إلى المدينة.

(١٠) - كان لتأخير نزول الأمر بتحديد القبلة حكمة وسبب أوضحه تعالى بقوله ﴿... وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ...﴾ (البقرة ١٤٣). والجعل في الآية يعني تحويل الاجتهاد النبوي إلى أمر إلهي، و«القبلة التي كنت عليها» تعني الكعبة التي كنت وما زلت تتوجّه إليها، تماماً كقوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران ١١٠)، أي صرتم وما زلتم.

(١١) - كل ما قاله أهل الأخبار وأصحاب التفاسير، عن نزول أمر إلهي بالتوجّه إلى بيت المقدس في الصلاة ثم نسخه بآية البقرة ١٤٤، ليس عندنا بشيء. وكل ما زعموه من أن النبي اتجه بأمر ربه إلى بيت المقدس في صلاته استرضاء لليهود واستمالة لهم (انظر تفسير الرازي ج ٤ ص ٩٤) مرفوض عندنا جملة وتفصيلاً، القائل به من عبيد الإسرائيليات. وكل ما صاغه القائلون بالنسخ من أن آية البقرة ١٤٤ نزلت ناسخة لآية آية أخرى لا يدري أحد عنها شيئاً، جعلت من النبي (ص) وأصحابه محل سخرية اليهود على مدى سبعة عشر شهراً، إنما هو نسيج خيال ركيك وخطير في آن معاً. فإله تعالى يقول ﴿... وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ إِلَّا لِمَنْ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ...﴾ (البقرة ١٥٠) فهل يعقل بعد هذا القول أن يتخذ النبي (ص) قبلة جديدة غير التي اعتمدها على مدى أربعة عشر عاماً يعطي فيها الحجة عليه لليهود؟

(١٢) - ثمة - في ما نرى - أكثر من علاقة وثيقة تربط الصلاة بالحج من



جانب، وهذا ما سنفصله في الفقرة التالية، وبين التجريد والتشخيص من جانب آخر، الذي يتجلى في عدد من الصور، منها:

أ - توجه المصلي إلى الكعبة المشرفة حيث بيت الله الحرام، وهذا توجه (حج) روعي معنوي مجرد.

ب - التسييح باسم الله العظيم في الركوع وباسم الله الأعلى في السجود.

ج - التسليم بعد الانتهاء من الصلاة، الذي يمثل صورة حسية لإيمان المصلي بوجود الملائكة.

### ب - الحج إلى بيت الله الحرام

في كتابنا الثاني الإسلام والإيمان شرحنا أركان الإيمان الخمسة (الشهادة بأن محمداً رسول الله/ الصلاة/ الزكاة/ الصوم/ الحج)، وتبين لنا من قراءة قصة إبراهيم أن شعيرتين من الشعائر الأربع التي تحدد هوية المؤمن بالرسالة المحمدية تعودان إلى العصر الإبراهيمي هما: الصلاة الشعائرية والحج.

والحج مفردة قرآنية وردت في ثلاثة عشر موضعاً من التنزيل الحكيم، وأصل صحيح في اللسان يدل على أحد أربعة معانٍ: الأول: القدوم والقصد، كما في قوله تعالى ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ...﴾ (التوبة ٣). وقوله تعالى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ...﴾ (البقرة ١٩٧)، والحاء فيه قد تفتح كما في الآيتين السابقتين، وقد تكسر كما في قوله تعالى ﴿...وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا...﴾ (آل عمران ٩٧). والثاني، الدليل والبرهان كما في قوله تعالى ﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اثْبُتُوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الجاثية ٢٥)، ومنها قولنا اليوم: الحجة صك الملكية ودليلها. والثالث، الجدال والإمعان في الحوار بين المتخاصمين كما في قوله تعالى ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَدِّثُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾ (الأنعام ٨٠)، وقوله تعالى ﴿هَاتِنَا هَؤُلَاءِ حَاجَّتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ...﴾ (آل عمران ٦٦). والرابع،

السنة والعام كما في قوله تعالى ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَّ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ...﴾ (القصص ٢٧). وما يهمنا في هذه الفقرة هو المعنى الأول للحج وهو: القصد إلى بيت الله الحرام والتوجه إليه في أشهر معلومات من العام لأداء مناسك معينة لقوله تعالى: ﴿... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا...﴾ آل عمران ٩٧، أو القصد للعمرة أو ما يمكن أن نقول عنه (الحج الأصغر) في الأشهر الحرم والمذكورين في قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا...﴾ (البقرة ١٥٨).

من هنا، وفي ضوء هذا التعريف، فنحن نرى بداية تبلور فكرة الحج عند إبراهيم تتجلى في قوله تعالى على لسان إبراهيم ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (الصافات ٩٩). ثم تبدأ الفكرة بالنضوج وهو يدعو ربه قائلاً ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم ٣٧). ونرى أن مكان الحج قد تحدد منذ عصر إبراهيم بالكعبة المشرفة، في بلد صغير شحيح بالماء والتمر، لا يزيد عدد قاطنيه على المئات، ولا يتجاوز عدد قاصديه العشرات. والسؤال الآن: هل أضافت البعثة المحمدية جديداً إلى الحج من حيث المكان؟ والجواب: نعم، بكل تأكيد. فقد استجاب الله لدعاء إبراهيم وجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، وأمر الناس باتخاذ مقام إبراهيم مصلى، وصارت العشرات ألوفاً، والمئات عشرات ألوفاً، ولم يعد المكان على هيئته الأولى يتسع للوافدين المحرمين (قيل إن عدد من شارك في حجة الوداع بلغ مئة ألف حاج، وهذا رقم على قلته بالمقارنة بعدد الحجاج اليوم البالغ حوالى ٢,٣ مليون حاج بين قادم ومقيم، يعدّ فريداً من نوعه في منتصف القرن السابع الميلادي في شبه جزيرة العرب) وكان لا بد لحدود الحرم المكي من أن تمتد لتستوعب هذه الخلائق المهاجرة إلى ربها، فكان أن رسم النبي (ص) مواقيت

الحرم من جهاته الأربع، لا يتجاوزها الحاج والمعتمر إلا محرماً، ولا نرى أن هذه المواقيت كانت من عهد إبراهيم، ويؤكد هذا ما رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله (ص) قال: نحرت ها هنا ومنى كلها منحر، ووقفت ها هنا وعرفة كلها موقف. ونفهم أن المواقيت في الحديث الرسولي - إن صح - هي الأماكن التي يقف فيها الحاج لقضاء مناسكه، وهي الشعائر كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ الْأَمَّاكُنَ الَّتِي يَقِفُ فِيهَا الْحَاجُّ لِقِضَاءِ مَنَاسِكِهِ، وَهِيَ الشَّعَائِرُ كَمَا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿... فَإِذَا أَفْضَيْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ...﴾ (البقرة ١٩٨).

والجديد في الحج الذي جاءت به البعثة المحمدية لم يقتصر على المكان بل امتد حتى شمل الزمان أيضاً، إذ لا بد لكل فعل من ظرف مكاني وظرف زمني يقع فيهما. وإذا كان الجديد في الحج بظرفه المكاني جاء توسيعاً لحدود المكان - كما رأينا - فصار عرفة عرفات كما في آية البقرة ١٩٨، وصار المنحر مناحر كما في الحديث الرسولي، فإن الجديد في الحج بظرفه الزماني جاء تنظيماً هدفه التقليل من الازدحام في مواقيت الحج حتى بعد توسيعها. ونبدأ بقوله تعالى ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ...﴾ (البقرة ١٩٦)، الذي نجد أنفسنا معه أمام أمرين: الأول، قوله (وأتموا) والثاني تفريقه بالعطف بين الحج والعمرة. أما الأول ففيه أمر تكليفي بالإتمام، أي أداء الشعائر والمناسك متتابعة دون فواصل زمنية بينها، تماماً كما في الصوم حين يقول تعالى ﴿... ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الْآِلِ...﴾ (البقرة ١٨٧)، أي دون انقطاع وهذا يقودنا إلى شرح التمام والكمال.

### فصل في الفرق بين التمام والكمال

انقسم اللغويون في مسألة الترادف إلى قسمين، بعضهم قال به وبعضهم أنكره، وكان من الطبيعي أن نجد معاجمهم وقواميسهم - باعتبار أن كل أصحابها من اللغويين - تعكس القسم الذي ينتمون إليه في مسألة الترادف. ونذكر على سبيل المثال من معاجم القائلين بالترادف «لسان العرب» لابن منظور، و«تاج

العروس» للزبيدي. ومن معاجم منكري الترادف «مقاييس اللغة» لابن فارس و«أساس البلاغة» للزمخشري.

وإذا كان من الطبيعي أن نجد في معاجم القسم الأول «دارات مغلفة» لمعاني الألفاظ المترادفة، تفسر معنى الكذب بالبهتان، والبهتان بالإفك، والإفك بقول الزور، ثم تعود لتفسر قول الزور بالكذب، فإن من غير الطبيعي أن نجد مثل ذلك في معاجم القسم الثاني.

نقول هذا ونحن نقف أمام قوله تعالى ﴿... أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾ (المائدة ٣). ونقف مع ابن فارس في مقاييسه وهو يقول: كمل: أي تم. وكمل الشيء إذا تم. تم: أي كمل. وتم الشيء إذا كمل. ومع الزمخشري وهو يقول: أعطاه حقه كاملاً وكملاً: أي وافياً، وهذه تكملته وتتمته. ولم يخرج صاحب المعجم المدرسي الصادر عن وزارة التربية في الجمهورية العربية السورية عام ١٩٨٥، عن هذا الإطار وهو يقول: كمل الشيء: تمت أجزاؤه. الكمال: التمام. التكملة: التتمة.

ورغم أن الجميع متفقون على أن الكامل خلاف الناقص، إلا أن أحداً منهم لم يسأل نفسه: لماذا يستعمل العرب مصطلح «البدر التمام» ولا يستعملون «البدر الكمال»؟ وهل يجوز - إذا كان تمّ وكمل بمعنى واحد - أن نقول مثلاً: اليوم أتممت لكم دينكم وأكملت عليكم نعمتي؟؟ والجواب: لا يجوز ذلك قطعاً.

نحن مع التمام والكمال أمام لفظين اختلفت حروفهما. فالأصل ت م م، غير الأصل ك م ل. ومن هنا لا يمكن حسب رأي منكري الترادف إلا أن يختلفا في المعنى، ولا يمكن إلا أن يكون في أحدهما ما ليس في الآخر. لكن المشكلة أن «المرجعيات اللغوية»، ونعني بها المعاجم والقواميس والموسوعات، لا تفيد في تبيان هذا الفرق وتوضيح ذلك الاختلاف، فكان لا بد من استقراء آيات التنزيل الحكيم التي ورد فيها كل من اللفظين. يقول تعالى:

١ - ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ

الْهَدَى وَالْفُرْقَانَ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ... ﴿البقرة ١٨٥﴾.

٢ - ﴿... فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ... ﴿البقرة ١٩٦﴾.

٣ - ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ... ﴿النحل ٢٥﴾.

٤ - ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ... ﴿البقرة ٢٣٣﴾.

٥ - ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا... ﴿المائدة ٣﴾.

تلك هي المواضع الخمسة التي ورد فيها لفظ ك م ل بمشتقاته وصيغه في التنزيل الحكيم. أما لفظ تمم فقد ورد خمساً وعشرين مرة في التنزيل، اشترك في مرتين منها مع لفظ ك م ل هما: البقرة ٢٣٣ والمائدة ٣. وانفرد في باقيها. كما في قوله تعالى:

﴿وَوَاعِدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتْمٍ مِيقَتَ رَبِّهِ أَزْبَعِينَ لَيْلَةً... ﴿الأعراف ١٤٢﴾.

﴿وَكَذَلِكَ يَجْزِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ... ﴿يوسف ٦﴾.

﴿وَلِإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّتْهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا... ﴿البقرة ١٢٤﴾.

﴿... وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُوا الصِّيَامَ إِلَىٰ الْآتِلِ... ﴿البقرة ١٨٧﴾.

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَكْمَلَكَ إِحْدَىٰ ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِجٍّ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ... ﴿القصص ٢٧﴾.

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ . . .﴾ (الفتح ٢).

إن من فضائل ترتيل آيات التنزيل - كتاباً وقرآنًا - ذات الموضوع الواحد أنه يساعد كثيراً على دقة فهمه واستجلاء معانيه. فالتأمل في مجموعة الآيات الأولى سيجد أن لـ «الكمال» خصوصية يلتزمها هي «البدء ثم الانقطاع ثم المتابعة حتى الاكتمال»، وأن لـ «التمام» خصوصية أخرى هي «البدء والاستمرار دون انقطاع حتى التمام».

فآية البقرة ١٩٦، تتحدث عن المتمتع بالحج، وتوجب عليه ذبيحة مقابل تمتعه هذا من الهدي المتوفر المتاح حسب استطاعته المالية، فإن كان غير ذي قدرة مالية، فعليه أن يصوم عشرة أيام على قسمين: ثلاثة في الحج ثم ينقطع، وسبعة بعد العودة إلى دياره، ولهذا قال سبحانه ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾<sup>(١)</sup>.

وآية البقرة ١٨٥، تتحدث عن صوم شهر قمري هو رمضان، صوماً متتابعاً مستمراً لا انقطاع فيه، واجباً على كل من يشهده. ولما كان الصوم من الشعائر (من أركان الإيمان) التي تحكمها الاستطاعة تحت مقتضى قوله تعالى (اتقوا الله ما استطعتم)، وكانت هذه الاستطاعة تضعف أو تنعدم لدى المكلف الراغب بالصيام في حالتين: المرض والسفر، والله تعالى لا يريد تصعيب التكليف على عباده بحيث تخرج عن استطاعتهم، فقد رخص سبحانه للمرضى والمسافرين أن ينقطعوا عن الصوم، على أن يصوموا في أيام آخر بدلاً من الأيام التي انقطعوا فيها عن الصوم. ولهذا قال سبحانه ﴿وَلْيُكْمِلُوا الْوَعْدَةَ﴾، ولم يقل (ولتتموا العدة)، لأن الذي يصوم شهراً مع انقطاع يكمل، أما الذي يصوم شهراً دون انقطاع فيتم.

(١) لقد أشرنا في موضع آخر إلى أن لفظ (عشرة) في الآية يشير أيضاً إلى النظام العشري في العد، فقد كان أهل الحساب من العرب يعرفون أنظمة أخرى للعد كالنظام الاثني عشري والنظام الستة عشري عند الكلدانيين وغيرهم. ومن هنا فإن قوله تعالى (تلك عشرة كاملة) يؤدي مقصدين معاً. الأول أنها متقطعة غير متصلة، والثاني أنها مجموعة غير ناقصة حسب النظام العشري. ولو نظرنا إليها في ضوء نظام عددي آخر لانتفى أن تكون كلمة.

وآية النحل ٢٥، تتحدث عن أوزار يحملها مرتكبوها يوم القيامة، والأوزار لا يكتسبها الإنسان دفعة واحدة وباستمرار لا انقطاع فيه، بل هي تتراكم مع الزمن، ولهذا قال تعالى ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾.

ننتقل الآن إلى آية الأعراف ١٤٢، التي تتحدث عن موعد مضروب ولقاء بين موسى (ع) وربّه مدته أربعون ليلة مقسومة أيضاً إلى قسمين: (٣٠ + ١٠)، ليس بين القسمين انقطاع بدليل قوله تعالى ﴿وَأَتَمَّمْنَا بِعَشْرِ﴾، ولو كان بينهما انقطاع لقال (وأكملناها بعشر) تماماً كما قال في آية البقرة ١٨٥ عن الصوم في أيامٍ آخر. إن استكمال عدة الصيام إلى شهر في البقرة ١٨٥، وإتمام الميقات إلى أربعين ليلة في الأعراف ١٤٢، شاهد واضح على خاصية الانقطاع في الكمال وخاصية الاستمرار دون توقف في التمام.

وآية يوسف ٦، تتحدث عن نعمة الله على عبده ونبيه يوسف، سواء منها نعمة الاصطفاء أو نعمة تأويل الأحاديث، هذه النعمة يصفها تعالى بأنها تامة وليست كاملة، أي إنها نعمة متصلة مستمرة لا انقطاع فيها على مدى الأجيال، تشمل كل آل يعقوب (أبي يوسف والدة) بدءاً من إبراهيم ثم ابنه إسحاق ثم يعقوب ابن إسحاق ثم يوسف ابن يعقوب في سلسلة متصلة الحلقات. ولهذا قال تعالى ﴿وَيُتِمُّ بِرَحْمَتِهِ عَلَيْكَ... كَمَا أَتَمَّمَا عَلَىٰ أَبِيكَ﴾، في إشارة إلى أن النعمة لا تتجزأ ولا تنقطع إلى يومنا هذا.

أما آية البقرة ١٨٧، فتعود بنا إلى مسألة الصوم عن الطعام والشراب. وإذا كانت آية البقرة ١٨٥ تتحدث عن الصيام الشهري الذي قد يقع فيه انقطاع عند المريض والمسافر، فإن هذه تتحدث عن الصيام اليومي الذي يبدأ منذ خيوط الفجر الأولى ليستمر دون انقطاع إلى الليل، وبيان هذه الاستمرارية فقد قال تعالى ﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَىٰ اللَّيْلِ﴾.

وأما آية القصص ٢٧، فهي واحدة من ٤٣ آية تروي طرفاً من قصة موسى مع فرعون، تبدأ بقوله تعالى ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ ﴿ (الفصل ٣). تتحدث الآية عن أن والد المرأتين اللتين استقى لهما موسى يريد أن يزوجه إحدى ابنتيه، مقابل أن يعمل عنده راعياً لمدة ثمانين سنوات . فإذا شاء موسى - تكررماً منه - أن يجعلها عسراً، ويستمر في العمل سنتين إضافيتين فذلك متروك له . وليبيان الاستمرارية وعدم الانقطاع قال له ﴿وَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ .

نتقل الآن إلى آيتي البقرة ٢٣٣ والمائدة ٣، اللتين ورد فيهما ذكر الكمال والتمام معاً . فأية البقرة ٢٣٣ تتحدث عن مسألة إرضاع الوليد، وترسم لها فترة زمنية مقدارها عامان يجري بعدها فصاله وפטامه، لكننا نلاحظ أن الآية تذكر الكمال (عامين كاملين) وتذكر التمام (لمن أراد أن يتم) في موضوع واحد بعينه هو الرضاعة، مما يزرع الحيرة لأول وهلة في أيهما يقصد تعالى، لكن الانتباه إلى قوله سبحانه (لمن أراد) يبدّد كل حيرة لدى المتأمل . فعدة الرضاعة - أي الفترة الزمنية - كما قررها سبحانه في الآية حولان<sup>(١)</sup> (والحول هو السنة الشمسية لأن الأرض تدور حول الشمس مرة واحدة)، وقد أكد ذلك في قوله ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُهَا فِي عَامَيْنِ﴾ (لقمان ١٤)، دون أن يشير إلى كمال أو تمام . هذان العامان إما أن يكونا كاملين، أي فيهما انقطاع، لمن أراد الكمال، وهذا كثيراً ما يحدث، أو أن يكونا مستمرين لا انقطاع فيهما لمن أراد التمام، والخيار متروك للوالدة المرضعة شرط ألا تتعدى فترة العامين - كاملين أو تامين -، لحكمة إلهية لم تكن واضحة في زمن نزول الآية . هي أن ذاكرة الطفل تبدأ في التكوّن عند بلوغه العامين من العمر، فيصعب فطامه بعدها من جهة، وتؤثر على استقلال شخصيته في المستقبل من جهة أخرى . وإن الرضاعة بعد السنتين لا

(١) آية البقرة ٢٣٣ من آيات الأحكام، فيها تكليف وأمر للوالدات بإرضاع أولادهن، رغم أن بناءها القواعدي لا يحوي فعل أمر في ظاهره . وقوله ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ﴾ يعني (على الوالدات أن يرضعن) تماماً مثلما أن قوله ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ يوسف ٤٧ يعني (إزرعوا سبع سنين) .



تولد أي حرمة بغض النظر عن من هي المرضعة أكانت الوالدة أم أي امرأة أخرى .  
لذا فحديث إرضاع الكبير يتعارض كلياً مع التنزيل الحكيم .

بعد هذا التفصيل والتوضيح في الفرق بين الكمال والتمام، أصبح من السهل فهم قوله تعالى ﴿ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ وقوله ﴿ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ في آية المائدة ٣، واضعين في ذهننا أن:

الكمال ← تمام متقطع .

التمام ← كمال مستمر .

ونفهم أن الإسلام - كدين - لا يمكن أن يكون إلا كاملاً، أي متقطعاً وعلى فترات عبر الحقب الزمنية، وأن النعمة لا يمكن أن تكون إلا تامة، أي مستمرة عبر التاريخ كله بحقه الزمنية .

يشير تعالى في الآية إلى أنه رضي الإسلام ديناً لعباده، بل لقد مضى إلى أبعد من ذلك . فأعلن في موضع آخر أنه لن يقبل غيره، فقال ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ... ﴾ (آل عمران ٨٥) . وقرر في موضع ثالث ﴿ إِنَّ أَلَدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْسَلَهُ... ﴾ (آل عمران ١٩) . لكن هذا الدين بشعائره ومثله العليا وتشريعاته لم يجرى دفعة واحدة، بل جاء على فترات زمنية متقطعة، بدأ بنوح ثم انقطع حتى جاء هود، ثم انقطع حتى صالح، وهكذا إلى أن اكتمل بمحمد مروراً بإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم أجمعين . وإذا انطبق هذا الانقطاع على الجانب الشعائري والتشريعي من الدين، وتنوعت الملل، واختلفت الطقوس، فإن الجانب الأخلاقي منه بقي مستمراً متراكماً من رسالة لأخرى دون انقطاع لا كالشعائر والشرائع، الأمر الذي كان واضحاً في ذهن النبي العربي (ص) لقوله - إن صح - : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» . هناك إذاً - حسبما يقرره تعالى في تنزيله الحكيم - دين واحد هو الإسلام، رأسه الإيمان تسليماً بالله واليوم الآخر والعمل الصالح النافع للخلق، وهناك ملل وشرائع شتى، تدخل فيها ملة إبراهيم وملة نوح وملة موسى وعيسى والملة المحمدية،

وكلها ضمن دائرة واحدة هي الإسلام، إن توفرت فيها شروط الإسلام التي نصت عليها آية المائدة ٦٩. ومثال ذلك أصحاب التوراة المسلمون الذين قال فيهم تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ (المائدة ٤) (١). ورغم أن العديد من أئمة التصوف لا يستنكرون تعدد الملل، ويرون فيها «طرقاً» مختلفة في الشكل، تفقد في المضمون - من حيث المحصلة - كلها إلى الله، إلا أن ما ساد لدى فقهاء الإسلام التاريخي من مسخ لعالمية هذا الدين وتقزيم لكونيته، حوّل الإسلام إلى دين محلي، حين اعتبروا أن الملة المحمدية وحدها هي الإسلام وأن كل ما عداها في النار، فكفّروا بذلك - عملياً وتطبيقياً عامدين أو غير عامدين - أنبياء ورسلاً لم يسمعوا بمحمد (ص)، يأمرهم تعالى - نظرياً - بالإيمان بهم دون تفريق أو تمييز بينهم كجزء لا يتجزأ من إيمانهم بنبوة محمد (ص) وتصديقهم برسالته، وكتمة للإيمان بالله نفسه، في قوله عز من قائل ﴿... فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران ١٧٩) وفي قوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء ١٥٢).

نعود بعد هذا الاستطراد في التفريق إلى ما كنا فيه من تأمل في قوله تعالى ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ...﴾ (البقرة ١٩٦)، لنشرح الأمر الثاني الذي استوقفنا فيه، وهو التفريق لأول مرة بين الحج والعمرة، الذي يجده قارئ التنزيل الحكيم واضحاً لا لبس فيه في الآيات ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨ من سورة البقرة، إضافة إلى التفريق بين الوافدين والمقيمين في أحكام الإحرام. ونعني بالوافدين كل من جاء حاجاً أو معتمراً من خارج المربع الذي ترسمه المواقيت، سواء جاء من المدينة المنورة أو من دمشق أو من لندن أو من الرياض، ونعني بالمقيمين كل من كان

(١) لمزيد من التفصيل، انظر كتابنا الثالث الإسلام والإيمان ص ٣١ وما بعدها. ولا بد هنا من الإشارة - قبل أن يستغل المغرضون عبارتنا هذه كعادتهم - إلى أن توراة الهدى والنور في الآية لا علاقة لها بما بين أيدينا اليوم من عهد قديم يزعم أنه التوراة، ولا بالتلمود وملاحقه وشروحاته وتفسيره والفقهاء المستبطين منه. فافهم هذا.

مقر سكنه داخل مكة، كأهل مكة وغيرهم، الذين يبدأ إحرامهم من مكان سكنهم.  
مواقيت الإحرام من الجهات الأربع لمكة:

(١) - الجُحْفَة: ميقات أهل مصر والشام إن لم يمروا على المدينة المنورة، فإن هم مروا فميقاتهم ذو الحليفة. قرية كبيرة بينها وبين المدينة ست مراحل وبينها وبين مكة أربع مراحل.

(٢) ذو الحُلَيْفَة: ميقات أهل المدينة، قرية تبعد سبعة أميال عن المدينة.

(٣) ذاتُ عِرْق: ميقات أهل العراق، الحد بين نجد وتهامة، أي بين الجبال والسهول.

(٤) يَلَمْلَم: ميقات أهل اليمن، جبل في الطائف على بعد ميلين من مكة.

(٥) قرن المنازل: ميقات أهل نجد، جبل صغير يبعد يوماً وليلة عن مكة من جهة الطائف.

(المرجع: معجم البلدان لياقوت الحموي)

نتقل الآن إلى قوله تعالى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ (البقرة ١٩٧)، لنقارنه بقوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ (البقرة ٢٠٣) وبقوله تعالى ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ (الحج ٢٨).

نبدأ بقوله تعالى في سورة البقرة الآية ١٩٧ ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ والإشارة واضحة في لفظة (معلومات) إلى الأشهر الحرم، وهي رجب، ذو القعدة، ذو الحجة، محرم، في قوله تعالى ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ...﴾ (التوبة ٣٦). والإشارة واضحة أيضاً إلى أن هذه الأشهر الحرم معروفة ومعلومة ومشهورة عند العرب قبل البعثة المحمدية<sup>(١)</sup>. وهذا يقودنا إلى آية الحج ٢٨ وقوله تعالى ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾، فكما أن ثمة أشهراً معلومات هي الأشهر

(١) هناك من يعتبر أن الأشهر الحرم هي أربعة أشهر متتالية لا انقطاع فيها.

الحرم، كذلك هناك أيام معلومات معروفة ومشهورات هي الأيام التسعة الأولى من شهر ذي الحجة وآخرها يوم الوقوف بعرفة<sup>(١)</sup>. ولا يطعن في معلوميتها وشهرتها أنها لم تذكر بالنص في التنزيل الحكيم، فهي الموسم السنوي الأبرز عند أهل شبه الجزيرة العربية، وفيها كانت قريش تمارس دور المضيف في رفاة الحجاج وسقايتهم منذ عهد إبراهيم، بدليل أن الإشارة إلى هذه الأيام المعلومات وردت في سياق خطابه تعالى لإبراهيم ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ \* لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِيَ آيَاتٍ مَّعْلُومَاتٍ...﴾ (الحج ٢٧-٢٨) أي إن الأيام المعلومات بدأت منذ إبراهيم.

ثمة أيام معدودات تأتي في الترتيب القرآني بعد الأيام المعلومات هي التي تبدأ بالوقوف بمزدلفة وتنتهي بطواف الإفاضة، وهي التي لا إثم على الحاج إن تعجل بأداء ما بقي عليه من مناسك في يومين، ولا إثم عليه إن تأخر، حسب النص الحرفي لآية البقرة ٢٠٣، التي قد تكون في أي أيام من أيام الأشهر الحرم وليست حصراً في الأيام المعلومات كما سنبين ذلك لاحقاً.

تلك هي المصطلحات الزمانية التي وردت في كتاب الله تعالى حول الحج، نراها أشبه ما تكون بمرسوم تنظيمي، جاءت السنة الرسولية لتوضح عملياً ترتيب ما يجب أن يقوم به الحاج:

- ١ - الإحرام في الميقات، ولقد شرحنا مواقيت الإحرام سالفاً فلا نعيد.
- ٢ - دخول المسجد الحرام لطواف القدوم.
- ٣ - الانطلاق بعد صلاة الصبح من يوم التروية (الذي كان الثامن من ذي الحجة في حجة الرسول) إلى منى.
- ٤ - التوجه بعد صلاة الصبح من يوم عرفة (الذي كان التاسع من ذي الحجة

(١) وهذه الأيام لا علاقة لها إطلاقاً بقوله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ \* وَبِالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ \* وَبِالشَّمْسِ إِذَا ذُحْبَحَ \* وَبِالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ (الفجر ١-٣) حيث إن هذه الآيات من القرآن (النبوة)، والحج من الأحكام (الرسالة).

في حجة الرسول) إلى جبل عرفة للصلاة والدعاء والوقوف على الصخرات حتى المغيب.

٥ - التوجه بعد غروب الشمس من عرفة إلى مزدلفة حتى فجر يوم النحر.

٦ - جمع الحصى للرمي بعد صلاة الصبح في مزدلفة.

٧ - رمي الجمرات، وذبح الهدي، والحلق أو التقصير.

٨ - التوجه إلى مكة بعد الحلق للطواف والسعي.

إننا بالتأكيد لسنا بصدد ضبط أداء المناسك والشعائر في الحج، والرخص فيها، وأحكام مخالفة بعضها عمداً أو بغير عمد، وما يجب فيه التكفير بأضحية وما لا يجب فيه، لكننا نتساءل بحيرة: إن كانت هذه الأركان والأعمال لا تحتاج إلى أكثر من أيام معدودات، وإن كان الحج عملياً عند الرسول (ص) كما ورد في حديث رواه الحاكم في مستدركه وأحمد في مسنده عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي - إن صح - هو الوقوف بعرفة يوم التاسع من ذي الحجة، رغم أن هذا الحديث غير موجود في الصحيحين، فما المقصود من قوله تعالى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ (البقرة ١٩٧)؟ والجواب: إن الآية تتحدث عن الحج عموماً بنوعيه: الحج، والحج الأصغر أي العمرة<sup>(١)</sup> في الأشهر الحرم، أما تخصيص الحج بالوقوف بعرفة يوم التاسع من ذي الحجة فهو من القصص المحمدي، فسوضح ذلك بعد أن نبيّن أنواع القصد لبیت الله. حيث لدينا ثلاث حالات:

الحالة الأولى: الحج ويتم فيه أداء الشعائر في أي (أيام معدودات) من الأشهر الحرم، وفيه الوقوف بعرفات في أي يوم من أيام الأشهر الحرم لقوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ (البقرة ١٩٧)، ومنه المفرد وهو الحج فقط، وفيه القارن وهو إحرام العمرة والحج معاً، وفيه التمتع حيث يمكن أن تكون العمرة (الحج الأصغر) مع الحج.

(١) ما زال بيننا إلى اليوم من يخلط بين العمرة، أي الحج الأصغر، والزيارة وهي العمرة خارج الأشهر الحرم. وما زال البعض يزعم أن زيارة المسجد الحرام في رمضان هي عمرة تجزئ عن حجة، وهذا ليس عندنا بشيء.

الحالة الثانية: الحج الأصغر وهو ما نسميه العمرة مفردة في الأشهر الحرم.  
الحالة الثالثة: العمرة فقط وهي القدوم إلى البيت العتيق والطواف والسعي فيه في باقي الأشهر، فهي لا حج ولا حج أصغر، وإنما هي عمرة، حتى ولو كانت في رمضان.

وعندما نتأمل التنزيل الحكيم نجده يضع تسهيلات للمؤمنين في حياتهم، وفي أدايتهم لكل الشعائر، فمثلاً نجده في رمضان يجعل رخصة الإفطار لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة ١٨٥)، ولكن هذا التيسير لا نراه موجوداً في الحج، مع أنه بيّن في الآية السالفة الذكر الخاصة بالصوم عند تقديم الرخصة أن الغرض منها هو التسهيل على الناس في قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، فهل التيسير موجود في الصيام دون الحج؟ طبعاً لا فالتيسير في هذه الآية مقصود به التسهيل على الناس في كل الشعائر وفي كل نواحي حياتهم، لأن هذه هي الغاية من الدين لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة ٢٨٦)، لهذا طلب الله من الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً... لكن النبي (ص) حج في الأيام العشرة من ذي الحجة، وصار المؤمنون بعده من أمته يحجون في هذه الأيام حصراً، ما جعل الزحام شديداً في موسم الحج المتعارف عليه إلى يومنا هذا، حتى صار أداء مناسك الحج عسيراً جداً على الحجاج، لتوافدهم جميعاً على نفس المكان لأداء نفس المناسك في نفس الوقت، ونحن نتساءل عما سيؤول إليه الوضع في العهود والقرون المقبلة رغم التوسعات التي تقوم بها السلطات السعودية والإجراءات التي تتخذ سنوياً للحد من هذه المعاناة التي ستظل قائمة وستزداد مع الأعوام، إذا لم نتمكن من إيجاد حل عملي يتوافق مع المقصود الإلهي في التيسير على الناس؟

ولو راجعنا كتب الروايات وكتب الفقه لوجدناها تحرص وتؤكد على الحج في هذه الأيام المعلومات فقط، فالوضع إلى ما آل إليه اليوم من زحام

ومعاناة، كما نجد ذلك في التفسير الكبير للفخر الرازي (ج ٥ ص ١٥١) في قوله: «اعلم أن أهل الجاهلية كانوا قد غيروا مناسك الحج عن سنة إبراهيم (ع)»، وهذا صحيح لأن الحمس من قريش، وهم جماعة من المتشددين كانوا لا يقفون في عرفة، وآخرون من أصحاب التجارات كانوا يؤخرون حرمة شهر إلى شهر آخر ليست له تلك الحرمة حرصاً على مرابحهم وتجاراتهم، فقال فيهم تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُكَ فِي الْكَفْرِ يَضِلُّ بِهَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُكْرِمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطِقُوا عِبَادَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ...﴾ (التوبة ٣٧). والمتأمل في البعثة المحمدية يجد أنها جاءت عموماً لتعيد إلى السنة الإبراهيمية أصلها الأول دون تحريف، وأن الوحي الإلهي نزل على قلب النبي العربي (ص) يأمره باتباع ملة إبراهيم بدلالة قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل ١٢٤)، ويأمره مع أصحابه المؤمنين به بالتأسي بإبراهيم في منهجه الاستقرائي الذي جعله الله بفضل إماماً للناس بدلالة قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ...﴾ (الممتحنة ٤). ومن هنا إبراهيم عندنا ليس «أبا الضيفان» و«أبا الأنبياء» كما يقول التراث، وليس «أبا الإسلام» كما يقول التنزيل الحكيم فحسب، بل هو «أبو الهجرة إلى الله» و«أبو المنهج التجريبي» و«أبو الحنيفية» و«أبو الصلاة والحج» أيضاً.

لكن ألا يبدو هذا الكلام متناقضاً مع ما جاء في التنزيل أيضاً بخصوص الحج، فكيف يطلب منه الله عز وجل من جهة اتباع ملة إبراهيم في الحج في الأيام المعلومات فقط كما فهم الفقهاء التراثيون ذلك لما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ \* لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ﴾ (الحج ٢٧-٢٨)، ثم يفسح له من جهة أخرى، مجال الحج إلى أربعة أشهر في قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ (البقرة ١٩٧)، ألا يبدو التناقض صارخاً بين الحالتين؟

لإزالة هذا التناقض، يجب علينا مقارنة قوله تعالى في الحالتين بالتطرق إلى آيتي الحج ٢٧ و ٢٨ بالتوضيح والشرح.

- الأذان هو الإعلام والإبلاغ والدعوة، وكلمة (وأذن) فعل أمر مجزوم على الطلب. والأمر هنا هو الله تعالى والمأمور هو الرسول (ص) باتباع سنة إبراهيم في الحج في أيام معلومات، وأما من زعم أن نزول الآية هو ابتداء فرض الحج من الله تعالى للرسول (ص) حسب تعبير الرازي في تفسيره فهو عندنا زعم لأنه إما صاحبه يجهل أو ينكر بكل وقاحة وجود طائفين وعاكفين وركع سجود في البيت العتيق المحرم قبل العصر النبوي، بل هو أمر فيه طلب إحياء سنة إبراهيم.

- المعني بالدعوة إلى الحج في الآية هم الناس. فمن هم هؤلاء الناس؟

ولماذا اتسع التكليف بهذا الركن الخامس بالذات حتى شمل جميع الناس؟

- النون والألف والسين اسم جنس بصيغة الجمع مفردة إنسان، وأصله: إنس وأناس وأناسي، وردت جميعها في ٣٢٩ موضعاً من التنزيل الحكيم. إلا أن أهل اللسان انقسموا في دلالتها إلى ثلاثة أقسام: أما أهل القسم الأول فاعتبروا أن الإنسان مشتق من النسيان وإنما سُمي الإنسان إنساناً لأنه عاهد فنسي، بدلالة قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (طه ١١٥).

يقول أبو الفتح البستي في هذا المعنى:

يا أكثر الناس إحساناً إلى الناس      وأكثر الناس إفضالاً على الناس  
نسيْتُ عهدك والنسيان مغتفر      فاغفر فأول ناس أول الناس

وأما أهل القسم الثاني فاعتبروا أن الإنسان مشتق من الأنس وهو نقيض الوحشة والنفور، ذكره تعالى بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا...﴾ (النور ٢٧). ومن هذا المعنى ميزوا بين الحيوانات البرية والحيوانات المستأنسة، وبهذا المعنى قال الشاعر الناقم على صحبة الناس:

عوى الذئب فاستأنستُ بالذئب إذ عوى  
وصوَّتَ إنسان فكدت أطيّرُ



وأما أهل القسم الثالث فاعتبروا أن الإنسان مشتق من الموانسة وهي الرؤية المقرونة بارتياح وطمأنينة، بدلالة قول موسى لقومه ﴿... إِنِّي ءَاسَْتُ نَارًا لَّعَلِّي ءَايِكُمْ مِّنْهَا يَقْبَسُ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ (طه ١٠). ومن هنا سمي الإنسان إنساناً لإمكان رؤيته وسمي الجن جنّاً لاختفائه.

أما عندنا، فهذه التعاريف للناس والإنسان - رغم صحتها - لا تفيدنا في فهم آية الحج ٢٧، إن لم ننتبه إلى جملة من العلوم والمعارف استقرت أسسها في العصور الحديثة لم يكن أهل التراث يعرفون عنها شيئاً في زمانهم، كعلوم الاجتماع والإحصاء التي تضع تعاريفها وتصانيفها في ضوء علم حديث فرعي هو علم المجموعات والزمر والعناصر.

إننا نفهم بفضل هذه العلوم اليوم لماذا لا نجد في كتاب الله تعالى عبارة من مثل «يا أيها الخلق» أو من مثل «يا أيها البشر»، والجواب: لأن الخطاب بالأصل لا يكون إلا للعاقل. والخلق اسم عام لمجموعة كبرى تضم الحيوان والنبات والجماد وهذه لا يجوز عقلاً توجيه الخطاب إليها<sup>(١)</sup>. والبشر اسم عام لمجموعة أصغر تفرعت من مجموعة الخلق تضم بشراً يدبون على أربع ثم على اثنتين لم تصلهم نفخة الروح الإلهية بعد، أي ليس لديهم عقل ولا لب، وهؤلاء أيضاً لا يجوز عقلاً توجيه الخطاب إليهم.

أما الناس فهم البشر العقلاء بعد نفخة الروح:

(١) قد يصبح بنا مستنكر: فأين أنت من قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَسْرَجْنَا فِيهَا النَّمْلَ وَفِيهَا فَهٌوَ يَكُونُ لِلنَّمْلِ مَذْجًا﴾ (النمل ١٨)؟ نقول: الخطاب هنا لسان حال وليس لسان مقال، والقول هنا على وجه المجاز لا على وجه الحقيقة، وإلا لزم أن يكون للأرض أذن ولسان وفؤاد، وهذا لا يقول به عاقل.

## الناس

رجالاً - ركبناً

رجال - نساء



أمم - قبائل - شعوب

إن النظر في الشكل السابق يعين على فهم جملة من آيات التنزيل الحكيم، منها قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...﴾ (الحجرات ١٣). الذي يوضح كيف تتوالد المجموعات وتتفرع من مجموعة كبرى هي الخلق وتتألف من عنصرين أساسيين هما الذكر والأنثى موجودين تكوينياً في كل أنواع الخلق من حيوان ونبات، الغاية منهما التكاثر للحفاظ على النوع. ويبين أن الميل البشري للعيش في مجتمعات (أمم وأقوام، قبائل وشعوب) هو أيضاً ميل فطري هدفه التعارف والعيش المشترك.

والتأمل في الشكل السابق يساعد على فهم قوله تعالى ﴿... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا...﴾ (آل عمران ٩٧)، الذي يبين أن حج بيت الله الحرام، سواء أكان حجاً أم عمرة في الأشهر الحرم (حج أصغر) أو عمرة زيارة في بقية الأشهر، وسواء أكان التوجه فيه حقيقياً مشخفاً في الحج أم مجازياً مجرداً كما في الصلاة، هو تكليف إلهي للعقلاء من الخلق، أي الناس. تماماً كما يساعد على فهم آية الحج ٢٧ التي نحن بصدددها وخصوصاً قوله تعالى ﴿... يَا تَوَكُّلْ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾. فقوله (رجالاً) يشير إلى أمرين: الأول أن الآتين هم من الذكور العاقلين البالغين الراشدين، والثاني أنهم يأتونك راجلين. وقوله (يأتين) أيضاً إلى أمرين: الأول أن الآيات هن من الإناث العاقلات البالغات الراشدات بدلالة نون النسوة، والثاني أنهن يأتين راكبات على الدواب المخصصة للركوب من جمال وبغال

وحمير وخيول أهزلها السفر بدلالة قوله (وعلى كل ضامر). علماً بأن الرجال فيهم الذكور والإناث، والنساء فيهم الذكور والإناث، ونفهم ذلك حسب سياق الآية: إما رجال فيهم ذكور وإناث، أو رجال هم أزواج النساء. وكل من لم يستطع أن يطوف ويسعى مترجلاً ذكراً كان أو أنثى فقد سقط عنه الحج لسبب صحي، أي فقد الاستطاعة الجسدية.

إننا في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وقد طحنتنا الحروب الساخنة والحروب الباردة، ومزقتنا الصراعات الدموية الدينية والطائفية والمذهبية والعرقية، نودع عشرين قرناً انقضت على مولد السيد المسيح (ع) وأربعة عشر قرناً ونيفاً على مولد النبي العربي محمد (ص)، غارقين في أمواج العصبية العرقية والعشائرية والقومية، يصيبنا الذهول ونحن نفتح كتاب الله تعالى لنقرأ قصة رسول اسمه إبراهيم عاش قبل ستين قرناً من الآن على الأقل، في عصر يطبعه التشخيص والتجسيد في الفكر والطغيان والاستبداد في الحكم، يبحث عن ربه بين الكواكب والنجوم، ويفتش عن بيت ربه المحرم بين الجبال والأودية ثم يجدهما بعد رحلتين طويلتين أولاهما رحلة نظر والثانية رحلة سفر، ويقف بعدهما يدعو إلى عبادة إله واحد أحد، إله مجرد لا يرى ولا يلمس ولا يُشم، ويدعو للتوجه إليه في بيت محرم بوادٍ غير ذي زرع عند بلدة شحيحة بالثمر والشجر هي بكة. ولا يخرج في هذا كله - من حيث الشكل العام - عما دعا إليه الرسل والأنبياء الذين سبقوه وأولهم نوح، والذين جاؤوا بعده وخاتمهم محمد (ص). المذهل أن هؤلاء جميعاً جاؤوا لأهلهم وعشيرتهم وقومهم إلا إبراهيم الذي استهدف في دعوته «الناس» لأول مرة في تاريخ الرسل والأنبياء لقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...﴾ (البقرة ١٢٤). بعبارة أخرى: المذهل عند إبراهيم هو تلك النكهة الأُممية الإنسانية السابقة لعصرها التي لا نجد لها مثيلاً إلا عند حفيده محمد بن عبد الله (ص) في قوله تعالى عنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء ١٠٧)، وفي قوله عن نفسه ﴿...يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...﴾

(الأعراف ١٥٨)، وكذلك في الآيتين محل الشرح ٢٧ و ٢٨ من سورة الحج في قوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ \* لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَنَّمَا أَلَّاهُ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ...﴾. والمتأمل للآيتين يدرك أنهما تتضمنان أمراً للرسول (ص) بالأذان للحج، لأنه طلب منه أن يدعو الناس إلى الحج في «أيام معلومات»، وهذه الأيام معلومات كما ورد ذكرها في الآية كانت معروفة قبل البعثة لهذا قال له: (في أيام معلومات)، وهي التي كان يحج فيها الناس على عهد إبراهيم كما رأينا. وهذا يبين أن الأمر الوارد في الآيتين لم يكن من الممكن أبداً أن يكون المقصود به هو إبراهيم في أي حال من الأحوال، لأنه في هذه الحالة ستصبح معرفة (الأيام المعلومات) مبهمة، لأن الآية تدعو إلى الحج في أيام معلومات حيث كانت هذه الأيام معروفة قبل إبراهيم لو كان الأمر في آية الأذان موجهاً له؟

وهذا يبين، دون أن يدع مجالاً للشك، أن الأمر صدر للنبي (ص) لأنه هنا يتحدث عن الأيام المعلومات التي كانت معروفة قبله أي على عهد إبراهيم، ثم طلب الله منه إتباعه بالأذان في الناس بالحج في هذه الأيام، فعلى هذا النحو فقط يستقيم معنى الآيتين، وما يؤكد أيضاً أن الأمر بالأذان في الناس موجه إلى الرسول (ص) ما جاء في قوله في سورة الحج نفسها في الآيتين ٢٩ و ٣٠ أي بعد الآيتين ٢٧ و ٢٨ محل الدراسة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَرَبِيِّ \* ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.

إن هاتين الآيتين جاءتا بعد أن طلب من الرسول الأذان في الناس بالحج، لبيان ما على الحجاج من الناس تقديمه لله من أضحيات، بقوله: (وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم)، هذا الجزء من الآية هو الشاهد الذي نستدل به لبيان أن الأمر بالأذان جاء للرسول محمد (ص) لا لإبراهيم، لأن يبين لهم ما أحل

لهم من الأنعام لتقديمه كأضحية بأنها كلها حلال إلا ما حُرِّم بالنص في التنزيل الحكيم لهذا قال لهم: (إلا ما يتلى عليهم)، وكما هو معروف فإنه على عهد إبراهيم لم يكن قد ورد بعد التحليل والتحريم في الأطعمة، بل جاء ذلك في ما بعد على عهد بني إسرائيل مع موسى وعيسى ثم على عهد الرسول (ص) بعد ذلك، وهذا يبين أن الخطاب وجَّه له لا لغيره بالأذان للناس بالحج الوارد في الآية ٢٧ من سورة الحج.

لكن هنا يجب علينا الوقوف وفقة تأمل في الآيتين ٢٧ و ٢٨ من سورة الحج، ومعرفة ما إذا كان المقصود فيهما بالناس كل الناس إلى يوم الدين، أم فقط من كان في عهد الرسول (ص)؟ لمعرفة ذلك يجب علينا التنقيب أكثر في الآية ٢٧ لنذكر أن الخطاب في هذه الآية يخص فقط الناس على عهد الرسول (ص) أي ممن عاصره، لأن فعل (يأتوك) دليل ظرفية زمانية ومكانية، فهو فعل يستدعي وجود طرفين: الأول مستقبل والثاني قادم، ولو تأملنا كل آيات التنزيل الحكيم التي ورد فيها هذا الفعل على كثرتها لوجدناها تدخل في هذا المضممار، ونعرض بعضاً منها هنا للتدليل فقط:

- ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْفَاقِمِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (البقرة ٢١٠).

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة ٢٤٨).

- ﴿... قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة ٢٦٠).

- ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ (الأنعام ١٥٨).

- ﴿يَنْتَبِئْ آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكَ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكَ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأعراف ٣٥).
- ﴿... وَمَا آتَيْنَاكَمُ الرُّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْتَهُوْا وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر ٧).

عند تأمل هذه الآيات وغيرها كثير في التنزيل الحكيم، ندرك أنه عندما يرد فعل (يأتي) يستدعي ذلك وجود طرفين اثنين في الأمر: طرف قادم وطرف مستقبل له، وآية الحج ٢٧ التي طلب فيها الله من النبي (ص) أن يؤذن في الناس بالحج ليأتوه، إنما كانت نداءً لمن عاصروه، ولم تكن أمراً مطلقاً للناس إلى يوم الدين، فذلك غير معقول، إذ كيف يمكنهم أن يأتوه بعد وفاته؟ لكن مع الأسف هذا هو الفهم الخاطئ لدى أغلب الناس بتوجههم في الحج أو العمرة لزيارة قبر النبي (ص)، علماً بأن هذه الزيارة لا تدخل ضمن مناسك الحج أو العمرة، ولو كان الأمر من الله للناس بالقدوم للرسول في حياته معقولاً فإن الأمر بالقدوم إليه بعد مماته غير معقول ويتعارض مع التنزيل الحكيم في عدة مواضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (الزمر ٣٠)، إذ كيف يطلب الله من الناس القدوم على ميت؟ لذلك نرى أن هذه الآية من القصص المحمدي، ونزلت على النبي (ص) بأمر إلزامي ظرفي (زمانى- مكاني) بالأذان في الناس للقدوم إليه، في الأيام المعلومات التي كان يحج فيها الناس على عهد إبراهيم (ع)، ونرى أن الله طلب منه (ص) دعوة جميع الناس للحج في هذه الأيام المعلومات، دون أن يجعل الحج في هذه الأيام إلزاماً، ليبين أن الحج شعيرة إنسانية، وليس شعيرة خاصة بالأمة المحمدية فقط، حيث تم الأذان للناس جميعاً في الأيام التي كان يحج فيها الناس جميعاً على عهد إبراهيم. فكانت تلك دعوة عامة في الحجة الوحيدة التي حجها النبي (ص) في حياته، فكانت بمثابة موعد لتجمهر إنساني حافل، وحدث إنساني هز المنطقة يومها في الأيام العشرة الأولى من شهر ذي الحجة، وكان اجتماعاً ذا طابع سياسي لبيان شوكة الدولة الحديثة النشأة وقوتها لفرض هيبتها

على المستوى الخارجي، بالإضافة إلى كونه اجتماعاً دينياً شعائرياً، كما نرى أنه كان كذلك موعداً لختم الرسالة المحمدية بدليل خطبة الوداع التي تناقلها التراث دون أن يعطيها حقها في التحليل لبيان عالمية الرسالة المحمدية لأنه رسول الله إلى الناس جميعاً، فكان منطقياً أن يدعوهم جميعاً ليقیم عليهم الحجة بأنه قد أبلغهم رسالته لأن الأذان هو الإبلاغ والإعلام، وما الفائدة من الأذان فيهم أي دعوتهم للحضور في هذا المحفل الإنساني لو لم يكن القصد منه تبليغهم رسالة معينة، فيصبح مصطلح (أذن) الوارد في الآية في غير محله، وحاشا لله أن يضع مفردة دون أن تكون ذات معنى دقيق تقصده، إذ لم لو يكن القصد بالأذان لإبلاغهم بشيء فما كانت الفائدة في تجميع الناس في تلك الأيام؟ وهذا ما يرجح عندنا فكرة أنه قد تم جمع الناس من الرسول (ص) يومها لإقامة الحجة عليهم في ختم الرسالة المحمدية، خاصة أن حجة الوداع تمت قبل ثلاثة أشهر من وفاته، لأنها كانت في شهر ذي الحجة سنة ١٠هـ ووفاته (ص) حسبما قدرها المؤرخون كانت في ربيع الأول من سنة ١١هـ، لهذا كان الإبلاغ موجهاً للناس جميعاً ولو كان مخصوصاً بالمؤمنين من أمته لكان قال له (وأذن في المؤمنين يأتوك)، ولأصبحت رسالته محلية لقومه فقط، ولكن بما أنه خاتم الأنبياء والمرسلين ورسالته جاءت عالمية فكان الأجدر أن يتم ختمها عالمياً أيضاً، واختيرت هذه الأيام لأنها الأيام التي كانت تحج فيها كل الملل منذ عهد إبراهيم إلى عهد الرسول حيث حُدد هذا اللقاء الإنساني الهام فيها للإبلاغ عن ختم الوحي في هذه الأيام المعلومات دون إلزام بأن يكون الحج فيها دون غيرها لأن الآيتين ٢٧ و ٢٨ من سورة الحج هما من القصص المحمدي، وهي للعبارة وليس فيها أي إلزام تشريعي أو شعائري بحصر أداء مناسك الحج في الأيام العشرة الأولى من شهر ذي الحجة، ولا يمكن أن يكون ذلك لأن نفس الذي أمر بالأذان في الناس للحج في هذه الأيام وهو الله تعالى، هو نفسه الذي جعل مجاله مفتوحاً وممتداً لأربعة أشهر هي الأشهر الحرم لقوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۚ...﴾

(البقرة ١٩٧)، ولا يمكن أن يناقض نفسه في كلامه، تعالى الله وتنزه عن ذلك، لهذا فالحج كشعيرة يمكن أن يكون في أي أيام معدودات من الأشهر الأربعة الحرم كما بيّناه، أي إن أي يوم من الأشهر الحرم يمكن أن يكون يوم عرفة، وأي يوم من الأشهر الحرم يمكن أن يكون يوم النحر، كذلك أيام التشريق. وطبقاً للتاريخ الهجري الحالي فإن الأشهر الحرم وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم تأتي متتالية، وشهر منفرد وحده هو الشهر السابع رجب.

وليتضح الأمر أكثر علينا أن نتطرق بالشرح والتحليل إلى أذان آخر ورد في التنزيل الحكيم في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ حَيْثُ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزٌ لِلَّهِ وَلَيَشْرَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (التوبة ٣)، بتوضيح المعنى الصحيح منه. ففي هذه الآية ورد أذان من الله ورسوله إلى الناس جميعاً ببراءتهما من المشركين، وبناءً على ذلك فإن هذا الأذان يعد بمثابة مرسوم يتضمن الإعلان الرسمي للمشركين، وجاء هذا الإعلان في (يوم الحج الأكبر)، الذي ترجعه كتب التراث إلى اليوم العاشر من ذي الحجة والذي يسمّى عندهم يوم النحر، ونحن لا ندري من أين جاؤوا بهذا المعنى الذي يتناقض تماماً مع معنى الآية ومع سياق السورة التي وردت فيها ألا وهي سورة التوبة التي هي من القصص المحمدي وأحادية الموضوع، حيث تناولت موضوع القتال حصراً، كما بيّنا ذلك في كتابنا الأول<sup>(١)</sup>، ولا علاقة لها بالحج كشعيرة، بل هو يتحدث في هذه الآية عن القدوم والقصد للقتال لا لأداء مناسك الحج، فالآية تتوجه بالخطاب إلى الناس في بلاغ رسمي من الله ورسوله ببراءتهما من المشركين، ولو كانت الآية تتحدث عن الحج كشعيرة وعن الوقوف بعرفة كما سمّاه الفقهاء

(١) تم التطرق لموضوع سورة التوبة، وكونها من القصص المحمدي وأحادية الموضوع الذي هو موضوع القتال في النسخة المنقحة التي نُشرت أخيراً (سنة ٢٠١١) بعنوان الكتاب والقرآن رؤية جديدة.



الحج الأكبر، فما علاقة ذلك بالقتال والحرب، ويعطيهم فرصة لمراجعة أنفسهم بالتوبة والإنابة إلى الله، أما من استمر في عناده وأصر على القتال فهو يبشره بعذاب أليم، كما جاء في الآية التي وردت بعدها وهي مرتبطة بها ولا يمكن فصلهما إطلاقاً وهي قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لِقَابَ إِلَهُكُمْ إِنَّ إِلَهُكُمْ يَوْمَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة ٤). فهذه الآية تبين أن التي قبلها إنما جاءت في يوم اللقاء للقتال الذي وقع في غزوة تبوك، حيث وقعت هذه الغزوة في شهر رجب من السنة ٩ هـ وهو شهر من الأشهر الحرم، لهذا جاء في الآية ٤ من سورة التوبة قوله: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُواهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة ٥). فسورة التوبة سورة تناولت موضوع القتال، وسمى الله يوم اللقاء للقتال بالحج الأكبر لأنه وقع في أحد الأشهر الحرم التي يقصد فيها الناس بيت الله للعبادة والإنابة، ولكن في هذه المرة كان توجه المؤمنين في هذا الشهر الحرام لغاية أعظم هي القتال في سبيله، وليلاحظ القارئ الكريم هذه المقاربة الخطيرة التي وردت في هذه التسمية (الحج الأكبر)، ففي الحج تقدم الأضحيات قرباناً لله، أما في هذا اليوم فقد قدم المؤمنون أنفسهم قرباناً لله بالقتال في سبيله، وتلك أكبر تضحية يقدمها الإنسان، لهذا سماها الله (يوم الحج الأكبر)، وقد حدث مرة واحدة في عهد الرسول وكان في غزوة تبوك ولا يمكن تكراره أبداً لأنه حدث تاريخي، والعبرة المأخوذة منه هي أن الذين خرجوا في الشوارع متحدين آلة القمع عراة الصدور هم من قاموا بالحج الأكبر في أيامنا وإلى أن تقوم الساعة. وعلى هذا الأساس فتسمية يوم الوقوف بعرفة «حجاً أكبر» تسمية خاطئة وتظهر إلى أي مدى لم يتمكن التراث من الغور في أعماق التنزيل الحكيم وفهمه دون تناقض، لأن هذه التسمية خاصة بيوم القتال في غزوة تبوك، أما الحج كشعيرة فيمكن أداؤه في الأشهر الأربعة الحرم دون تفضيل أيام على

أيام، لأنه كما جرت فيه التوسعة في المكان جرت فيه التوسعة في الزمان أيضاً ممتداً إلى أربعة أشهر، في أيام معدودات خلال هذه الأشهر، لا في أيام معلومات كما جاء في التراث، ولا يمكن التيسير على الناس خلال أدائهم مناسك الحج إلا بالتوجه للقراءة المعاصرة للحج، لأن الإسلام دين يسر لا دين عسر، لكن الفقه هو الذي حصره في خريطة شبه الجزيرة العربية، وجعله محلياً، وخلط بين الشعائر والتشريعات الإلهية، وبين القصص المحمدي والمرويات الظرفية، فضيقوا على الناس دينهم وجعلوه عسيراً عليهم، حتى أصبح الحاج عند توجهه إلى الحج يذهب بنية اللاعودة لشدة الزحام والمشقة التي يدرك مسبقاً أنه ملاقيها للاكتظاظ الشديد للملايين من الناس في ذات الأمكنة وذات الأزمنة، فهل هذا هو دين التيسير؟ وكيف يفرض الله على الناس أمراً يعجزون عن القيام به؟ الدين الإسلامي بريء من ذلك، والله ورسوله بريثان من ذلك كبراءتهما من المشركين، فمتى نستفيق من غفلة اتباع الفقه الموروث دون إعادة دراسة تنقيحية له في ظل التنزيل الحكيم؟

إن الإسلام دين إنساني عالمي، دعوة جاء بها إبراهيم (ع) لأول مرة، وختمها محمد (ص) آخر مرة في محفل إنساني ضخم يشهد له التاريخ. وما دمنا مع قصة إبراهيم فلنرجع إليها لتساءل باستغراب متزايد:

- أين ولماذا اختفى ذلك الوهج الإنساني في رسالة إبراهيم؟ ولماذا عادت رسالتا موسى وعيسى لتحصرا في فئة بعينها من الناس هي بنو إسرائيل؟

- ولماذا تراجع التجريد الذي بدأ بإبراهيم ليفسح الطريق أمام تشخيص تجسدي نجد معه قوم موسى لا يؤمنون حتى يروا الله جهرة؟ ونجد معه حوارتي عيسى لا يطمنون في إيمانهم إلا إذا نزل الله عليهم مائدة من السماء؟

- متى بدأ تحوّل الناس عن بيت الله المحرم في توجههم وتوبتهم واستغفارهم وقرابينهم إلى أمكنة أخرى؟ ومتى بدأوا يشركون مع الكعبة معالم أخرى - شاعت بين العوام - يزعمون أن الحج لا يتم إلا بها.

وبما أن الحديث عن الحج وعن المسجد الحرام، وعن بيان أنه شعيرة إنسانية، وليس خاصاً بالأمة المحمدية فقط، فكما أن للأمة الأخرى طرق صوم وصلاة خاصة بهم ومختلفة عن طريقة صوم وصلاة الأمة المحمدية، فللأمة الأخرى كذلك مناسك حج خاصة بهم تختلف عن مناسك المؤمنين من أمة محمد، لهذا قال الله عز وجل في محكم تنزيله: (ولكل أمة جعلنا منسكاً ليعلموا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهمكم إليه واحد فله أسلموا وبشر المخبتين) الحج ٣٤. وبما أن الحج كشعيرة يُقصد لأدائها بيت الله الحرام، فلهذا جعل الأذان والدعوة لأدائه للناس جميعاً لا للأمة المحمدية فقط، على أن يقدم كل القربان حسبما تدعوه إليه ملته مع توحيد لله في ذلك وعدم الشرك به، لأن الدين الإسلامي عالمي، وهنا يجب علينا الوقوف عند قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّكَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة ٢٨).

هذه الآية جاءت في سورة التوبة، وقد اعتمد عليها كمرجع لمنع كل أهل الأرض، ما عدا أتباع الرسالة المحمدية، من دخول مكة ومنطقة الحرم على أساس أنهم نجس، فهل هذا منطق مقبول؟ هل يعقل أن يكون ٨٠٪ من سكان الأرض نجساً والباقي ناساً وهم أتباع الرسالة المحمدية ويمثلون نسبة ٢٠٪ من سكان الأرض؟؟؟

يجب أن نضع النقاط على الحروف بالنسبة لهذه الآية الواردة في سورة التوبة كما يلي:

قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّكَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة ٢٨).

الشرك ليس صفة لصيقة بصاحبها على الدوام بل هي حالة اعتقادية فقط

بالنسبة للشرك وقد تتحول إلى حالة سلوكية تسمى الكفر في حال التعبير عنها بالمقال أو الفعل، وبالتالي فإن كلتا هاتين الصفتين متغيرة إذا تغير الموقف الاعتقادي للإنسان، فقد يكون الإنسان مشركاً أو كافراً ثم يتحول إلى التوحيد فتنتفي عنه صفة الشرك أو الكفر، كما أن مفهوم الشرك كما رأينا ليس ثابتاً لأن المشركين على عهد الرسول كانوا عبدة الأصنام، أما في عصرنا فهذه الظاهرة ليست منتشرة، وذلك لأن تطوّر الوعي الإنساني مكن الإنسانية من الانتقال تدريجاً من عبادة الأصنام والتقرب إلى الله بواسطتها إلى مرحلة التجريد (توحيد الله الذي ليس كمثله شيء)، لذا فإن هذه الصفة سارت إلى طريق الانقراض على نحو واسع، وهذا ما يستوجب علينا نحن كأمة محمدية عدم إلصاق تهمة الشرك والكفر بالغير من أهل الملل الأخرى جزافاً لأن الله وحده فقط يعلم بالسرائر وما تخفي الأنفس، وبالتالي يحسن بنا التنزه عن نعت كل أهل الملل الدينية الأخرى بهذه الصفة وتركيب أحكام شرعية بناءً عليها عن طريق التقول على الله.

ولتوضيح هذه المسألة علينا إعادة قراءة الآية ٢٨ من سورة التوبة قراءة معاصرة، الواردة في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة ٢٨)، التي يعتمد عليها الفقهاء في إلصاق صفة الشرك بكل من هم ليسوا أتباعاً للرسالة المحمدية بمن فيهم أهل الكتاب، والحكم عليهم بناءً على ذلك بالنجاسة، وتحريم دخول منطقة المسجد الحرام عليهم، وفي ذلك تقول على الله بغير علم، خاصة أن هؤلاء يمثلون حوالي ٨٠٪ من سكان المعمورة، علماً بأن التنزيل الحكيم قد فرق بين أهل الكتاب والمشركين في قوله تعالى: ﴿لَوْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (البينة ١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة ٦). وهنا (الذين كفروا من أهل الكتاب) هم من اتخذ موقفاً عدائياً علنياً

ضد الدعوة المحمدية وهم في هذه الحالة اليهود لذا قال (من أهل الكتاب) وليس كل أهل الكتاب.

ولذلك فالأجدر بنا أن نشرح ما جاء في هذه الآية من خلال السورة التي جاءت فيها لإزالة الغموض واللبس الحاصلين حولها.

سورة التوبة كما ذكرنا سابقاً من القصص المحمدي، وهو عبارة عن حدث تاريخي صار قرآنًا بعد حدوثه لا قبله، لذا فإن هذه السورة لا علاقة لها بالإنزال الذي حدث في ليلة القدر، لأنها كانت أخباراً بالنسبة لأهلها أما بالنسبة لنا فقد صارت أنباءً، ومن هذا المنطلق فهي ليست من الرسالة ولا تحمل أي أحكام تشريعية، والطريقة العلمية المثلى لإعادة قراءة هذه السورة هي النظر إليها نظرة تاريخية كباقي القصص القرآني لاستخلاص العبر منها فقط لا لاستنتاج أحكام تشريعية، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن هذه السورة تحديداً قد وصفها الله عز وجل بالسورة المحكمة أي السورة الأحادية الموضوع، وموضوعها جاء خاصاً بالقتال والقضايا المتعلقة به حصراً، وبالتالي لا يمكن أن نفهم الآية محل الدراسة إلا من خلال سورتها لوحدة موضوعها. فالآية تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فهل المقصود بهم كل المؤمنين من أمة محمد عبر كل العصور المتعاقبة كما يظن الفقهاء؟ طبعاً لا، لأنه يقصد بهم المؤمنون الذين عاصروا النبي في الفترة التي نزلت فيها هذه السورة، لذا فإن الخطاب موجه إلى فئة معينة ومخصوصة تاريخياً وهم أتباع محمد في تلك الحقبة الزمنية، ويتج عن ذلك أن قوله في الآية ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، لا يقصد به مشركو كل الأزمنة والعصور كما يظن الفقهاء، بل يقصد به الفئة الثانية المقابلة لفئة أتباع الرسول في تلك الفترة والتي أبدت عداً للرسول ومن معه، وهنا يتضح لنا الأمر بأننا بصدد حادثة تاريخية معينة لا يمكن إسقاطها على كل الأزمنة لأن طرفي المسألة فيها معنيان تحديداً، وما يوضح ذلك بما لا يقبل الشك بداية سورة التوبة في قوله تعالى ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة ١)، فهذه الآية تبين أن صراعاً سياسياً كان بين فئتين بينهما عهد نقض بواسطة هذه الآية، أي إن الأمر

يتعلق بصراع سياسي وفق مفهوم السلم والحرب الذي كان سائداً يومها، أما بخصوص قوله بأنهم (نجس) فهذه المفردة ذكرت مرة واحدة في التنزيل الحكيم وفي هذه الآية فقط، والنجس في اللغة العربية أصل صحيح يدل على خلاف الطهارة كما جاء في معجم مقاييس اللغة، وقد اختلف المفسرون والفقهاء حول معنى صفة النجس التي ألصقت بهؤلاء المشركين فذهب البعض منهم إلى أن نجاستهم حسية وذهب البعض الآخر إلى أن نجاستهم معنوية. ونحن نرى أنها معنوية في قوله ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، وقد بينا أن المشركين في سورة التوبة هم الذين عاصروا الرسول وأتباعه في حقبة زمنية معينة، وبما أن مفردة (النجس)، وهي النجاسة المعنوية المقابلة للطهارة المعنوية ومتعلقة بالشرك، فهذه النجاسة هي التي تخرج من الفم (أي النطق) والتي تتمثل في جعل شريك لله عز وجل عن ذلك. وهذا النطق الذي كان سائداً عند المشركين هو تلبية الحج، والذي هو (لييك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك، إلا شريك لك ملكته وما ملك)، ولاحظ قوله تعالى ﴿... كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (الكهف ٥).

ونجد أن التصحيح الذي قام به المسيح في مفهوم النجاسة كان واضحاً في نقاش دار بينه وبين تلامذته، لما جاءه الكتبة والفريسيون يحتجون على كون أتباعه لا يغسلون أيديهم حينما يأكلون خبزاً (حِينَئِذٍ جَاءَ إِلَى يَسُوعَ كَتَبَةٌ وَقَرَّيْسِيُّونَ الَّذِينَ مِنْ أُورُشَلِيمَ قَائِلِينَ: «لِمَاذَا يَتَعَدَّى تَلَامِيذُكَ تَقْلِيدَ الشُّيُخِ فَإِنَّهُمْ لَا يَغْسِلُونَ أَيْدِيَهُمْ حِينَمَا يَأْكُلُونَ خُبْزًا؟» فَأَجَابَ: «وَأَنْتُمْ أَيْضاً لِمَاذَا تَتَعَدُّونَ وَصِيَّةَ اللَّهِ بِسَبَبِ تَقْلِيدِكُمْ؟ فَإِنَّ اللَّهَ أَوْصَى قَائِلًا: أَكْرِمِ أَبَاكَ وَأُمَّكَ وَمَنْ يَشْتُمِ أَبًا أَوْ أُمًّا فَلْيَمُتْ مَوْتًا. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَقُولُونَ: مَنْ قَالَ لِأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ: قُرْبَانٌ هُوَ الَّذِي نَتَنَفَعُ بِهِ مِنِّي. فَلَا يُكْرِمُ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ. فَقَدْ أَبْطَلْتُمْ وَصِيَّةَ اللَّهِ بِسَبَبِ تَقْلِيدِكُمْ! يَا مُرَاوُونَ! حَسَنًا تَنَبَّأَ عَنْكُمْ إِشْعِيَاءُ قَائِلًا: يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ هَذَا الشَّعْبُ بِفِيهِ وَيُكْرِمُنِي بِشَفَتَيْهِ وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُبْتَغِدٌ عَنِّي بَعِيداً. وَبَاطِلاً يَعْبُدُونَنِي وَهُمْ يُعَلِّمُونَ تَعَالِيمَ هِيَ وَصَايَا النَّاسِ». ثُمَّ دَعَا

الْجَمْعَ وَقَالَ لَهُمْ: «اسْمَعُوا وَافْهَمُوا. لَيْسَ مَا يَدْخُلُ الْفَمَ يُنْجَسُ الْإِنْسَانُ بَلْ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْفَمِ هَذَا يُنْجَسُ الْإِنْسَانُ». حِينَئِذٍ تَقَدَّمَ تَلَامِيذُهُ وَقَالُوا لَهُ: «أَتَعْلَمُ أَنَّ الْفَرِيسِيِّينَ لَمَّا سَمِعُوا الْقَوْلَ نَفَرُوا؟» فَأَجَابَ: «كُلُّ غَرَسٍ لَمْ يَغْرِسْهُ أَبِي السَّمَاوِيِّ يُقْلَعُ. أُتْرِكُوهُمْ. هُمْ عُمَيَّانَ قَادَةُ عُمَيَّانٍ. وَإِنْ كَانَ أَعْمَى يَقُودُ أَعْمَى يَسْقُطَانِ كِلَاهُمَا فِي حُفْرَةٍ». فَقَالَ بَطْرُسُ لَهُ: «فَسَرُّ لَنَا هَذَا الْمَثَلِ». فَقَالَ يَسُوعُ: «هَلْ أَنْتُمْ أَيْضاً حَتَّى الْآنَ غَيْرَ فَاهِمِينَ؟ أَلَا تَفْهَمُونَ بَعْدَ أَنْ كُلَّ مَا يَدْخُلُ الْفَمَ يَمْضِي إِلَى الْجَوْفِ وَيَنْدَفِعُ إِلَى الْمَخْرَجِ وَأَمَّا مَا يَخْرُجُ مِنَ الْفَمِ فَمِنَ الْقَلْبِ يَصْدُرُ وَذَلِكَ يُنْجَسُ الْإِنْسَانُ لِأَنَّ مِنَ الْقَلْبِ تَخْرُجُ أَفْكَارٌ شَرِّيرَةٌ: قَتْلُ زَنَى فَسْقٌ سِرْقَةٌ شَهَادَةٌ زُورٌ تَجْدِيفٌ. هَذِهِ هِيَ الَّتِي تُنْجَسُ الْإِنْسَانُ. وَأَمَّا الْأَكْلُ بِأَيْدٍ غَيْرِ مَغْسُولَةٍ فَلَا يُنْجَسُ الْإِنْسَانُ» (سفر متى ١٥ : ١-٢٠). أما الخلط لدى الفقهاء بين النجس والرجس والقول بأن لهما نفس المعنى فهذا هراء كقولهم عن الخمر بأنه نجس، ولكن واقع الأمر أن الخمر فيه رجس، ورجس الخمر هو السكر، ولا علاقة للنجس بذلك من قريب ولا من بعيد.

أما قوله تعالى في نفس السورة ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾، فقد فهمه الفقهاء على أنه تحريم أبدي، فالصقوا صفة الشرك على كل أهل الكتاب ومنعوه من الاقتراب من المسجد الحرام، وفي ذلك تقوُّلٌ على الله وتحريمٌ لما أحل، لأن التحريم إلهي أبدي شمولي، أما ما جاء في هذه الآية من سورة التوبة فهو منع أي إنسان يلبي تلبية فيها شرك حين دخول منطقة المسجد الحرام، وهذا الخطاب موجه للمؤمنين للتعامل مع هذه الفئة التي كانت موجودة فعلاً، وبعد فتح مكة انتهت بدون رجعة ولا علاقة لبقية سكان الأرض بهذا. فخطاب النهي في الآية ليس أزلياً بل ظرفي. وقد يحتج علينا الفقهاء بأن هذه الآية أبدية بدليل قوله (بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)، وقد يبدو كلامهم مقبولاً للوهلة الأولى لكن هناك آية أخرى في نفس السورة (سورة التوبة) تبين مفهوماً معاكساً لمفهوم الأبدية والإطلاق الذي قال به الفقهاء هو قوله تعالى ﴿أَوَّلًا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ

يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾، فالآية توجه الخطاب للمنافقين بأنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين حيث جاءت بعد قوله ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (١٢٥)، فهل نقول بأن حالة الافتتان التي كانوا يعيشونها أبدية؟ نقول في كل عام مرة أو مرتين إذا كان لها الطابع الأبدي، فأين الفتنة مرة أو مرتين في كل عام منذ نزول هذه السورة حتى يومنا هذا؟ وكان يجب أن يكون هناك ١٤٠٠ إلى ٢٨٠٠ فتنة حتى يومنا هذا. فهل من متطوع يخبرنا ما هي هذه الفتنة؟ لذا فهذه الآية تصف حالة معينة لأهل حقبة زمنية محددة هي عهد البعثة المحمدية فقط، وكذلك آية الجزية فهي من القصص المحمدي حدثت في شروط الجزيرة العربية في القرن السابع. علماً بأن الشروط الحالية في العالم لا تسمح بشيء اسمه الجزية ولا لزوم لها، وأن آية الجزية وغيرها في سورة التوبة هي تاريخ وليست تشريعاً.

وختاماً، يمكننا أن نستنتج أن الفقه المتوارث بكل فروعه في الشعائر أو العبادات كما يسميها الفقه، وفي التشريعات أو العادات، بحاجة لإعادة قراءة، حتى نعيد الاعتبار للدين الإسلامي، ونعيد له صفة العالمية التي أفقده إياها الفقه والفقهاء وعلى رأسهم الشافعي، سامحهم الله.





## الأوثان والأصنام والتماثيل

هذه الألفاظ الثلاثة مفردات قرآنية وردت في آيات من التنزيل الحكيم، وقد وردت ألفاظ الأصنام والتماثيل لأول مرة مع إبراهيم، لذا فقد وُضع هذا الفصل مع قصة إبراهيم.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الألفاظ الثلاثة ليست مترادفات كما يزعم القائلون بالترادف لأن في كل منها جانباً أو معنى لا يوجد في غيرها، كما سنرى حين نتناولها بالبحث شكلاً ومضموناً.

### - الأوثان

الواو والشاء والنون (و ث ن) حسب ما جاء في المعاجم اللغوية هو كل معبود مقدس مشخص سواء أكان تمثالاً صنعته اليد الإنسانية أم كان ظاهرة طبيعية كالرعد والبرق أم كوكباً من الكواكب كالشمس والقمر.

ورد هذا اللفظ ثلاث مرات في التنزيل الحكيم:

- ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت ١٧).

- ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ (العنكبوت ٢٥).

- ﴿... وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآنَظُمُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (الحج ٣٠).

ولفظ الوثن في اللسان العربي، اسم مذكر وقليلًا ما يؤنث مفردة ومثناه، أما جمعه فيعامل معاملة المؤنث. والوثن كما يقول ابن فارس (مقاييس اللغة ج ٦ ص ٨٥): حجارة كانت تعبد، وأصلها قولهم استوثن الشيء قوي وأوثن فلان الحمل كثره وأوثنت له أعطيته جزيلًا، ولا يوجد غير ذلك. ونرى أن الوثنية هي إعطاء الشيء صفات أكثر مما هي فيه.

والناظر في التاريخ يرى أن عبادة المعبودات من أبرز الظواهر وأكثرها وجودًا، ويلاحظ أنهم يطلقون عليها اسم «الوثنية»، ولم نسمع أن أحداً سماها الصنمية أو التمثالية. والوثن قد يكون قطعة حجر تلفت النظر بشكلها الطبيعي كما قال ابن فارس، ومثال ذلك مناة وهي صخرة ملساء كانت لهذيل وخزاعة. إلا أن الوثن قد يكون شجرة ومثال ذلك العزى وهي شجرة كانت لغطفان بعث النبي (ص) بخالد بن الوليد يوم الفتح فأحرقها. وقد يكون منحوتاً على نحو يشبه الآدمي ومثال ذلك اللات وهو صنم لقريش.

فإذا تأملنا آيتي العنكبوت ١٧ و ٢٥ وجدناه سبحانه يبين فيهما عدداً من الأمور:

١. الشرك وعبادة الأوثان لا يقل أحدهما سوءاً عن الآخر، لكن الوثنية أسوأ من الشرك بدليل قوله تعالى ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فالمشرك هو الذي يعبد مع الله إلهاً آخر، أما الوثني فهو الذي اختار شيئاً آخر يعبده من دون الله.

٢. عابد الأوثان يفترى الكذب ويخلق الإفك حين يعلن أنها تتحكم في فقر الإنسان وغناه وفي صحته ومرضه. وهذه الصفات غير موجودة فيها أبداً.

٣. الله وحده عنده الرزق، والله وحده هو المخصوص الأمر بالعبادة والشكر، والله وحده هو المآل والمستقر والمرجع.

وإذا تأملنا الواقع المعيش من حولنا وجدنا أنفسنا غارقين في الوثنية دون أن

ندري ونحن نلتمس الرزق عند أهل الإفك من علماء الأبراج الذين يزعمون أنهم يقرأون ما رسمته الكواكب للإنسان من أحداث في المستقبل . والسؤال الآن هو: إن نحن استطعنا القضاء على الأصنام وتحطيم التماثيل ومنع صناعتها ونحتها، فهل نستطيع القضاء على المطر والرعد والبرق، وتحطيم الشمس والقمر؟ وهل علينا ذبح البقر في العالم للقضاء على عبادته وتقديسه؟ وهل وجود أحد يعبد النار يفرض علينا أن نطفئ المواقد والأفران في البيوت والمعامل خوفاً من أن يعبدها الناس؟

ويأتي جواب هذه الأسئلة شافياً في قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ...﴾ (الحج ٣٠). ولم يقل: اجتنبوا هذه الأوثان بذاتها عيناً.

فالرجس هو الاختلاط CONFUSION، فإن اختلطت أصوات السيوف بالطبول بصيحات المتأهبين للقتال بصهيل الخيول قبل في وصفه: جيش رجاس . وكما أن رجس الخمر هو اختلاط الأمور مع السكر بحيث لا يعلم السكران ما يقول، كذلك رجس الأوثان هو اختلاط الأمور بحيث نطن أن لمظاهر الطبيعة والنجوم والكواكب والبقر والنار قدرة على إرادة الخير والشر بينما هي مجرد أشياء وظواهر طبيعية (أوثان) لا تملك للإنسان رزقاً.

إن الله لا يطلب منا القضاء على فن النحت ولا تدمير الطبيعة بنجومها وكواكبها ولا قتل البقر ولا منع إشعال النار، كل ما طلبه منا هو ألا نجري وراء زعم كاذب وإفك مفترى فتختلط علينا الأمور. طلب منا اجتناب الرجس لأن الأوثان بذاتها موجودة في كل مكان، فهناك تمثال لطلعت حرب وجمال عبد الناصر في القاهرة، وتمثال لرياض الصلح في بيروت، وتمثال لأبراهيم لنكولن في أميركا، وهذه كلها ليست أوثاناً معبودة ويمر أمامها عشرات ألوف الناس يومياً دون أن تختلط عليهم الأمور بحيث يظنون أنها تضر وتنفع. (ونحن نعرف أن عمرو بن العاص شاهد تمثال «أبو الهول» في مصر ولم يفعل شيئاً تجاهه).

نحن لا نطن أن الناس سابقاً كانوا على هذا القدر من الغباء المطلق بحيث لا

يعرفون أن الحجر والخشب والمعدن لا تدفع ضرراً ولا تجر نفعاً، ونعتقد أن ثمة من أقنعهم بأن هذه الأوثان تقرب من الله زلفى. وهؤلاء هم السدنة أو الهامانات أصحاب هذه اللعبة التي تستند إلى جهل الإنسان وعجزه وتعتمد على خوفه الفطري من المجهول، وتستغل ميله نحو المشخص. وهؤلاء هم السدنة الوسطاء الذين ما زالوا حتى اليوم تحت أسماء مختلفة يمارسون لعبة تمثيل الآلهة والتحدث باسمها. حتى إن السادة العلماء الأفاضل يسمون المفتي (الموقع عن الله) كما سماء ابن قيم الجوزية في أعلام الموقعين، أو (قائم مقام الرسول) كما سماء الشاطبي، ثم يقولون إنهم ليسوا رجال دين بل علماء أفاضل. وكذلك الكهنة في المسيحية هم نواب المسيح على الأرض والمجامع المسكونية يقابلها مجامع الفقه الإسلامي. وعلينا نحن المسلمين أن نصحح عقيدتنا وأنه لا أحد يوقع عن الله لأنه في هذه الحالة يصبح سبحانه وتعالى ضمن هذا المفهوم وكأنه نائب عام أو رئيس مخفر شرطة، الفقهاء يفتون، وعليه تنفيذ ما يفتونه، وفي هذا قال تعالى ﴿أَفَجَعَلَ السَّالِفِينَ كَالْآخِرِينَ \* مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ \* أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ \* إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ \* أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةَ إِلَى يَوْمِ الْاٰقِئَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ \* سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ (القلم ٣٥-٤٠)، وأشعر بهذه الآيات كأنها نزلت الآن تصف حال الفقهاء ومجامع الفقه الإسلامي الذين يوزعون الحرام والحلال ذات اليمين وذات الشمال زاعمين أنهم يمثلون الله وغير عالمين أن أقوالهم هي تفاعل إنساني مع التنزيل الحكيم. والتبست عليهم آيات التنزيل الحكيم مع أقوال الصحابة. فالتنزيل الحكيم له جانبان الأول مطلق إلهي، والثاني نسبي إنساني فافهم هذا.

إن كل ما علينا فعله كمسلمين مؤمنين، لكي نتجنب رجس الأوثان ونتحاشى الاختلاط في الأمور كتقديس أقوال السلف والأئمة السابقين، ألا نضع أية أنصاب أو تماثيل أو مجسمات طبيعية في المساجد ودور العبادة، أما في غير هذه الأماكن فلا محذور في وجودها، لأن الإنسانية في تقدم مستمر والإنسان معني بالجوانب الجمالية في صنع التماثيل والأنصاب التذكارية.

من هنا فإننا نرى خطأ هدم وتحطيم تماثيل بوذا في أفغانستان (ماذا عن تماثيل معبد الكرنك في مصر؟). أرايت لو أن تماثلاً موجوداً في مسجد، فهل نهدم المسجد أم نهدم التمثال؟ إن الجواب بيد مصلحة الناس وليس بيد الأحكام الشرعية، فالمصلحة هي التي تحدّد ما فيه نفع الناس وما ليس فيه نفعهم.

ثمة أيضاً ناحية مهمة جداً قرأناها في السيرة النبوية، هي أن النبي (ص) حين فتح مكة أزال الأصنام من الكعبة ومن الأماكن العامة. لكنه لم يرسل أحداً لتفتيش بيوت الناس ليزيل ما فيها من أصنام صغيرة وتماثيل - إن وجدت - بحجة أنهم ما زالوا حديثي العهد بعبادة الأوثان. إننا نرى اليوم أنهم يمنعون في أوروبا وضع صورة أو تمثال لهتلر في الأماكن العامة، لكنهم لم يهتكوا حرمة البيوت لمنع بعض الناس من وضع صورة له في بيوتهم.

## - الأصنام

الصاد والنون والميم (ص ن م) أصل صحيح في اللسان العربي. والأصنام جمع مفردة صنم، هو حسب تعريف ابن فارس: كان شيئاً يتخذ من خشب أو فضة أو نحاس فيُعبد (مقاييس اللغة ج ٣ ص ٣١٤). ولقد لاحظنا ما لاحظته ابن فارس أن الصنم «كلمة واحدة لا فرع لها». فاللفظ قرآني ورد في التنزيل الحكيم خمس مرات كلها في قصة إبراهيم الخليل (ع)، وكلها بصيغة الجمع، وكلها أسماء ليس فيها فعل ولا صفة. وهذا ما قصده ابن فارس في تعريفه. لكننا لم نجد ما يبرّر لابن فارس ألا يعتبر الأوثان في التنزيل الحكيم مثل الأصنام تماماً، أي كلمة واحدة لا فرع لها، فقال إن الفعل من الوثن هو استوثن بمعنى قوي واشتد، وكان بغنى عن هذا التكلف الواضح لو أنه اكتفى بالشكل الذي جاءت عليه اللفظة في التنزيل الحكيم.

الأوثان والأصنام - عندنا - مصطلح يدل على ظاهرة عبادة الأشياء والمشخصات. ولقد سادت هذه الظاهرة في الفكر الإنساني قبل أن يرتقي هذا الفكر إلى مرتبة التجريد. وحين نزلت الرسالة على قلب النبي العربي (ص) كان

كثير من الناس ما زال تشخيصياً تجسدياً في أعماقه لا يؤمن إلا بما يرى ويسمع ويلمس، ومن هنا أجاز الإسلام إبقاء عدد من الشعائر ذات الجانب التشخيصي، كالطواف حول الكعبة، وتقبيل الحجر الأسود، ورمي الجمرات، في أيام الحج والعمرة. وتتجلى ظاهرة الصنمية في عبادة وتقديس الآباء والسلف ﴿... قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (الزخرف ٢٢) فالصحابة والأئمة كانوا في حياتهم أشخاصاً عاديين، ثم تحولوا الآن في أذهاننا وعقولنا إلى أصنام. وكذلك ليس على مثال ما مثل أبو الهول والمنحوتات الآشورية، وهنا نلاحظ الخلاف بين التماثيل والأصنام.

فالكعبة عبارة عن بناء مربع مسقوف، يقوم في وسط المسجد الحرام، ندور حوله ونراه بأعيننا ونلمسه بأيدينا. كذلك الأمر مع الحجر الأسود الذي توجه إليه الخليفة عمر بن الخطاب بالقول: واللّه إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنني رأيت رسول الله يقبلك ما فعلت. وهناك أيضاً نصب يمثل الشيطان في منى نرميه بالجمرات، إلى جانب السعي بين صخرتي الصفا والمروة تيمناً بما فعلته زوجة إبراهيم الخليل (ع) حين تركها في حمى بيت الله الحرام مع وليدها إسماعيل وهي تلتمس له الماء ليشرب.

هذه كلها شعائر مشخصة قديمة قدم التاريخ، مارسها الإنسان بفطرته قبل البعثة النبوية، وجاءت الرسائل السماوية قبل الإسلام حافلة بها، وحافلة بمختلف المشخصات الأخرى كالبعث والجنة والنار والساعة التي حفظها لنا القرآن الكريم، لأنها ترتبط بطبع الإنسان وميله نحو المشخص. فالحج من أقدم الشعائر عند الإنسان ودليل قدمها أن جميع مناسكها مشخصة، وقد غطى القصص القرآني هذا الميل الإنساني نحو المشخص وروى لنا تاريخ البيت الحرام قبل البعثة المحمدية بقرون، ثم أخذت الرسالة المحمدية بيد الإنسان لتنتقله من التشخيص إلى التجريد، ومن عبادة «الأشياء» إلى عبادة «الواحد الأحد المجرد»، فربطت الصلاة (قمة الشعائر المجردة) بالحج (قمة الشعائر المشخصة) حين أوجبت على المصلي التوجه في صلاته إلى البيت الحرام بكعبته التي تمثل رمز

الأماكن المقدسة لا فقط في الرسائل السماوية، بل أيضاً في جميع المعتقدات غير السماوية، نظراً لارتباط هذه الأماكن ووجوب تقديسها عند الإنسان بطبيعته التشخيصي. ومن هنا تبدأ رحلة الإنسان مع السدنة والهامانات ورجال الدين، هذه الرحلة التي تقوم على ركائز ثلاث هي:

- ١ - الخوف من المجهول، فمعظم ظواهر الطبيعة من أعاصير وزلازل وطوفانات ونجوم وكواكب كانت عبارة عن الغاز.
- ٢ - الخوف من الموت وجهل ما بعد الموت.
- ٣ - الميل إلى الشخص الذي نسمعه ونراه لتطمين النفس الخائفة من هذين المجهولين.

وبما أن التشخيص من المظاهر القديمة بدأ في التاريخ الإنساني كله، ومناسك الحج تمثل قمة التشخيص حيث بدأ الحج بإبراهيم (ع) لذا قال تعالى عن الحج: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البقرة ١٢٥). والحج لكل الناس وليس للمؤمنين فقط لأن ظاهرة التشخيص فيه قديمة قدم التاريخ، والكعبة مكان مشخص رمزي وليست بيتاً سكنياً، سبحانه وتعالى عما يصفون. فكل إنسان يؤمن بالله يحق له حج البيت الحرام، ولكن بدون أي رموز لأي شيء، فلا تماثيل ولا صلبان ولا أعمدة حكمة، ولا تماثيل بوذا. فالبيت الحرام هو بيت الله صافٍ من كل شائبة، لذا جاء لباس الإحرام ليخلع الإنسان أي مؤشر أو رمز ملة من ملل الأرض قاطبة، لأن شعار هذه الملة قد يظهر في اللباس وغطاء الرأس أيضاً، وجعله لباساً موحداً لبيّن عالمية الدين الإسلامي، وليبين أنه لا ينتمي إلى ملة بعينها.

#### - التماثيل

الميم والثاء واللام (م ث ل) أصل صحيح يدل على مناظرة الشيء للشيء، فيقال: هذا مثل هذا، أي نظيره. والمثل والمثال في معنى واحد، وربما قالوا



مثيل كشيبه . تقول العرب : أمثل السلطان فلاناً ، أي قتله قوداً ، والمعنى أنه فعل به مثل ما كان فعله . والمثل أيضاً كشيبه ، والمثل المضروب مأخوذ من هذا لأنه يؤتى مورى به عن مثله في المعنى ، وقولهم مثل به أي نكل هو من هذا أيضاً ، لأنه فعل فيه مثل ما فعله . وفي هذا قال تعالى ﴿ وَنَسْتَعِظُكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ... ﴾ (الرعد ٦) ، أي العقوبات الزاجرة عن مثل ما وقعت من أجله .

هذا اللفظ القرآني وردت مشتقاته في ١٦٩ موضعاً من التنزيل الحكيم أولها في قوله تعالى ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ... ﴾ (البقرة ٢٣) ، وآخرها في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْإِنْدِ ﴾ (الفجر ٨) . أما التماثيل ، وهي جمع مفردة تماثل ، فقد وردت مرتين في القرآن الكريم :  
 - ﴿ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ (الأنبياء ٥٢) .  
 - ﴿ يَفْعَلُونَ لَكُمْ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرَبٍ وَنَمَثِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ... ﴾ (سبا ١٣) .

ونلاحظ ونحن نتأمل الآيتين أن للتماثيل وجهاً سلبياً يستحق الاستنكار في حالة العكوف عليها ، وأن لها وجهاً إيجابياً ليس فيه ما يوجب الاستنكار حين لا تكون محلاً للعكوف عليها . هنا يظهر الفرق واضحاً بين التماثيل من جهة والأوثان والأصنام من جهة ثانية . فالأوثان والأصنام دائماً لها رجب ، أي إن لها وجهاً واحداً سلبياً ، لكونها مقدسة ومعبودة . أما التماثيل فليس لها رجب إلا في حالة العكوف عليها بالتقديس والعبادة .

ونفهم من الآية الأولى أنه في زمن إبراهيم (ع) ساد نوعان من التماثيل . النوع الأول مصنوع من الحجر أو غيره يتحول إلى وثن أو صنم بالعكوف عليه تقديساً وعبادة ، وإنما سُمي تماثلاً لأن صانعه صنعه - في زعمه - على مثال الإله المعبود وشبهه . ومثال هذا النوع تماثيل الفراعنة في مصر وتماثيل شيفا في الهند وتماثيل آلهة الرومان في روما وآلهة اليونان في أثينا . وهذا النوع هو المحرّم

المحظور صنعه والمنهي عنه على رأس الوصايا العشر في ألواح موسى، وهو عنوان الشرك بالله الذي لا يغفره تعالى لعباده حسب قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ...﴾ (النساء ١١٦).

أما النوع الثاني فهو الذي تشير إليه آية سبأ ١٣، وهو المصنوع من الحجر أو غيره ليمائل ويشبه الإنسان، ومثاله تمثال عدنان المالكي في دمشق، وليمائل ويشبه الحيوان، ومثاله تماثيل الأسماك والطيور والسباع المنتشرة في كل أنحاء العالم. ويعدّ ذلك مماثلة وإن اختلفت المادة ولا يعدّ تماهياً.

في آية سبأ ١٣ لا مجال للتشكيك في عقيدة التوحيد عند النبي سليمان (ع)، لعدم وجود عكوف بالتقديس والعبادة على هذه التماثيل. لكن ثمة من يزعم أن صناعة التماثيل كانت عند داوود ثم نسخت في ما بعد. لهؤلاء نقول: في عقيدة التوحيد لا يوجد نسخ ولا يوجد ناسخ ومنسوخ، بدليل قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزمر ٦٥).

فإذا تأملنا باقي الآيات التي وردت فيها مشتقات هذا اللفظ نجد أنه ورد على عدة أوجه:

١ - وصف صفة معينة لحالة معينة وتخصيصها وذكرها، كما في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا...﴾ (التحريم ١٠). وصفة الكفر هنا هي محط المثل، حيث ربطها أيضاً بالخيانة. وكذلك وصف نعيم الجنة قال تعالى ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ...﴾ (الرعد ٣٥) وذكر العسل المصفى حيث العسل الحالي فيه الشمع، أما في الجنة فإنه مصفى، وكذلك الخمر في الآخرة فيه صفة مشتركة مع خمر الدنيا وهي اللذة.

٢ - وصف صفة معينة لحالة معينة كالبهيمية مثلاً في قوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا...﴾ (الجمعة ٥).

فضرب المثل توضيحاً للتماثل والتشابه في صفة بعينها وليس شاملاً لكل شيء . والآية تشير إلى التماثل في الغباء بين الحمار وبين الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها .

٣ - ضرب الأمثال للتحدي، كما في قوله تعالى ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَيَّنَّا خَلْقَهُ ط قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يس ٧٨) . فضرب المثال هنا للتحدي، والمماثلة هنا هي في صفة إحياء الموتى . ولهذا تابع في الرد على هذا التحدي الموجه للخلق قائلاً ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس ٧٩) .

وكذلك التماثل بالرفض كما في قوله تعالى ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (يس ١٣) . والتماثل في صفة النور كما في قوله تعالى ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى ١١)، أي لا شيء يماثله فهو واحد في كمه أحادي في كيفه .

ولكن هناك مماثلة في صفة، وهذه المماثلة في كل شيء في الأمثلة التي ذكرت سابقاً، والتي لم تذكر لا تحتوي إطلاقاً على التماهي، أي إن قوله تعالى ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ...﴾ (النور ٣٥) . فهنا لا تماهي بين الله ومثل نوره، بل مماثلة في الصفة لكي يقرب هذا الفهم للإنسان . فالضوء لا يحمل عنصر الزمن إطلاقاً وكذلك الله سبحانه لا ينطبق عليه عنصر الزمن .

إن الوقوف بالتأمل أمام هذه المفردات القرآنية الثلاث (الأوثان والأصنام والتمائيل)، وأمام الآيات التي ورد فيها ذكر كل من هذه المفردات، يبين لنا كيف انتقل الإنسان من عبادة آلهة متعددة مشخصة إلى عبادة واحد أحد مجرد ليس كمثل شيء هو الله سبحانه .

فقد بدأت الأنسنة التي كانت ضمن مجموعة من أمثالها فاختارها الله وانتقاها بدليل قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى

﴿الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران ٣٣). وبدليل بمجموعة آدم قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة ٣٥). وشهدنا في هذه الآية ضمير المخاطب المفرد المنفصل (أنت) الذي يجب حسب قواعد سيبويه أن يكون مستتراً وجوباً، والذي قال بعضهم إنه جاء ظاهراً للتأكيد، بينما نحن نراه أداة انتقاء وتخصيص، إذ لا يمكن أن يقال لمخاطب: اجلس أنت، إلا إذا كانت هناك مجموعة أشخاص وقوفاً وأمرنا واحداً منهم بالجلوس.

لقد بدأ تعليم آدم - الإنسان بالمشخصات ولهذا قال تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾ (البقرة ٣١) قبل الهبوط الأول. ثم انتقل إلى المجردات قبل الهبوط الثاني، وهذا معنى قوله تعالى ﴿فَلَلْقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّ قَنَابَ عَلَيْهِ...﴾ (البقرة ٣٧). فالتوبة لا يمكن أن تكون مشخصة. من هنا بدأ التجريد بالإنسان العاقل وهم أجدادنا واستمر حتى يومنا هذا. فالإنسان والعلوم والفنون والقوانين والأخلاق لا يمكن أن تتقدم بدون لغة مجردة، تشكل أداة التفكير وأداة الاتصال وأداة انتقال الخبرات من الآباء إلى الأبناء.

وكذلك بدأ الأمر والنهي مشخصين، كما في عبارة (ولا تقربا هذه الشجرة) فالنهي هنا مشخص ينهى عن الاقتراب من مشخص، وقد ذكرت الشجرة لأنها أكثر الأشياء شيوعاً في الغابة، ويمكن أن تكون أي شجرة، ثم استمر التعليم بالتشخيص، فأرسل تعالى تعاليمه مع ملائكة مشخصين سمّاهم النذر، وعندما بدأ الوحي للإنسان مع بداية تشكل لغة مجردة بأبسط صورها في زمن نوح، ظلت هذه النذر المشخصة موجودة جنباً إلى جنب مع الوحي، وكان الناس يعلمون أنهم ليسوا من جنسهم، ونعتقد أن هذا أدى إلى أطروحة أن الملوك أتوا من السماء. وهذا بالضبط ما نفهمه من قوله تعالى ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبُوءَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء ١٠٥).

لكننا نبدأ برؤية المشكلة مع قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا

سُؤَالًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا \* وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا... ﴿ (نوح ٢٣-٢٤). والمشكلة هي في قوله (وقد أضلوا). فهل الأحجار التي سَمَّوها آلهة تملك العون والغوث كما في يغوث وتملك المنع والتعويق كما في يعوق وتملك القدرة على إضلال الناس؟ وهل الزلازل والبراكين والنجوم والكواكب قادرة على الكلام وعلى إقناع السامع بالضلال؟ أم أن ثمة أناساً يقومون بهذه المهمة ويزعمون أنهم أهل الاختصاص بالآلهة أو بالإله الواحد؟ وهذه هي أسماؤهم. فالذي يُضِلُّ هو العاقل، والذي يُضَلُّ هو العاقل أيضاً، والرسول يهدي إلى صراط مستقيم (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وكل هذا يعود للعاقل.

الحقيقة أن هناك سدنة وهامانات اختصت كل مجموعة منهم بمعبود بعينه منذ فجر التاريخ، حتى إننا نرى هذا في أكثر القبائل بدائية، حيث ساحر القبيلة (الشامان) هو الطبيب وهو العراف، ومهما اختلفت العقائد والمعبودات فإن ثمة كثيراً من أوجه الشبه بين هؤلاء السدنة والهامانات أهمها أنهم يتلفظون بالفاظ معينة أو يقومون بحركات معينة، لأنهم جميعاً يتوهمون أن مجرد لفظ هذه الألفاظ المعنية سينتج عنه حتماً حقائق موضوعية تحصل في الواقع، وهذه من أكبر الكوارث الموجودة في الفكر العربي الإسلامي، ومن هنا جاءت الأذكار والأوراد وما يسمى بالرقية الشرعية والحجاب وإخراج الجن، والظن بأن التطبُّب بالقرآن يشفي من الأمراض العضوية من قوله تعالى ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ...﴾ (الإسراء ٨٢) ومفهوم الشفاء هنا وفي كل آيات الكتاب هو شفاء معنوي (كشف ما في الصدور) وهذه الظاهرة أيضاً تدل على طفولة الفكر والوعي الجمعي المؤمن بها، ومنه نرى أن ردود فعل ما يسمى الشارع العربي على الأحداث هي ردود فعل غريزية طفولية وليست عقلانية. وقد كسرت شعوب تونس ومصر واليمن وليبيا وسوريا هذه القاعدة وناضلت بشجاعة من أجل الحرية ضد الاستبداد والفساد، أي لقد بدأ العرب يكتشفون أن الحرية أهم من الحجاب.

ومن هنا نشأ السحر واستحضار الجن ونشأت التماثيل والتعاويذ لفك السحر . فالسحر ألفاظ تلفظ لعقد السحر والتعاويذ ألفاظ تلفظ لفك السحر ، وهذه الظاهرة ما زالت موجودة في كل أنحاء الأرض بدرجات متفاوتة وبأسماء مختلفة تارة تحت اسم الأبراج وتارة تحت اسم قراءة الكف والفنجان ووشوشة الودع . فكتب الأبراج تحتل مرتبة متقدمة على سلم المبيعات أكثر من كثير من الكتب العلمية ، وزاوية الأبراج في الصحف اليومية وفي عدد من المحطات التلفزيونية لها قراؤها ومشاهدوها والمعتقدون بصحتها فضلاً عن ندوات فك السحر وبرامج إخراج الجن من أجساد الممسوسين .

ما من قارئ لقصاص الأنبياء في القرآن الكريم إلا لاحظ أن وجود السدنة والهامانات يترافق لزوماً مع كل نبي ورسول ، بدءاً بنوح (ع) وانتهاءً بمحمد (ص) مروراً بإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم أجمعين . وهذا - في رأينا - مصداق ما تعهد به إبليس لربه حين قال ﴿... لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ \* ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ...﴾ (الأعراف ١٦- ١٧) . ويعتقد كثيرون تحت تأثير المعلومات المغلوطة التي يبثها السدنة والهامانات لإبعاد الشبهات عن أنفسهم ، أن إبليس مخلوق كربه المنظر والرائحة له قرون وذنب طويل وحوافر ، والحقيقة غير ذلك . فقد يكون إبليس سادناً في معبد أو كاهناً في كنيسة أو مؤذنناً في مسجد ، يرتدي الملابس البيضاء النظيفة ، سُبْحته في يده ولسانه لا يتوقف عن التمتمة ، وفي اليد الأخرى مجمرة تعطر الجو بروائح المسك والبخور .

عند نوح كان ثمة هامانات عدّدت بعض أسمائهم الآية ٢٣ من سورة نوح يدعون الناس إلى عبادة ظواهر الطبيعة وخاصة الفلكية ، ويوهمونهم بأنها تضر وتنفع . أما عند إبراهيم فقد اتجه الهامانات إلى عبادة الأصنام إضافة إلى ظواهر الطبيعة وجعلوا لها معابد لها سدنتها والقائمون عليها . وكان رأس هؤلاء جميعاً أزر أبو إبراهيم ومربيّه والمشرف على تدريبه ليكون خلفاً له . وهذا يفسّر قدرة إبراهيم على الوصول إلى الهياكل المقدسة ليلاً وعلى تحطيم الأصنام . (انظر

الفرق بين الأب والوالد في كتابنا الثالث الإسلام والإيمان). لقد انصب استنكار إبراهيم (ع) على عبادة الأصنام لا على صنعها بدليل قوله لهم ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ﴾ (الصافات ٩٥). فقد كان واضحاً لديه أن إضلال الناس يأتي ممن يزين لهم عبادة الأصنام والأوثان لا ممن صنعها. ونلاحظ أن القرآن يذكر لأول مرة في عصر إبراهيم مسألة إحياء الموتى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى...﴾ (البقرة ٢٦٠). ومسألة السلطة والملك وتحدي السلطان (انظر خبر «الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك» البقرة ٢٥٨، ٢٥٩) هذه المسألة التي نجدها تتكرر الإشارة إليها في قصة موسى مع فرعون ونجد معها الإشارة لأول مرة إلى هامان. وهذا ما نكتفي هنا بدورنا بالإشارة إليه على أن نبحثه تفصيلاً في الحديث مستقبلاً عن قيام الدول وعن دور الهامانات في سقوطها.

### إبراهيم الخليل وفق علم التاريخ والحقائق الأثرية

إبراهيم كاسم علم نجده في الكتابات القديمة سواء في بابل أو ماري أو وثائق مصر. فقد حوت وثائق بابل تسمية أبراهام أو أبرام بصيغة ((أباراما)) و((أبام راما)). كما نجد الاسم في الوثائق المصرية التي تعود إلى الألف الأول قبل الميلاد حيث يرد ذكر اسم مزرعة ((مزرعة أبرام)) في جنوب بلاد كنعان. كذلك نجد أن الوثائق الآشورية العائدة للألف الأول قبل الميلاد تذكر اسم ((أبرام - أبرامو)). وتذكر لنا وثيقة عثر عليها في مدينة لارسا الرافدية تعود إلى عهد حمورابي اسم شخص يدعى أهوبا بن إسماعيل.

دلت الأبحاث التاريخية الحديثة المستندة إلى أحدث المكتشفات الأثرية على جملة معطيات حول قبيلة إبراهيم ويمكننا عرضها كما يلي:

تارح والد إبراهيم كان من مدينة أور في جنوب الرافدين، هذه المدينة التي تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد. كان رجلاً غنياً يعتمد على رعي الماشية ثم مارس العمل التجاري لأن أور كانت محطة تجارية مهمة على الخط التجاري الواصل بين الخليج العربي والمشرق العربي ومصر.

كانت مدينة أور مركزاً لعبادة الإله سن (إله القمر) وقد أبانت الحفريات الأثرية عن زقورتها المخصصة لعبادة هذا الإله، وبطبيعة الحال كان اعتقاد تارح يقوم على عبادة إله القمر.

الخط التجاري كان يقود من الخليج العربي إلى الأعلى عبر أور وبمحاذاة الفرات ثم ينعطف بحدّة في منطقة حران ليتجه إلى الجنوب الغربي ماراً قرب مدينة قادش ودمشق ويمتد عبر أرض كنعان على الساحل السوري ليصل في النهاية إلى الحدود المصرية. وعبر هذا الخط يمكننا تتبع رحلة إبراهيم الخليل في ما بعد من حران إلى أرض كنعان فمصر.

يبدو أن الأوضاع السياسية في مدينة أور غير المستقرة، والنتيجة عن الصراعات السياسية في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد وبداية الألف الثاني، أدت إلى انهيار النشاط التجاري ما دفع تارح إلى الانتقال نحو حران العاصمة التجارية المهمة أيضاً وكذلك لكونها مركزاً لعبادة إله القمر بعد أور. وتشير المعطيات إلى أن صراعاً خفياً نشأ بين معتنقي عبادة القمر وبين الإله القومي الجديد لبابل، مردوخ، حيث إن السلالة البابلية التي سيكون منها الملك حمورابي كان مشروعها السياسي التوحيدي لبلاد الرافدين يستوجب وجود إله شامل يضم كافة المدن والمعتقدات تحت لوائه.

انتقل تارح إلى حران والتفت إلى نشاطه التجاري وسلم شؤون الماشية إلى ولديه إبراهيم وناحور أما الولد الثالث لتارح، هاران، فقد عاجله الموت.

مضى إبراهيم في حياة الرعي والتنقل وما يرافقها من حالات التأمل والوحدة والتفكير في الكون والسماء ما أدى به إلى اهتزاز في عبادة القمر التي نشأ عليها وانبثقت لديه فكرة أن خالق القمر والشمس والنجوم يجب أن يكون إلهاً وحيداً كلي القدرة موجوداً في كل مكان وزمان، رحيماً عطوفاً غير منظور. مضى إبراهيم في نشر معتقده التوحيدي الجديد وسط انزعاج والده وأخيه وباقي سكان المدينة، غير أنه استطاع ضم أتباع له ورغم هذا أمكن الحفاظ على وحدة العشيرة ولو ظاهرياً لحين وفاة تارح الأب، حينها اقتسم إبراهيم وناحور تركة



أبيهما وانقسمت العشيرة إلى قسمين، قسم يعبد إله القمر على خطى الأب وقسم يدين بالتوحيد بقيادة إبراهيم.

ولأن العقيدة الجديدة لا يمكنها أن تخلص في بيئة معتقدية قديمة ومحدودة فقد ارتأى إبراهيم الهجرة إلى أرض كنعان، وكان ذلك، حيث مضى في مسار خط التجارة لمسافة ألف كيلومتر عابراً قادش ودمشق ثم أرض كنعان، وهنا في كنعان وبعد حصول جفاف مضى إلى مصر التي كانت تمنح المهاجرين من القبائل مساحات من الأراضي عند مراعي مصب النيل المهجورة.

ويبدو أن إبراهيم عاد إلى فلسطين بعد ذلك ليسكن في منطقة حبرون وهي اليوم الخليل، ولعل انعدام الوثائق الأثرية في شبه الجزيرة العربية للفترة تلك عتم على ذهاب إبراهيم إلى مكة وقد ذكر هذا في القرآن الكريم.

### في هوية إبراهيم الخليل

معظم المعطيات تشير إلى أن إبراهيم ظهر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، والحقيقة أنه منذ ما قبل الألف الثاني قبل الميلاد بقليل أصبحت الهوية الاجتماعية الحضارية في المشرق العربي عمورية بالكامل تميزت بعدة تسميات حسب المدن آنذاك (بابل، آشور، أكد، ماري، إبلا... الخ)، وبناءً على ذلك فنحن نعتقد أن إبراهيم عموري ونستند في ذلك إلى أن تارح والده من مدينة أور التي شهدت في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد انهيار سلالتها السومرية لمصلحة الفاعلية العمورية المنتشرة فيها وفي محيطها. ويشير الدكتور أحمد سوسة في مؤلفه العرب واليهود في التاريخ إلى أن أسماء أبرام ويعقوب ويوسف وحتى تسمية إسرائيل التي تعني يعقوب هي أسماء كنعانية/عمورية أصيلة تعود إلى ما قبل الألف الثاني قبل الميلاد، وهي أسماء روحانية مقدسة.

ولأن مدينة ماري كانت العاصمة الحقيقية للعموريين في استقرارهم وارتحالهم في الألف الثاني قبل الميلاد وما قبله، فقد شملت مملكتها مدينة حران أيضاً. وقد أبانت وثائق ماري عن اكتشافات قلبت المعارف السائدة لجهة

التسميات التوراتية لعصر الآباء، فقد حوت وثائقها أسماء وردت في التوراة مثل : ناحور، تاراحي، ساروخي، تاليكي، هذه الأسماء التي تتشابه مع أسماء أقارب إبراهيم : ناحور، تارح، سيروح، تاليك. كما أن وثائق ماري تحدثت عن قبائل أبام - رام، يعقوب - اديل، وعن قبيلة تدعى بنيامين (بنو يمين) التي كانت تسبب القلاقل لماري واستطاعت ماري في النهاية إيجاد التفاهم معها طبقاً لمصالحها.

والذي يبدو أن أسماء الآباء الأوائل الواردة في التوراة ما هي في واقع الحال سوى أسماء قبائل ومدن أسستها هذه القبائل، وأن إبراهيم نفسه وحفيده يعقوب وأصغر أبناء هذا الأخير بنيامين لهم علاقة مباشرة بأسماء هذه القبائل. ويشير كاسيدوفسكي في كتابه الواقع والأسطورة في التوراة إلى أن القبائل التي سكنت أرض الكنعانيين في أيام إبراهيم تنتسب في أكثرها إلى الساميين الغربيين (العموريين).

هذا ما يمكن عرضه من الوثائق الأثرية التي تختص بسيرة إبراهيم الخليل والتي لم تقدم سوى رؤيا إيجابية عن شخصيته أساسها الرؤيا التوحيدية. لكن ما قدمه كتاب التوراة (الأسفار الخمسة الأولى) من معلومات تختص بعصر الآباء وإبراهيم بالذات، يدفعنا إلى الوقوف بحذر تجاه تلك المعلومات التي جرى تحويلها وتشويه بعضها بما يناسب رغبة الأحبار اليهود وهدفهم الذين كتبوا التوراة في فترة السبي البابلي وما بعدها في حوالى منتصف الألف الأول قبل الميلاد.

ويشير كاسيدوفسكي إلى أن التوراة ظهرت في وقت متأخر نسبياً عن زمن إبراهيم وذلك بعد عودة اليهود من السبي البابلي، أي في الفترة الواقعة بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد.

وانطلاقاً من دوافع الأحبار الدينية عمدوا إلى تغيير التراث التاريخي التقليدي فحذفوا منه كل ما لم يتفق مع مصالحهم ورؤياهم وأضافوا إليه أفكارهم الخاصة، فالأحبار لم يكونوا المؤلفين الأصليين بل هم محررون اقتبسوا

النصوص القديمة. وقد بين التحليل العميق للتوراة أن نصوصه تضم ثلاث طبقات واضحة، أول قسم منها كتب في القرن التاسع قبل الميلاد وسمته الرئيسية هي أن مؤلفيه استخدموا كلمة «الوهيم» للدلالة على الله، بينما استخدمت في النصوص التي ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد كلمة «يهوه»، وفي القرن السابع دمج القسمان في نص واحد حيث نجد أن مؤلفي النص الجديد قد استخدموا كلمتي «الوهيم» و«يهوه» بالتناوب.

ويختم بالقول: لقد تناقل اليهود هذا التراث من لسان إلى لسان ومن جيل إلى جيل، وأسهم الطابع الفولكلوري في نقل الروايات الحقيقية وتطعيمها بالكثير من الخرافات والأساطير والأمثال.

والذي يبدو أن الأحبار في فترة السبي الفاقدين للأرض والمعانين من عقدة السبي، عمدوا إلى استعارة قصة إبراهيم العموري وألصقوها بتاريخهم محققين بذلك هدفين:

الأول: إعادة تاريخهم إلى فترة مطلع الألف الثاني قبل الميلاد عبر الانتماء إلى سلالة إبراهيم.

الثاني: ربط الأرض الموعودة (فلسطين) بوعد إلهي من يهوه لإبراهيم.

الثالث: الشخصية الإبراهيمية في التوراة شخصية لا تنتمي إلى روحية الأنبياء حيث جرى إظهارها بمظهر سلمي لا يليق بنبي، وهذا يذكر بما قدمته التوراة عن شخصية نوح السكير أيضاً.

وعلى هذا نتابع ما ورد في التوراة عن إبراهيم التوراتي لا إبراهيم الحنفي.

### إبراهيم الخليل في كتاب التوراة

جاء في سفر التكوين - الإصحاح الحادي عشر - من ١ إلى ٢٦، ذكر لمواليد سام، انتهت سلسلتها بمواليد تارح الذي ولد أبرام وناحور وهاران - وولد هاران لوطاً ومات هاران في أرض ميلاده في أور الكلدانيين.

- ثم تزوج أبرام سراي، وناحور مَلِكَة بنت هاران. وأخذ تارح أبرام ابنه

ولوطاً بن هاران وسراي كتنه وخرجوا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك. ولقد مات تارح في حاران.

- وفي الإصحاح الثاني عشر جاء أن الرب قال لأبرام «اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. وهكذا ذهب أبرام من حاران إلى أرض فلسطين إلى مكان شكيم يدعى بلوطة مورة.

- وعندئذ ظهر الرب لأبرام وقال له: لنسلك أعطي هذه الأرض». فبنى هناك مذبحاً للرب.

- ثم انتقل إلى جبل شرقي بيت إيل ونصب خيمته. ثم ارتحل ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب.

- «وحدث جوع في الأرض فانحدر أبرام إلى مصر» وقبل دخوله مصر خشي على زوجته التي كانت جميلة جداً. فقال لها «إني قد علمت أنك امرأة حسنة المظهر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك. قللي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك». وهكذا تم فعلاً ودخلت سارة على فرعون بصفتها أخت أبرام...

- وبعد ذلك ضرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب سراي امرأة أبرام التي أخذها زوجة له.

- وإذ علم فرعون أن سراي هي زوجة أبرام وليست أخته وبّخه على ما فعل وأعادها إليه. ثم طرده وأخذ أبرام كل ما كان لديه وكان غنياً جداً بسبب سراي.

- (الإصحاح الثالث عشر): ارتحل أبرام من مصر عائداً إلى الجنوب إلى بيت إيل مكان خيمته الأولى ومعه لوط وكان لهما غنم وبقر وخيام.

- ولما ضاقت المراعي بمواشي أبرام ولوط تقاسما الأرض حتى لا تقع خصومة بينهما، فاختص لوط بدائرة الأردن وأبرام بقسم من أرض كنعان. وكان ذلك قبل خراب سدوم وعمورة.

- تجلى الرب لأبرام ووعدته بالأرض الذي هو عليها وأقام بعدئذ في موقع بلوطات مورا في حبرون.

- (الإصحاح الرابع عشر): في أيام امرافل، ملك شنعار وثلاثة ملوك من حلفائه غزا هؤلاء الملوك أراضي ملوك سادوم وعامورة وأدمة وهبؤيم وتغلبوا عليهم، وحكموا المنطقة أربع عشرة سنة. ثم اجتمع ملك سادوم وحلفاؤه وشنوا حرباً مضادة مع كدلعومر وحلفائه أدت إلى انكسارهم فهربوا ولكن لوطاً وقع أسيراً بين أيدي كدلعومر.

- ولما وصل الخبر إلى أبرام جمع غلماناه المتمرنين وعددهم ثلاث مئة وثمانية عشر، ولدان بيته وتبع الملوك المتصيرين إلى دان حيث كسرهم مسترجعاً لوطاً وكل الأملاك التي حصل عليها.

- بعد هذا النصر كان من بين مستقبلي أبرام ملكي صادق ملك شاليم (أورشليم) الذي أخرج خبزاً وخمراً وكان كاهناً لله العلي. وبارك أبرام. الإصحاح الخامس عشر:

- بعد هذه الأحداث تضرع أبرام للرب كي يمنحه ولداً حتى لا يكون أليعازر الدمشقي وريثه. فوعده الرب بمولود، كما وعده بأن ملكه سيمتد من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات، إذ ينتصر على القينيين والقنزيين والقدمونيين والحثيين والفرزيين والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليوسيين.

وفي هذا المجال أيضاً حريّ بنا الإشارة إلى ما ورد في سفر التكوين التوراتي - الإصحاح ١٨ حيث إن يهوه التوراتي وشخصيتين قدسيتين (ملاكين) زاروا إبراهيم التوراتي الذي كان حزيناً لأن لا ولد لديه حيث يعده يهوه (الإله الزائر) بولد سوف يأتي.

في موازاة هذه القصة نقرأ في ملحمة أقهت ابن دانيال الأجاريتية التي تعود إلى الثلث الأخير من الألف الثاني قبل الميلاد أي قبل كتابة التوراة بحوالى ألف سنة، أن الإله بعل يظهر لدانيال الحزين لعدم وجود ابن لديه حيث يعده بعل بولد يسميه أقهت.

الفارق بين الوثيقة الأجاريتية والقصة التوراتية هو أن إبراهيم التوراتي كان يجلس أمام خيمته، فيما دانيال كان يجلس أمام بيته تبعاً لثقافة الشخصيتين.

### الإصحاح السادس عشر:

ولما كانت سراي عاقراً دفعت بأبرام إلى حضن جاريته هاجر التي أتت معه من مصر فحبلت منه.

إثر هذا الحبل غارت سراي من هاجر فأوغرت صدر أبرام وأذى به ذلك إلى عدم وجود حل لهذا الخلاف مما أدى إلى هرب هاجر نحو بلاد شور. وفي الطريق تراءى لها ملاك الرب فأمرها بالعودة إلى بيتها وتأدية واجب الطاعة إلى مولاتها سراي. وقد أنبأ ملاك الرب أنها حبلى وستلد ابناً تدعوه إسماعيل وأنه يكون إنساناً وحشياً يده على كل واحد ويد كل واحد عليه وأمام جميع إخوته يسكن. فدعت اسم الرب الذي تكلم معها «أنت ايل رثي». ودعيت البشر التي كانت عندها هاجر «بئر لحي رثي» وهي بين قادش وبارد.

ولدت هاجر ابناً دعي إسماعيل، وبعد ثلاث عشرة سنة ختن أبرام نفسه وإسماعيل وكل رجال بيته والمبتاعين بالفضة. وكان عمر أبرام وقتئذ تسعاً وتسعين سنة.

### الإصحاح الثامن عشر:

- وفي سن التسع والتسعين ظهر الرب لأبرام ووعد به بأن يكون أباً لجمهر من الأمم ولذلك يصبح اسمه إبراهيم بدلاً من أبرام وكذلك زوجته ساراي تدعى منذ الآن سارة. كما وعده بأن تلد له سارة ابناً يدعوه إسحق.

### الإصحاح التاسع عشر:

- بعد خراب سادوم وعامورة صعد لوط إلى الجبل ومعه ابنتاه. .  
وهناك حسن للبت البكر أن تضطجع مع أبيها فاضطجعت معه بعد أن أسكرته، وفي الليلة الثانية عملت مثلها البنت الأصغر فولدت البكر ولداً أسمته «مؤاب» وقد أصبح أباً المؤابيين والصغرى ولدت ابناً أسمته «بني عمي» أصبح أباً بني عمون.

### الإصحاح العشرون:

- وانتقل إبراهيم إلى منطقة جرار في الجنوب ما بين قادش وشور وتغرب

في جرار، في ظل ملكها أيمالك. ولدى أيمالك كرر إبراهيم مع هذا الملك ما سبق أن فعله مع فرعون بالنسبة لسارة مدّعيّاً أنها أخته. بعد ثلاثة أيام من انتقال سارة لعند أيمالك أوحى الله لهذا الملك بحقيقة سارة أنها زوجة إبراهيم وليست أخته فأحضره وبعد أن وبخه طرده من عنده وأعطاه غنماً وبقراً وعبداً وإماءً . . .

#### الإصحاح الحادي والعشرون:

بعد ذلك حبّلت سارة وولدت لإبراهيم في شيخوخته ابناً سمّاه إسحق وكان وقتئذ عمر إبراهيم مئة سنة.

رأت سارة ابن هاجر المصرية يمزح فقالت لإبراهيم اطرده هذه الجارية وابنها وكان الله إلى جانب سارة في طلبها هذا فأذعن إبراهيم لهذا الأمر وفي الغد الباكر أعطى هاجر خبزاً وقربة ماء وطردها من بيته فمضت وتاهت في بركة بئر سبع. وكان الله مع الغلام حيث شب في بركة فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر.

#### الإصحاح الثاني والعشرون:

بعد هذه الأحداث أراد الله امتحان إبراهيم فطلب منه أخذ ابنه إسحق إلى أرض المريا ليقدّمه محرقة لله. فبادر إبراهيم إلى تنفيذ ما طلب الرب، ولكن ما إن باشر بإعداد المحرقة حتى رأى بالقرب منه خروفاً فدية من الله عن إسحق.

#### الإصحاح الثالث والعشرون:

- عاشت سارة مئة وسبعاً وعشرين سنة ثم ماتت فطلب إبراهيم من بني حث أن يسمحوا له بدفن زوجته في أرضهم بثمان أربع مئة شاقل من الفضة. وهكذا تم ودفنت سارة في حقل عفرون في المكفيلة، التي هي أرض حبرون في أرض كنعان.

#### الإصحاح الرابع والعشرون:

- بعد أن شاخ إبراهيم طلب من عبده أن يأتيه من مدينة ناحور في آرام النهرين زوجة لابنه إسحق لأنه لم يشأ أن يزوجه من بنات كنعان وإنما بواحدة من أهل بيته.

- ذهب العبد إلى آرام النهرين، إلى مدينة ناحور حيث وقع اختياره على رفقة بنت بتوئيل ابن ملكة امرأة ناحور أخي إبراهيم وتم الوفاق برضاها أن تكون زوجة لإسحق وقبل أخوها «لابان» كما قبل أبوعل بتوئيل.
- إثر عودة العبد إلى أرض الجنوب حيث كان يقيم إسحق تعرف إلى رفقة وسرّبها ثم تزوجها وأدخلها إلى خباء أمه...

#### الإصحاح الخامس والعشرون:

- وعاد إبراهيم فأخذ زوجة له اسمها قطورة فولدت له: زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا. ومن ثم أعطى إبراهيم كل ما كان له وأبعد إسحق عن بني السراري اللواتي كانت لإبراهيم، أن صرفهم شرقاً إلى أرض المشرق.

- عاش إبراهيم مئة وخمساً وسبعين سنة. بعد وفاته دفنه ابناه إسحق وإسماعيل في مغارة المكفيلة في حقل عفرون الحثي أمام ممرا ذلك الحقل الذي سبق أن اشتراه إبراهيم ودفن فيه سارة.
- لما تزوج إسحق كان له من العمر أربعون سنة. وقد ولدت له رفقة توأمين الولد الأول كان عيسو والثاني كان يعقوب.

- كبر الغلامان وكان عيسو يعرف الصيد وشديد البأس وأما يعقوب فكان هادئاً يسكن الخيام. وفي أحد الأيام أعد يعقوب طيخاً وعند عودة عيسو طلب من أخيه أن يأكل من هذا الأحمر ولذلك دعي آدم فاشترط عليه يعقوب أن يبيعه البكورة، فقبل عيسو زاهداً فيها.

- وقد ورد في وثائق أوغاريت ذكر لما يسمّى بحق البكورة، حيث إن هذا التقليد يعبر عن أن الابن الأكبر في العائلة له نصيب مضاعف وله وضع متميز بالبيت والعائلة الكنعانية، لكونه هو الذي سيقدم العون لوالديه في سن الشيخوخة وهذا التصور عائد إلى الخلفية الكنعانية التي تعتبر أن الابن البكر يخص الإله أي إنه يتمتع بسمات مقدسة تميّزه عن باقي الإخوة.

- وتقضي الأعراف الكنعانية بأن الأب يستطيع أن يحرم ابنه البكر من حق



البكورة هذا إذا اقترف هذا الابن جريمة بحق أبيه (سرقة - عدم احترام . . الخ).  
نلاحظ أن هذا التقليد الأوغاريتي نُقل إلى التوراة حين باع عيسو التوراتي  
البكورة ليعقوب لقاء صحن من العدس!

الإصحاح السادس والعشرون:

- وكان في الأرض جوع فذهب إسحق إلى أبيمالك ومعه زوجته رفقة وسأله  
أهل المكان عن امرأته فقال هي أختي، لأنه خاف أن يقول امرأتي لعل أهل  
المكان يقتلونه من أجل رفقة لأنها كانت حسنة المظهر. ولما عرف أبيمالك  
بالأمر وبخه قائلاً: لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنباً  
كبيراً. وإثر ذلك أوصى أبيمالك ألا يمس أحد رفقة وسمح لإسحق بالبقاء في  
أرض جرار حيث تعاضمت ثروته.

ولما كان عيسو ابن أربعين سنة اتخذ زوجة له يهوديت ابنة بيري الحي وبسنة  
ابنة إيلون الحثي فكانتا مرارة نفس لإسحق ورفقة.

الإصحاح السابع والعشرون:

- وحدث لما شاخ إسحق وكَلَّت عيناه عن النظر، طلب من عيسو أن يذهب  
إلى البرية ليتصيد له وقال له: وعند عودتك اصنع لي أطعمة وأنتي بها لآكل لأنني  
أريد أن أباركك قبل أن أموت.

- اغتنمت رفقة هذه المناسبة، وكانت تحب يعقوب أكثر من عيسو فبعد  
عودة عيسو بالصيد الذي تصيده في غيابه، ألقت رفقة على ذراع يعقوب جلود  
جديي معزى بحيث أصبح ذا شعر كثيف مثل عيسو وقدمته إلى إسحق تحت اسم  
عيسو ليباركه ولما لمس إسحق شعر ذراع يعقوب قال يعقوب: أنا عيسو وعند  
ذلك باركه.

- بعد ذلك عرف عيسو بالمؤامرة فاغتاظ وصرخ في وجه أبيه: باركني أنا  
أيضاً فأجاب إسحق: لقد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك وهكذا حلت البركة  
نهائياً على يعقوب رغم كل ما فيها من مكر.

- حقد عيسو على يعقوب وفكر في قتله فما كان من رفقة إلا أن أبعدت

يعقوب عن عيسو لعند أخيها لابان خاصة أن إسحق أوصى بالألا يتزوج من بنات كنعان .

#### الإصحاح الثامن والعشرون:

- ولما رأى عيسو أن إسحق بارك يعقوب وأرسله إلى فدان آرام ليأخذ لنفسه من هناك زوجة، ذهب إلى إسماعيل وأخذ محله بنت إسماعيل بن إبراهيم تبايوت زوجة له على نسائه .

#### الإصحاح التاسع والعشرون:

- ذهب يعقوب إلى فدان آرام حيث اجتمع بلابان وتعرف إلى راحيل ابنته وأعجب بها، واشترط عليه لابان أن يخدمه سبع سنين مقابل راحيل، وبعد نفاد هذه المدة أعطاه راحيل ولكن بدلاً من أن يقدم ليلاً راحيل قدم له ليثة ولما احتج على هذه المعاملة في ما بعد قال لابان: لا يجوز أن تعطى الصغيرة قبل الكبيرة فإن كنت راغباً أيضاً في راحيل فما عليك إلا أن تخدمني سبع سنين أخرى وهكذا تم . كما أن لابان منح يعقوب جاريته زلفة إلى ابنته كما أعطى بلهة جارية لراحيل .

#### الإصحاح الثلاثون:

حبلت ليثة وولدت ليعقوب أربعة بنين وأما راحيل فكانت عاقراً . فآلحت على يعقوب أن يدخل على جاريته بلهة التي حبلت منه وولدت ابناً . وعند ذلك هدا غضب راحيل وتوالت مواليد يعقوب من جاريته حتى حبلت راحيل وولدت يوسف واستمرت على هذا النحو ولادات أبناء يعقوب الاثني عشر وهم:

\* من ليثة: راوبين، شمعون، لاوي، يهوذا، يساكر، زيلون

\* من راحيل: يوسف وبنيامين

\* من بلهة جارية راحيل: دان — نفتالي

\* من زلفة جارية ليثة: جاد — اشير .

#### الإصحاح الثاني والثلاثون:

- قرر يعقوب العودة إلى بيت أبيه إسحق ولكنه كان يخشى أن يصيبه عيسو

بمكروه فقدم له مئتي عنزة وعشرين تيساً ومئتي نعجة وعشرين كبشاً مسترضياً إياه. ولما شاهد عيسو أفراد ذرية يعقوب تعجب من كثرة عددهم وتفاهما على مكان الإقامة ليعقوب وأولاده، ((مكان مسكون)).

وفي أثناء العودة صارع يعقوب إنساناً حتى طلوع الفجر. وبعد ذلك بارك هذا الإنسان يعقوب وقال له لا يُدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس.

#### الإصحاح السابع والثلاثون:

- وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه في أرض كنعان. وكان يوسف بفضل ذكائه وأحلامه ذا حظوة عند أبيه فحسده إخوته على ذلك وقرروا قتله. وبينما هم يرعون غنمهم أقبل عليهم يوسف وعند وصوله حاولوا رميه في بئر ولكن قافلة إسماعيلية من مديان كانت في طريقها إلى مصر فباعوا يوسف أخاهم إلى هذه القافلة بعشرين من الفضة وأتت به إلى مصر. أما إخوة يوسف فادعوا لدى أبيهم أن وحشاً رديئاً أكله.

#### الإصحاح الثامن والثلاثون:

- يهوذا يضطجع مع تamar كخته.

#### الإصحاح التاسع والثلاثون:

- سلك يوسف سلوكاً أخلاقياً ممتازاً في مصر وبفضل ذكائه تدرّج في أعلى المناصب وكان مفسّراً ماهراً للأحلام مما جعله الرجل الأول في بلاط فرعون.

#### الإصحاح الأربعون وما بعده:

- نزل أولاد يعقوب إلى مصر ليبتاعوا قمحاً وهناك تعرف إليهم يوسف وصفح عن الجرم الذي اقترفوه بحقه. ثم طلب والده ولما أتوا به خَصَّهم بأرض في جاسان ليقيموا فيها ويرعوا غنمهم. وكان عدد أفراد ذرية يعقوب من بنات وبنين ثلاثة وثلاثين.

#### الإصحاح الخمسون:

- وقعت وفاة يعقوب في مصر وكان قد أوصى بأن يدفن مع إبراهيم وسارة

وإسحق ورفقة. وهكذا تم فقد حنط جسده يوسف وبعد أربعين يوماً نقلوه ومن ثم وبعد سبعين يوماً كانت قد مضت على بكائه، نفذ يوسف وصية والده ونقله إلى أرض كنعان.

وفي مقارنة تاريخية فكرية لشخصية إبراهيم كما وردت في التوراة، يشير الدكتور كمال الصليبي في كتابه خفايا التوراة إلى وجود خمس شخصيات لإبراهيم (أبرام في التوراة) في الأسفار الخمسة الأولى المنسوبة لموسى.

فهناك : أبرام العبراني - أبرام الآرامي - أبرام سفر التكوين ١٥ - أبرام الشباعة - أبرام اليمن. وتختلف الصفات وأنماط الشخصية بين هذه الأبرامات حسب الجغرافيا التاريخية التي يقترحها الباحث، حيث يصل إلى نتيجة مفادها أن التقليد الكهنوتي وهو تقليد إسرائيلي متأخر أخذ الأبرامات الخمسة فجعل منها أبراماً واحداً، حيث إن بني إسرائيل مثلهم مثل سائر الشعوب التاريخية لم يكونوا شعباً واحداً في الأصل بل مجموعة قبائل مختلفة تم توحيدها على مراحل عن طريق الالتفاف والتحالف لسبب أو لآخر. وبذا أمكن جمع التقاليد المختلفة التي كانت عليها قبائل بني إسرائيل وتم تنسيقها حتى تظهر بمظهر التقليد الواحد، وهكذا أصبح الجد الأعلى أي الأبرام لكل من العناصر المختلفة من شعب إسرائيل وهو المدعو أيضاً أبراهام في النص القائم لسفر التكوين. والذي يبدو أن قصة أبرام كما ألفتها الأدبيات الدينية تختص بأبرام سفر التكوين ١٥ حسب الدكتور صليبي.

الجدير ذكره هنا، هو أن اسم إبراهيم ورد في القرآن الكريم ٥٤ مرة، فيما ورد باسم إبراهيم فقط في سورة البقرة ١٥ مرة، ولم يرد الاسم بهذه الصيغة الكتابية (دون ياء) خارج سورة البقرة.

### في المسيحية

إن أقوال المسيح في إبراهيم الخليل هي المدونة في الأنجيل الأربعة وما يلحق بها من أقوال الرسل والحواريين وكل ذلك إنما هو خلاصة الرسالة الجديدة

التي أتى بها السيد المسيح وأساسها المحبة. وفي ما يلي نأتي على المواقع الكتابية التي جاء فيها ذكر لإبراهيم الخليل.

١- جاء في إنجيل لوقا، الإصحاح السادس عشر: وذلك في مسألة الحياة بعد الموت فقد ضرب السيد المسيح مثل إبراهيم وألعاذر والرجل الغني في العالم الآخر قال: «كان إنسان غني وكان يلبس الأرجوان والبز وهو يتنعم كل يوم في رفاهه. وكان مسكين اسمه ألعاذر الذي طرح عند بابه مضروباً بالقروح، ويشتهي أن يشبع من الفتات الساقط من مائدة الغني بل كانت الكلاب تأتي وتلحس قروح، فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم ومات الغني أيضاً ودفن فرفع عينيه في الجحيم وهو في العذاب ورأى إبراهيم من بعيد وألعاذر في حضنه فنادى وقال يا أبي إبراهيم ارحمني وأرسل ألعاذر ليبل طرف إصبعه بماء ويرد لساني لأنني معذب في هذا اللهب، فقال إبراهيم يا ابني اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك ألعاذر البلاء والآن هو يتعزى وأنت تتعذب، وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت حتى أن الذين يريدون العبور من هنا إليكم لا يقدرّون ولا الذين من هناك يجتازون إلينا. فقال أسألك إذا يا أبت أن ترسله إلى بيت أبي، لأن لي خمسة إخوة حتى يشهد لهم لكي لا يأتوا هم أيضاً إلى موضع العذاب هذا. قال له إبراهيم عندهم موسى والأنبياء ليسمعوا منهم. فقال لا يا أبي إبراهيم بل إذا مضى إليهم واحد من الأموات يتوبون. فقال له إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء ولا إن قام واحد من الأموات يصدقون، فما هم بمصدقيه».

٢- وفي الإصحاح الثامن من إنجيل متى يقول السيد المسيح:  
«الحق أقول لكم لم أجد ولا في إسرائيل إيماناً بمقدار هذا. وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكثون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت السماوات. وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية...».

٣- ومن أقوال يوحنا المعمدان:  
«... اصنعوا ثماراً تليق بالتوبة، ولا تبدؤوا تقولون في أنفسكم: لنا إبراهيم

أباً، لأنني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم». ٤- ومن كلام السيد المسيح في إنجيل لوقا حيث جاء في الإصحاح الثالث

عشر:

«فاني أقول لكم إن كثيرين سيطلبون أن يدخلوا ولا يقدرّون من بعد أن يكون رب البيت قد قام وأغلق الباب وابتدأتم تقفون خارجاً وتقرعون الباب قائلين يا رب! يا رب افتح لنا... يجيب ويقول لكم لا أعرفكم من أين أنتم حينئذ تبتدون تقولون أكلنا قدامك وشربنا وعلمت في شوارعنا. فيقول أقول لكم لا أعرفكم من أين أنتم تباعدوا عني يا جميع فاعلي الظلم».

هناك يكون البكاء وصرير الأسنان متى رأيتم إبراهيم وإسحق ويعقوب وجميع الأنبياء في ملكوت الله وأنتم مطروحون خارجاً ويأتون من المشارق ومن المغارب ومن الشمال والجنوب ويتكثرون في ملكوت الله.

«وهوذا آخرون يكونون أولين وأولون يكونون آخرين».

٥- وفي الإصحاح الثاني من إنجيل يوحنا يقول المسيح لليهود الذين آمنوا

به:

«إنكم إن ثبتتم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي وتعرفون الحق والحق يحرركم أجابوه: إننا ذرية إبراهيم ولم نستعبد لأحد قط كيف تقول أنت إنكم تصيرون أحراراً أجابهم يسوع الحق الحق أقول لكم إن كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية والعبد لا يبقى في البيت إلى الأبد أما الابن فيبقى إلى الأبد.

ثم قال: لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم».

٦- وقال بولس أكثر من مرة: إن الختان لا يجعل الإنسان ابناً لإبراهيم وإنما أبناؤه من يسلكون في خطوات الإيمان، وإن إبراهيم أب لنا جميعاً والله جعله أباً لأمم كثيرة.

هذا ما أتت به المسيحية في كتب العهد الجديد، عن إبراهيم الخليل. والملاحظ أن هذه الكتابات لم تذكر شيئاً عن سيرة إبراهيم وذريته فقد اقتصر على اعتبار إبراهيم من أصحاب الرسالات الدينية الخالدين فاستحق بذلك

ملكوت السموات ولذلك يردد المؤمن المسيحي: «اجعلني يا الله في حضن إبراهيم»، وأما في الإسلام فقد أتى القرآن الكريم على سيرة إبراهيم بكثير من التفصيل بحيث أعطت الآيات الكريمة وصفاً كاملاً لشخصية إبراهيم الفذة.

### عند الصابئة<sup>(١)</sup>

يبلغ عدد المنتمين إلى الصابئة بضعة آلاف يقيمون في الأقاليم الجنوبية من العراق، ويعتقد بعض المؤرخين أن وجودهم يرقى إلى عهد إبراهيم الخليل ومنهم فئة تحج إلى حاران التي هاجر إليها إبراهيم.

والصابئة مستقلة باللغة الدينية والكتابة الأبجدية، حروفهم تشبه الحروف النبطية ويدّعون أن لغتهم هي الآرامية.

أما معتقداتهم فهي خليط من جميع الأديان، فلا يعرف دين من الأديان إلا لهم فيه شعائر مشابهة لشعائر معتقيه.

والمشهور عن الصابئة أنهم يوقرون الكعبة في مكة. وهم لا يؤمنون بالأنبياء إلا فرقة واحدة منهم تذكر شيت وإدريس وإبراهيم ويحيى (يوحنا المعمدان) وهم يؤمنون بالله وباليوم الآخر وبالْحساب والعقاب وبأن الأبرار يذهبون بعد الموت إلى عالم النور (آلَمي دنهورو) وأن المذنبين يذهبون إلى عالم الظلام (آلَمي دهسوخا).

وكتابهم المقدس يسمى «كنزه» فهم يقدّسونه ويخفونه، لذلك كانت المعلومات عن أسرار ديانة الصابئة قليلة جداً فيما عدا خطوطها الكبرى ومنها تقدّيسهم لإبراهيم الخليل.

(١) هنا يجب أن نميز بين الصابئة عند المؤرخين، والصابئة في التنزيل الحكيم. فالصابؤون في التنزيل الحكيم هم كل من صبا عن ملة موسى وعيسى ومحمد (ص) أي بقية سكان أهل الأرض.

## المراجع

- د. أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، العربي للنشر، دمشق ط ١، مغفل التاريخ.
- زينون كاسيدوفسكي، الواقع والأسطورة في التوراة، ت: حسان إسحق، دار الأبجدية، دمشق ١٩٩٠.
- مفيد عرنوق، التوراة والتراث السوري، دار النضال، بيروت ١٩٨٦.
- د. بشار خليف، مملكة ماري وفق أحدث الكشوفات الأثرية، دار الرائي، دمشق ٢٠٠٥.
- د. بشار خليف، العبرانيون في تاريخ المشرق العربي القديم، دار الرائي، دمشق ٢٠٠٤.
- كتاب التوراة.
- الإنجيل.
- كمال الصليبي، خفايا التوراة، دار الساقى، بيروت، ط ٦، ٢٠٠٦.
- إسحق شيفمان، ثقافة أجاريت، ت: حسان اسحاق، دار الأبجدية، دمشق ١٩٨٩.





## لوط عليه السلام

هو لوط بن هاران بن تارح، أي أنه ابن أخ إبراهيم الخليل، حسب ما اتفق عليه أهل العهد القديم من الكتاب المقدس وعلماء الأنساب وأصحاب التواريخ (أنظر تاريخ الرسل والملوك للطبري ج ١ ص ٢٩٢).

وردت قصة لوط - شأن قصص باقي الأنبياء والرسل - مبثوثة في أربعة عشر سورة من التنزيل الحكيم أولها سورة الأنعام وآخرها سورة التحريم. وورد ذكره في ٢٧ موضعاً من التنزيل الحكيم أولها في قوله تعالى ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطاً وَكَلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام ٨٦)، وآخرها في قوله تعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ...﴾ (التحريم ١٠).

إن أول ما يستوقفنا في الجبر المستخلصة من قصة لوط، هو أن الله تعالى - في اصطفاء الأنبياء وبعث الرسل - لا يخضع لأي معيار زمني ومكاني. فقد يرسل نبياً واحداً لقوم بعينهم في مكان ما وزمان ما، ثم يرسل آخر إلى القوم أنفسهم في ذات المكان وإنما بعد فترة من الزمن، مثال ذلك موسى وعيسى. وقد يرسل نبيين معاً إلى قوم في مكان بعينه وزمان بعينه ليقوما بمهمة واحدة محددة، مثال ذلك موسى وهارون. وقد يرسل سلسلة أنبياء إلى قوم في مكان واحد يتوالون واحداً بعد الآخر دون فارق يذكر في الزمن، مثال ذلك إبراهيم وإسحق ويعقوب، وقد يرسل مجموعة أنبياء في وقت واحد إلى أمكنة مختلفة وأقوام متباينة، مثال ذلك إسماعيل وإسحق ولوط.

أما ثاني العبر المستخلصة من قصة لوط فنجدها في قوله تعالى ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ...﴾ (التحریم ١٠)، ثم قوله تعالى بعدها مباشرة ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ...﴾ (التحریم ١١)، ثم قوله تعالى ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا...﴾ (التحریم ١٢). ونلاحظ أنه سبحانه يذكر لنا أربع نساء، فيجعل أول اثنتين منهن مثلاً للذين كفروا، ويجعل ثاني اثنتين منهن مثلاً للذين آمنوا. والسؤال الآن: لماذا يفعل سبحانه ذلك وفي الرجال عشرات من أعلام الكفر وأئمة الإيـمان كان يمكن أن يضرب بهم الأمثال؟ والجواب: هذا درس لكل من يعلي شأن الذكر في المجتمع ويحط من شأن الأنثى، ولكل من يجعل المرأة تابعة للرجل رهينة لإرادته، ولكل من يزعم أنها ناقصة عقل ودين وأن الله خلقها من ضلع أعوج وأن المهمة الأولى والأخيرة للرجل هي تأديبها والأخذ على يدها.

أما ثالث العبر المستخلصة من قصة لوط كما وردت في التنزيل الحكيم فهي أن ما رأيناه عند عاد وثمود من تدمير يحل بفعل الكوارث الطبيعية عقاباً على فساد العقيدة (أي على الشرك أو على الإلحاد إطلاقاً) أصبح عقاباً على فساد العقيدة وفساد السلوك.

هذا الفساد في السلوك جاء على صور متعددة سواء في كتب الأخبار أم في التنزيل الحكيم. يقول تعالى في تنزيـله الحكيم ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ \* أَيَتُوكُمْ لَأَتُوكَ الرِّجَالُ وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُوكَ فِي نَكَادِكُمُ الْمُنْكَرَ...﴾ (العنكبوت ٢٨-٢٩). وينقل محمد بن جرير الطبري في تاريخه عن عمرو بن دينار قوله في تفسير آية العنكبوت ٢٨: «ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط» ص ٢٩٥ من المجلد الأول. ويقول الطبري في تفسير آية العنكبوت ٢٩: «...وأما إتيانهم ما كانوا يأتونه من المنكر في ناديم فإن أهل العلم اختلفوا فيه فقال بعضهم: كانوا يحذفون من يمر بهم، وقال بعضهم: كانوا يتضارطون في مجالسهم. وقال

بعضهم: كان بعضهم ينكح بعضاً فيها» (نفس المرجع ج ١ ص ٢٩٣)، ثم يختم الطبري قائلاً: «والصواب من القول في ذلك عندي قول من قال: عني بالمنكر الذي كانوا يأتونه في ناديتهم في هذا الموضع حذفهم من مر بهم وسخريتهم منه، للخبر الوارد بذلك عن رسول الله (ص) . . .» (نفس المرجع ج ١ ص ٢٩٥).

ونحن نفهم أن يختلف أهل العلم في تحديد المنكر الذي كان قوم لوط يأتونه في مجالسهم، فطالما اختلف هؤلاء على كل شاردة وواردة من التنزيل الحكيم، لكننا لا نفهم أبداً أن يرجح مفسر ومؤرخ عاقل كالطبري قول من قال بأنهم كانوا يحذفون المازة ويسخرون منهم<sup>(١)</sup> ويترك قول من قال بأنهم كانوا ينكحون بعضهم بعضاً في المجالس. ولا نفهم أن يأخذ بما قاله هذا البعض أو ذاك ويترك الأخذ بما قاله التنزيل الحكيم، فماذا يقول التنزيل الحكيم على لسان لوط لقومه؟

في الآية ٢٨ من سورة العنكبوت يتحدث لوط عن فاحشة معروفة عند سامعيه بدلالة آل التعريف، من المؤكد أنهم يأتونها بدلالة كلمة (إنكم)، بشكل لم يسبقهم إليه أحد.

ثم ينتقل في الآية ٢٩ إلى التوسع في تفصيل وتوصيف الفاحشة التي ورد ذكرها في الآية السابقة مجملًا، لشرح أنها:

١ - إتيان الذكر للذكر، ليميزها عن باقي الفواحش كالزنا والسحاق، وهذا معنى قوله ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾.

٢ - وأنها منكر يمارس علناً في المجالس والمنتديات والأماكن العامة. وهذا معنى قوله ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرُ﴾.

٣ - وأنها تصرف فاعلها عن الطريق الطبيعية التي رسمها سبحانه للتناكح بين

---

(١) الحذف: الرمي بالحصى نقياً، بأن يجعل الحاذف الحُصيّة بين سبّابته وإبهامه وينقها في وجه من أمامه، فإذا استعمل الحاذف الحجارة أصبح الحذف رجماً. ولقد نهى النبي (ص) عن الحذف في حديث رواه عبد الرزاق في مصنفه عن سعيد بن جبيرة إن صح، فانظره هناك.

الذكر والأنثى حفاظاً على النوع. وهذا معنى قوله ﴿وَقَطَّعُونَ السَّبِيلَ﴾، ولقد ورد بيان ذلك صراحة في موضع آخر من التنزيل الحكيم بقوله تعالى على لسان لوط لقومه ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ \* وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ إِنَّكُمْ لِقَوْمٍ غَادُونَ﴾ (الشعراء ١٦٥-١٦٦).

حين نظر المفسرون في الآية ٢٨ مسلوخة عما بعدها ظنوا أن عبارة ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ وصف للفاحشة التي ورد ذكرها في الآية، ومن هنا قال قائلهم: «ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط» (أنظر تاريخ الطبري ج ١ ص ٢٩٣)، بينما هي في حقيقة الأمر وصف للعلنية في المجالس والمنتديات. نقول هذا ونحن نعلم أن المثلية، سواء أكانت لواطاً بين ذكر وذكر أم كانت سحاقاً بين أنثى وأنثى، هي بالأصل شذوذ تكويني في هرمونات الذكورة لدى المفعول به في اللواط، واضطراب تكويني في هرمونات الأنوثة لدى الفاعلة في السحاق، يدفع الأول إلى التماس اللذة عند ذكر مثله، ويدفع الثانية إلى تفريغ شهوانيتها عند أنثى مثله، وهذا يعني أن اللواط كان موجوداً قبل قوم لوط بشكل غير علني وعلى الصعيد الفردي، إلا أنهم جعلوه ظاهرة عامة اجتماعية تمارس علناً في المجالس والمنتديات.

وحين نظر المفسرون في آية العنكبوت ٢٩ بعيداً عن سياقها وسياقها توهموا أنها تتحدث عن ثلاثة أفعال منكرة كل فعل منها قائم بذاته، هي: إتيان الرجال، وقطع السبيل، وإتيان المنكر في النوادي. ومن هنا قال قائلهم إن قطع السبيل هو قطع الطريق على المارة والمسافرين كما يفعل اللصوص. وأن المنكر في نواديهم هو أنهم كانوا يتضارطون.

وحين ننظر نحن في التنزيل الحكيم وهو يتحدث عن العقوبات التي أنزلها سبحانه بقوم لوط على شكل كوارث طبيعية تذكرنا بعاد وثمود:

أ - ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مِّنْ صُّورٍ﴾ (هود ٨٢).

ب - ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ \* فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ (الحجر ٧٣-٧٤).

ج - ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا عَالُ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ (القمر ٣٤).

د - ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرُ﴾ (القمر ٣٧).

فإننا لا نستطيع أن نفتتح بأن هذه الويلات المخيفة جاءت عقاباً على سيئة اجتماعية يصعب كثيراً أن نضعها تحت عنوان الفواحش، لأنها أقرب إلى الحسن والقبح منها إلى المعروف والمنكر في جانب، وأقرب إلى الأخلاق الاجتماعية المصطلح عليها منها إلى العقائد.

### لوط عليه السلام في التوراة

جاء ذكر لوط في سفر التكوين في التوراة مقروناً بسيرة عمه النبي إبراهيم عليه السلام حتى جاء أوان مغادرتهما لبعضهما البعض بعد أن ضاقت المراعي لمواشيها حيث اتجه لوط نحو منطقة سدوم التي كان سكانها على قدر جيد من السوء.

جاء في سفر التكوين:

الإصحاح الحادي عشر

٢٧ وَهَذِهِ مَوَالِيدُ تَارَحَ: وَلَدَ تَارَحُ أَبْرَامَ وَنَاحُورَ وَهَارَانَ. وَوَلَدَ هَارَانُ لُوطًا  
٢٨ وَمَاتَ هَارَانُ قَبْلَ تَارَحَ أَبِيهِ فِي أَرْضِ مِيلَادِهِ فِي أَوْرِ الْكَلْدَانِيِّينَ. ٢٩ وَأَتَّخَذَ  
أَبْرَامُ وَنَاحُورُ لَأَنْفُسِهِمَا امْرَأَتَيْنِ: اسْمُ امْرَأَةِ أَبْرَامَ سَارَائِي، وَاسْمُ امْرَأَةِ نَاحُورَ مِلْكَةُ  
بِنْتُ هَارَانَ، أَبِي مِلْكَةَ وَأَبِي يِسْكَةَ. ٣٠ وَكَانَتْ سَارَائِي عَاقِرًا لَيْسَ لَهَا وَلَدٌ.  
٣١ وَأَخَذَ تَارَحُ أَبْرَامَ ابْنَتَهُ، وَلُوطًا بَنَ هَارَانَ، ابْنَ ابْنِهِ، وَسَارَائِي كَنَّتُهُ امْرَأَةً أَبْرَامَ  
ابْنِهِ، فَخَرَجُوا مَعًا مِنْ أَوْرِ الْكَلْدَانِيِّينَ لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَاتُّوا إِلَى حَارَانَ  
وَأَقَامُوا هُنَاكَ.

الإصحاح الثاني عشر

١ وَقَالَ الرَّبُّ لِأَبْرَامَ: «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ. ٢ فَأَجْعَلْكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأَعْظِمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَهً. ٣ وَأُبَارِكَ مُبَارِكَكَ، وَلَا عِنَكَ أَلْعَنُهُ. وَتَتَبَارَكَ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الْأَرْضِ». ٤ فَذَهَبَ أَبْرَامُ كَمَا قَالَ لَهُ الرَّبُّ وَذَهَبَ مَعَهُ لُوطُ. وَكَانَ أَبْرَامُ ابْنُ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً لَمَّا خَرَجَ مِنْ حَارَانَ. ٥ فَأَخَذَ أَبْرَامُ سَارَايَ امْرَأَتَهُ، وَلُوطًا ابْنَ أَخِيهِ، وَكُلَّ مُقْتَنِيَاتِهِمَا الَّتِي اقْتَنَا وَالثَّقُوسَ الَّتِي امْتَلَكَا فِي حَارَانَ. وَخَرَجُوا لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتَوْا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ.

### الإصحاح الثالث عشر

١ فَصَعِدَ أَبْرَامُ مِنْ مِصْرَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ وَكُلُّ مَا كَانَ لَهُ، وَلُوطُ مَعَهُ إِلَى الْجَنُوبِ. ٢ وَكَانَ أَبْرَامُ غَنِيًّا جَدًّا فِي الْمَوَاشِي وَالْفِصَّةِ وَالذَّهَبِ. ٣ وَسَارَى فِي رِحْلَاتِهِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى بَيْتِ إِيلَ، إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَتْ خَيْمَتُهُ فِيهِ فِي الْبَدَاةِ، بَيْنَ بَيْتِ إِيلَ وَعَايَ، ٤ إِلَى مَكَانِ الْمَذْبَحِ الَّذِي عَمِلَهُ هُنَاكَ أَوَّلًا. وَدَعَا هُنَاكَ أَبْرَامُ بِاسْمِ الرَّبِّ.

٥ وَلُوطُ السَّائِرُ مَعَ أَبْرَامَ، كَانَ لَهُ أَيْضًا غَنَمٌ وَبَقَرٌ وَخِيَامٌ. ٦ وَلَمْ تَحْتَمِلْهُمَا الْأَرْضُ أَنْ يَسْكُنَا مَعًا، إِذْ كَانَتْ أَمْلَاكُهُمَا كَثِيرَةً، فَلَمْ يَقْدِرَا أَنْ يَسْكُنَا مَعًا. ٧ فَحَدَّثَتْ مُخَاصَمَةً بَيْنَ رُعَاةِ مَوَاشِي أَبْرَامَ وَرُعَاةِ مَوَاشِي لُوطِ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ وَالْفَرِزِّيُّونَ حِينِيذَ سَاكِنِينَ فِي الْأَرْضِ. ٨ فَقَالَ أَبْرَامُ لِلُّوطِ: «لَا تَكُنْ مُخَاصِمَةً بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ رُعَاتِي وَرُعَاتِكَ، لِأَنَّنَا نَحْنُ أَخَوَانِ. ٩ أَلَيْسَتْ كُلُّ الْأَرْضِ أَمَامَكَ؟ اغْتَرِلْ عَنِّي. إِنْ ذَهَبْتَ شِمَالًا فَأَنَا يَمِينًا، وَإِنْ يَمِينًا فَأَنَا شِمَالًا».

١٠ اِفْرَعْ لُوطُ عَيْنَيْهِ وَرَأَى كُلَّ دَائِرَةِ الْأَرْضِ أَنَّ جَمِيعَهَا سَفْيٌ، فَلَمَّا أَخْرَبَ الرَّبُّ سَدُومَ وَعَمُورَةَ، كَجَزَاءِ الرَّبِّ، كَأَرْضِ مِصْرَ. حِينَمَا تَعْجِيءُ إِلَى صُوغَرَ. ١١ فَأَخْتَارَ لُوطُ لِنَفْسِهِ كُلَّ دَائِرَةِ الْأَرْضِ، وَارْتَحَلَ لُوطُ شَرْقًا. فَأَغْتَرَلَ الْوَاحِدُ عَنِ الْآخَرِ. ١٢ أَبْرَامُ سَكَنَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، وَلُوطُ سَكَنَ فِي مُدُنِ الدَّائِرَةِ، وَنَقَلَ خِيَامَهُ إِلَى سَدُومَ. ١٣ وَكَانَ أَهْلُ سَدُومَ أَشْرَارًا وَخُطَاةً لَدَى الرَّبِّ جَدًّا.

### الإصحاح الرابع عشر

١ وَحَدَّثَ فِي أَيَّامِ أَمْرَافَلِ مَلِكِ شِنْعَارَ، وَأَزْيُوكَ مَلِكِ الْأَسَارَ، وَكَدَزَلَعُومَرَ  
مَلِكِ عِيلَامَ، وَتَدْعَالَ مَلِكِ جُويِيمَ، ٢ أَنَّ هَؤُلَاءِ صَنَعُوا حَرْبًا مَعَ بَارَعَ مَلِكِ  
سَدُومَ، وَبِرْشَاعَ مَلِكِ عَمُورَةَ، وَشِنَابَ مَلِكِ أَدَمَةَ، وَشِمْشِيرَ مَلِكِ صَبُويِيمَ، وَمَلِكِ  
بَالَعَ الَّتِي هِيَ صُوعَرُ. ٣ جَمِيعُ هَؤُلَاءِ اجْتَمَعُوا مُتَعَاهِدِينَ إِلَى عُمُقِ السَّدِيمِ الَّتِي  
هُوَ بَحْرُ الْمِلْحِ. ٤ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً اسْتَعْبَدُوا لِكَدَزَلَعُومَرَ، وَالسَّنَةِ الثَّالِثَةِ عَشْرَةَ  
عَصَوْا عَلَيْهِ. ٥ وَفِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ أَتَى كَدَزَلَعُومَرُ وَالْمُلُوكُ الَّذِينَ مَعَهُ وَضَرَبُوا  
الرَّقَائِيْنَ فِي عَشْتَارُوتَ قَرْنَايِمَ، وَالزُّوزِيْنَ فِي هَامَ، وَالْإِيْمِيْنَ فِي شَوَى قَرْيَتَايِمَ،  
٦ وَالْحُورِيْنَ فِي جَبْلِهِمْ سَعِيرَ إِلَى بَطْمَةِ فَارَانَ الَّتِي عِنْدَ الْبَرِّيَّةِ. ٧ ثُمَّ رَجَعُوا  
وَجَاءُوا إِلَى عَيْنِ مِشْفَاطِ الَّتِي هِيَ قَادِشُ. وَضَرَبُوا كُلَّ بِلَادِ الْعَمَالِقَةِ، وَأَيْضًا  
الْأُمُورِيِّينَ السَّاكِنِينَ فِي حَصُونِ تَامَارَ.

٨ فَخَرَجَ مَلِكُ سَدُومَ، وَمَلِكُ عَمُورَةَ، وَمَلِكُ أَدَمَةَ، وَمَلِكُ صَبُويِيمَ، وَمَلِكُ  
بَالَعَ، الَّتِي هِيَ صُوعَرُ، وَنَظَّمُوا حَرْبًا مَعَهُمْ فِي عُمُقِ السَّدِيمِ. ٩ مَعَ كَدَزَلَعُومَرَ  
مَلِكِ عِيلَامَ، وَتَدْعَالَ مَلِكِ جُويِيمَ، وَأَمْرَافَلِ مَلِكِ شِنْعَارَ، وَأَزْيُوكَ مَلِكِ الْأَسَارَ.  
أَرْبَعَةُ مُلُوكَ مَعَ خَمْسَةِ. ١٠ وَعُمُقُ السَّدِيمِ كَانَ فِيهِ آبَارُ حُمُرٍ كَثِيرَةٌ. فَهَرَبَ مَلِكَا  
سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَسَقَطَا هُنَاكَ، وَالبَاقُونَ هَرَبُوا إِلَى الْجَبَلِ. ١١ فَأَخَذُوا جَمِيعَ أَمْلَاكِهِ  
سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَجَمِيعَ أَطْعَمَتِهِمْ وَمَضَوْا. ١٢ وَأَخَذُوا لُوطًا ابْنَ أَخِي أَبْرَامَ وَأَمْلَاكُهُ  
وَمَضَوْا، إِذْ كَانَ سَاكِنًا فِي سَدُومَ.

١٣ فَأَتَى مَنْ نَجَا وَأَخْبَرَ أَبْرَامَ الْعِبرَانِيَّ. وَكَانَ سَاكِنًا عِنْدَ بِلُوطَاتٍ مَمْرَا  
الْأُمُورِيِّ، أَخِي أَشْكُولَ وَأَخِي عَايِرَ. وَكَانُوا أَصْحَابَ عَهْدٍ مَعَ أَبْرَامَ. ١٤ فَلَمَّا  
سَمِعَ أَبْرَامُ، أَنَّ أَخَاهُ سُبِّيَ جَرَّ غِلْمَانَهُ الْمُتَمَرِّينَ، وَلِدَانِ بَيْتِهِ، ثَلَاثَ مِئَةٍ وَثَمَانِيَةَ  
عَشَرَ، وَتَبِعَهُمْ إِلَى دَانَ. ١٥ وَأَنْقَسَمَ عَلَيْهِمْ لَيْلًا هُوَ وَعَبِيدُهُ فَكَسَّرَهُمْ وَتَبِعَهُمْ إِلَى  
حُوبَةِ الَّتِي عَنْ شِمَالِ دِمَشْقَ. ١٦ وَاسْتَرْجَعَ كُلُّ الْأَمْلَاكِ، وَاسْتَرْجَعَ لُوطًا أَخَاهُ  
أَيْضًا وَأَمْلَاكُهُ، وَالنِّسَاءُ أَيْضًا وَالشَّعْبُ.



إن قصة لوط في التوراة تتشابه مع القصة القرآنية، غير أنها تفتقر عنها في أن القصة التوراتية لم تشر إلى عرض لوط بناته على القوم الراغبين بالرجال المرد\ الملائكة\.

ويخلو كتاب الإنجيل من ذكر النبي لوط إلا فيما ورد في إنجيل لوقا حيث

يرد :

#### الإصحاح السابع عشر

٢٦ وَكَمَا كَانَ فِي أَيَّامِ نُوحٍ كَذَلِكَ يَكُونُ أَيْضًا فِي أَيَّامِ ابْنِ الْإِنْسَانِ: ٢٧ كَانُوا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَيَزَوِّجُونَ وَيَتَزَوَّجُونَ، إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ دَخَلَ نُوحُ الْفُلَّكَ، وَجَاءَ الطُّوفَانُ وَأَهْلَكَ الْجَمِيعَ. ٢٨ كَذَلِكَ أَيْضًا كَمَا كَانَ فِي أَيَّامِ لُوطٍ: كَانُوا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَيَشْتَرُونَ وَيَبِيعُونَ، وَيَغْرُسُونَ وَيَبْنُونَ. ٢٩ وَلَكِنَّ الْيَوْمَ الَّذِي فِيهِ خَرَجَ لُوطٌ مِنْ سَدُومَ، أَمَطَرَ نَارًا وَكِبْرِيَةً مِنَ السَّمَاءِ فَأَهْلَكَ الْجَمِيعَ. ٣٠ هَكَذَا يَكُونُ فِي الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ يَظْهَرُ ابْنُ الْإِنْسَانِ. ٣١ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَنْ كَانَ عَلَى السَّطْحِ وَآمَتَعَتُهُ فِي الْبَيْتِ فَلَا يَنْزِلْ لِيَأْخُذَهَا، وَالَّذِي فِي الْحَقْلِ كَذَلِكَ لَا يَرْجِعْ إِلَى الْوَرَاءِ. ٣٢ اذْكُرُوا امْرَأَةَ لُوطٍ! ٣٣ مَنْ طَلَبَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ أَهْلَكَهَا يُحْيِيهَا. ٣٤ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ يَكُونُ اثْنَانِ عَلَى فِرَاشٍ وَاحِدٍ، فَيُؤْخَذُ الْوَاحِدُ وَيَتْرَكَ الْآخَرُ. ٣٥ تَكُونُ اثْنَتَانِ تَطْحَنَانِ مَعًا، فَيُؤْخَذُ الْوَاحِدُ وَيَتْرَكَ الْآخَرُ. ٣٦ يَكُونُ اثْنَانِ فِي الْحَقْلِ، فَيُؤْخَذُ الْوَاحِدُ وَيَتْرَكَ الْآخَرُ. ٣٧ فَأَجَابُوا وَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ يَا رَبُّ؟» فَقَالَ لَهُمْ: «حَيْثُ تَكُونُ الْجُثَّةُ هُنَاكَ تَجْتَمِعُ النُّسُورُ».

#### الحقيقة العلمية الجيولوجية والأثرية لموقع سدوم وعمورة

تُعتبر منطقة البحر الميت أو بحيرة لوط منطقة زلزالية نشطة أي منطقة زلازل وهي تقع في صدع تكتوني متجذر ويمتد هذا الوادي ٣٠٠ كم على طول الوتر الواصل بين البحر الميت وبحيرة طبريه شمالاً إلى منتصف وادي عربة جنوباً.

يقول عالم الآثار الألماني ورنر كيلر: غاص وادي سديم الذي يتضمن سدوم

وعمورة مع الشق العظيم الذي يمر تماماً في هذه المنطقة في يوم واحد إلى أعماق سحيقة. حدث هذا الدمار بفعل هزة أرضية عنيفة صاحبته عدة انفجارات، وأضواء نتج عنها غاز طبيعي وحريق شامل. ولاحظ من خلال دراساته الجيولوجية والأثرية أن مدينتي سدوم وعمورة كانتا تقعان في وادي سديم.

وقد قامت عدة فرق تنقيبية متخصصة بدراسة المكان وتعرّفت على تلك القرى التي احترقت بحرارة رهيبية وصلت إلى ٥٠٠٠ درجة مئوية حوّلت معها كل شيء حتى الذهب والزجاج وجدّران المباني إلى رماد. وتوصلت إلى أن الموقع الصحيح للقرية التي حصلت فيها الكارثة هو قرية سدوم عند سفح جبل سدوم في الضفة الجنوبية للبحر الميت. وقد تم اكتشاف مصكوكات ذهبية متحولة لأملاح الذهب بسبب احتراق الذهب بالنيران الحارقة التي ابتلعت المكان وحولت الذهب بمختلف استخداماته إلى رماد الذهب.

ويشير خبراء الجيولوجيا أن المنطقة قد حصل لها زلزال عنيف مكن المواد الجوفية للأرض كالألغام المنصهرة من الصعود إلى الأعلى بعد تشقق الأرض بسبب عنف الزلزال ليدخل على المكان ويصهره تماماً، فلقد اكتشف المسّاحون بعض المواد الأسفلتية (bitumen) والنفطية (petroleum) والغاز الطبيعي (natural gas) والكبريت (sulfur). تلك القرى تقع تماماً على الخط الصدعي الفاصل (major fault line) بين الصدعين العربي والأفريقي والواقع تماماً إلى الشرق من البحر الميت.

يقول كيلر: «تحررت القوى البركانية التي كانت هادمة في الأعماق على طول الصدع من ذلك الغور، ولا تزال قوّات البراكين الخاملة تبدو ظاهرة في الوادي العلوي من الضفة الغربية، بينما تترسب هنا الحمم البركانية وتتوضع طبقات عميقة من البازلت على مساحة واسعة من السطح الكلسي. تدل هذه الحمم المتحجرة وطبقات البازلت على تعرّض هذه المنطقة لهزة

عنيفة وبركان ثائر في زمن من الأزمنة، وتبدو هذه الكارثة بالسياق القرآني ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجَالٍ مَّنْضُودٍ﴾ فالقرآن يشير، على أغلب الظن إلى هذا الانفجار البركاني.

الدلائل البيّنة والآيات الواضحة التي تظهر في بحيرة لوط مثيرة للغاية. بشكل عام تقع كل الأحداث التي يرويها القرآن في الشرق الأوسط، الجزيرة العربية ومصر، في منتصف هذه المناطق تماماً تقع بحيرة لوط. وقد أثارت بحيرة لوط والمناطق المجاورة لها اهتمام الجيولوجيين، إذ تنخفض هذه البحيرة ٤٠٠ متراً عن سطح البحر الأبيض المتوسط، وبما أن أخفض نقطة في هذه البحيرة تغوص حتى ٤٠٠ متراً عن سطحها، إذن فقاع البحيرة يكون بانخفاض ٨٠٠ متراً عن سطح البحر، وهذه أخفض نقطة على وجه الأرض، لا يتعدى عمق المناطق المنخفضة عن سطح البحر في البحر أكثر من ١٠٠ متر. الخاصية الأخرى التي تختص بها هذه البحيرة دون غيرها هي الكثافة الملحية فيها والتي تبلغ ٣٠٪، ولا تسمح هذه النسبة لأي نوع من الكائنات البحرية مثل الأسماك، والطحالب، والإشنيات وما إلى ذلك بالعيش فيها، ولهذا سُمّيت بالبحر الميت.

وحسب التقديرات: فإن قصة قوم لوط التي يرويها القرآن تعود إلى ١٨٠٠ قبل الميلاد، من أكثر الخصائص النبوية لهذه البحيرة هو ذلك الدليل الذي يظهر واقعة الدمار كما رواها القرآن.

تبدو آثار قوم لوط واضحة... عندما تبخر في قارب عبر بحيرة لوط إلى أقصى نقطة جنوباً، وعندما تكون الشمس مرسلّة أشعتها باتجاه اليمين، سترى شيئاً مذهلاً، على بعد معيّن من الشاطئ، وتحت ماء البحر الصافي تظهر حدود الغابات التي حفظتها ملوحة البحر الميت بشكل واضح: أغصان قديمة جداً، وجذور ضاربة في القدم تحت المياه الخضراء المتلاثة.

كان من المعتقد أن تدمير سدوم وعمورة من الأمور الخيالية. حتى كشف الدليل الأثري أن الخمس مدن المذكورة بالتوراة كانت بالفعل مراكز تجارية نشطة بالمنطقة، وكانت مواقعها الجغرافية هي بالضبط كما وصف الكتاب المقدس.

وكذلك يظهر أن وصف التوراة لنظام الحكم يبدو أنه ليس أقل دقة . تشير الأدلة أيضاً إلى تواجد نشاط بركاني ، وأن طبقات الأرض المختلفة قد انفجرت وتشّتت عالياً في الهواء . فالبيتوفين منتشر بدرجة عالية هناك ، والوصف الدقيق يبرهن على أن الكبريت (أحد مخلفات البيتوفين) قد سقط على تلك المدن التي تحدّت لوط بقولها له ﴿... أَتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلَلَّهُ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ (العنكبوت ٢٩).

### المراجع :

- كتاب التوراة - كتاب الإنجيل .



## إسماعيل وإسحق عليهما السلام

هو إسماعيل بن إبراهيم بن تارح (أمه هاجر)، رسول الله ونبيّه بدلالة قوله تعالى ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا \* وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (مريم ٥٤-٥٥). ورد ذكره في اثني عشر موضعاً من التنزيل الحكيم، أولها في قوله تعالى ﴿... وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَيِّفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البقرة ١٢٥)، وآخرها في قوله تعالى ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ (ص ٤٨).

أما إسحق فهو ابن إبراهيم بن تارح (أمه سارة)، نبيّ الله بدلالة قوله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الصافات ١١٢). ورد ذكره في سبعة عشر موضعاً من التنزيل الحكيم أولها في قوله تعالى ﴿... قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَكُم مُّسْلِمُونَ﴾ (البقرة ١٣٣)، وآخرها في قوله تعالى ﴿وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ (ص ٤٥).

لقد ارتبط ذكر إسماعيل (ع) في التنزيل الحكيم، كنيّ، بمسألتين: الأولى، تطهير البيت المحرّم مما يدنّسه من أوثان وأقدار، ورفع ما فيه من إشغالات ليعود - كما أراد الله له - مكاناً للطواف والاعتكاف وإقامة الصلاة. والثانية، تحريم تقديم القرابين البشرية فيه كما كان سائداً، واستبدالها بقرابين حيوانية ونباتية.

هاتان المسألتان تحققنا على يد إبراهيم وكان لإسماعيل فيهما دور أساسي وهام شرحناه في قصة إبراهيم بالتفصيل . كما ارتبط اسمه بالزكاة التي نجدها تذكر معه لأول مرة في التنزيل الحكيم مقرونة بالصلاة في الآية ٥٥ من سورة مريم ، ولم تذكر مع أي من غيره من الأنبياء والرسل السابقين . ولهذا جمع فيه سبحانه النبوة والرسالة بصراحة حرفية واضحة في الآية ٥٤ من سورة مريم . بينما لم يزد وصف إسحق في جميع المواضع التي ذكر فيها أنه نبي مهدي صالح يوحى إليه .  
إننا - بمنتهى المرارة - لم نجد أحداً من أهل الأخبار ولا من أصحاب كتب قصص الأنبياء استوقفه ذكر الزكاة لأول مرة في التنزيل الحكيم وهو يتحدث عن إسماعيل ، ولم نجد أحداً استوقفه الرقم ١٢ في أخبار عدد من الأنبياء والرسل أولهم إسماعيل :

- ١ - ذكر إسماعيل في مواضع من التنزيل الحكيم عددها ١٢
- ٢ - رزق إسماعيل من الأبناء الذكور ١٢
- ٣ - كان عدد أبناء يعقوب بما فيهم يوسف ١٢
- ٤ - أسباط بني إسرائيل عددهم ١٢
- ٥ - عدد العيون التي انبجست لموسى من الحجر ١٢
- ٦ - أصحاب المسيح من الحوارين كانوا ١٢
- ٧ - عدد أئمة الشيعة بعد العصر النبوي كان ١٢
- ٨ - خلق الله السموات والأرض في ستة أيام ، أي نصف العدد ١٢
- ٩ - كفارة الظهار إطعام ستين مسكيناً ، أي خمسة أضعاف العدد ١٢
- ١٠ - أقسام الزمان ، كعدد شهور السنة مثلاً هي ١٢
- ١١ - أقسام المكان (الكرة الأرضية والقبة السماوية) ٣٦٠ من ١٢
- مضاعفات الرقم ١٢

وغيرها مما يضيق المجال عن حصره .

لقد صرفهم عن هذا كله الاشتغال بما شغل به هامانات بني إسرائيل في تواريخهم وتفاسيرهم . فإذا نحن تصفّحنا كتب التاريخ - كالبداية والنهاية لابن

كثير وتاريخ الرسل والملوك للطبري - وكتب قصص الأنبياء في أخبار إسماعيل وإسحق، وجدناها لا تخرج إلا فيما ندر عن ثلاثة محاور رئيسية:  
الأول، من منهما كان بكر أبيه إبراهيم، إسماعيل ابن هاجر أو إسحق ابن سارة؟

الثاني، من منهما كان الذبيح المفدى، الذي خاطبه إبراهيم بقوله ﴿قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَى﴾ (الصافات ١٠٢)؟.  
الثالث، المحاولات البائسة للتوفيق بين الأخبار المتعارضة بعد أن انقسم المفسرون إلى قسمين وهم يجيبون عن السؤالين السالفين، وإزالة التناقض بين الأحاديث النبوية التي يحتج بها كل قسم تأييداً لمذهبه.

نحن أمام قصتين ترويان أخبار إسماعيل وإسحق وأبيهما إبراهيم، الأولى قرآنية نجد بعض تفاصيلها مبثوثة في آيات اثنتي عشرة سورة من التنزيل الحكيم بالنسبة لإسماعيل وإسحق، وفي آيات خمس وعشرين سورة بالنسبة لإبراهيم، والثانية توراتية نجدها في سبعة عشر إصحاحاً من سفر التكوين في العهد القديم من الكتاب المقدس. وأمام قصة ثلاثة هجينة لا هي بالقرآنية ولا بالتوراتية نجدها في كتب التفسير عند أهل التوراة كالتلمود بقسميه: المشنا والجمارا.

إننا حين نلتزم القصة القرآنية في مسألة البكر والذبيح - بحكم انتمائنا العقائدي - لا يهمنّا مطلقاً أن نبرهن على تحريف التوراة، لفظاً أو تأويلاً أو توظيفاً، الذي تناوله عدد من الباحثين الإسلاميين وغير الإسلاميين بالكثير من التفصيل، بقدر ما يهمنّا أن نبين العظات والعبر التي أمرنا سبحانه أن نلتمسها في القصة القرآنية بقوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ...﴾ (يوسف ١١١)، وأن نشرح كيف غابت هذه العبر وتلك العظات عن أهل التفسير وأصحاب التواريخ وهم يحشون كتبهم بإسرائيليات تلمودية تحت غطاء حديث نبوي رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو - إن صحّ - أن النبي (ص) قال: «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده في النار».



رغم الإيجاز الشديد في القصة القرآنية، والاجتناب المقصود للتفاصيل في أسماء الأماكن والأشخاص، والابتعاد عن التراتبية الزمانية في وقوع الأحداث، إلا أنها تقرر عدداً من الثوابت التي لا يسع القارئ إلا أن يأخذها بعين الاعتبار، فلا يتجاهلها ولا يغفل عنها، وهو يقرأ القصة ليفهمها أولاً على الوجه الذي ينبغي له أن يفهمها عليه، وليقف ثانياً على ما فيها من عبر وعظات ومقاصد.

يقول تعالى على لسان إبراهيم ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ...﴾ (إبراهيم ٣٧). ونفهم من هذا الجزء الأول من الآية عدداً من الأمور، أولها: قوله (أسكنت). وكأني بإبراهيم - وهو يستخدم هذه الكلمة بالذات بما فيها من معاني السكينة والاستقرار - يشعر بأنه ليس مجرد عابر سبيل لهذه البقعة من الأرض وأنها ليست مجرد محطة مؤقتة سيمتركها كما ترك قبلها العديد من المحطات في رحلة بحثه عن ربه. ثانيها: قوله (من ذريتي). ونفهم أن لإبراهيم أولاداً - لعل من بينهم إسحق - لم يأت بهم معه، ثالثها: قوله (بواد غير ذي زرع) ونفهم أن المنطقة التي أسكن بها إبراهيم بعض ذريته هي واد قاحل لأنبات فيه ولا يمكن زراعة أي شيء فيه لانعدام أهم لوازم الزراعة من تربة وماء. ولكنه مع ذلك ليس برية جرداء لا أناس فيها، وإلا لما خطر لإبراهيم أن يطمئن فيها ويستقر. فإبراهيم أولاً وآخرأ ليس ذنباً متوحداً يعشق التفرد والانعزال، بل هو إنسان اجتماعي بطبعه لا يتحقق له الاطمئنان والاستقرار إلا بين أمثاله من الناس. ولو كانت المسألة عنده مجرد بركة مجدبة جافة مهجورة لا أحد فيها لوجد ضالته في واحدة من عشرات البراري التي اجتازها قبل وصوله إلى هناك. المنطقة - إذن - واد غير ذي زرع لكنه مأهول بالناس. وهذا يجعل كلمة (أسكنت) تأتي في سياقها الصحيح. والسؤال الآن: ما الذي حوّل هذا الوادي القاحل إلى مكان مأهول، والمعروف عن الجماعات الإنسانية - منذ كانت جماعات بشرية - أنها لا تلتمس لمقامها إلا الخصب من الأراضي المروية؟ والجواب يأتي في رابع الأمور التي تستوقفنا في الجزء الأول من آية إبراهيم ٣٧، أي في قوله (عند بيتك المحرم)، فنحن أمام بيت مُعَرَّف بالإضافة

والكاف فيه تعود إلى الله، وأمام صفة لهذا البيت مُعَرَّفَةٌ بِأَلِ التعريف معناها المقدس المنزه عن كل ما يصيب ويشين. ونفهم أن ثمة بيتاً مقدساً لله في الوادي القاحل معروفاً عند الناس، أرشد الله إبراهيم إليه وأمره بتطهيره.

ويقول تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ \* فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا...﴾ (آل عمران ٩٦-٩٧). فإذا جمعنا ذلك إلى قوله تعالى ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (الحج ٢٦)، وإلى قوله تعالى ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ...﴾ (المائدة ٩٧)، وضح لدينا بما لا يقبل الشك الموقع الجغرافي لبيت الله المحترم الذي أسكن إبراهيم عنده بعض ذريته في واد غير ذي زرع.

يقول تعالى على لسان إبراهيم ﴿... وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَيْثٍ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (العنكبوت ٢٦). من هنا تبدأ قصة رحلة رجل عرف أن له رباً ليس كباقي الأرباب عليه أن يهاجر إليه بعد أن لقي من قومه ما لقي من صنوف الصد والإعراض والأذى، ونقف متأملين عند كلمة (مهاجر).

الهاء والجيم والراء (ه ج ر) أصل ثلاثي في اللسان ومفردة قرآنية وردت مشتقاتها في واحد وثلاثين موضعاً من التنزيل الحكيم، أولها في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَؤُلِيكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ...﴾ (البقرة ٢١٨)، وآخرها في قوله تعالى ﴿وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرْ﴾ (المدثر ٥). والهجر بفتح الهاء هو القطع خلاف الوصل ومنه قوله تعالى ﴿... وَأَهْجُرُوهُمْ فِي أَلْمَصَاجِعِ...﴾ (النساء ٣٤)، وهو الترك خلاف الملازمة ومنه قوله تعالى على لسان آزر لربيّه إبراهيم ﴿... وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (مريم ٤٦)، وهو الانتقال من مكان لآخر ومن بلدة إلى أخرى ومنه قوله تعالى ﴿... قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا...﴾ (النساء ٩٧).

يقول تعالى على لسان إبراهيم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ

وإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ أَلَدَعْلَهُ (إبراهيم ٣٩) ونفهم أن إبراهيم دعا ربه فوهبه ابنين هما إسماعيل وإسحق، ولم يذكر التنزيل الحكيم صراحة أيهما بكر أبيه، لكننا نلاحظ في كل موضع ذكرا فيه معاً أن اسم إسماعيل يسبق دائماً اسم إسحق، وهذا إن لم يكن دليلاً على أن إسماعيل هو البكر، إلا أنه مؤشر أول.

المؤشر الثاني يأتي من الأخبار التاريخية التي تؤيدها إشارات نجدها في آيات القصص من جانب وتنسجم مع طبائع الأمور والأحداث من جانب آخر. فلا خلاف بين أهل الأخبار على أن زوجة إبراهيم الأولى كانت عجوزاً عقيماً لا تلد<sup>(١)</sup>، وأنها أهدت جاريتها لزوجها لعلها تنجب له ولداً، وهذا ما حصل فعلاً، فكان المنطق المعقول يقضي بأن يكون ابن الجارية هو بكر أبيه.

يقول تعالى ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسَ رَتَبًا يَبْسُورُهَا بِإِسْحَاقَ وَرَأَى إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ \* قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ \* قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ...﴾ (هود ٧١-٧٣). ولم تقتصر البشري بمولد إسحق على الأم الوالدة فقط، بل نجد بشارة مماثلة تحملها رسل الله إلى الأب الوالد في قوله تعالى ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الصافات ١١٢).

ويقول تعالى ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَالِمٍ﴾ (الحجر ٥٣) ويقول في موضع آخر ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ عَالِمٍ﴾ (الصافات ١٠١). ونفهم أن الغلام في الآية الأولى غير الغلام في الآية الثانية بداليتين. الأولى، هي السباق والسياق. فالناظر في آيات الحجر (٥١-٥٦) وفي آيات الصافات (٩٩-١٠٨) يشعر

(١) هنا علينا أن نبيّن الفرق بين العقيم والعاقرة، فالعقيم هو وضع لا أمل منه، والمرأة العجوز تبلغ وضع العقم لأنها لا تلد ولا يوجد عندها دورة شهرية (بويضات) لذا قالت امرأة إبراهيم (عجوز عقيم). بينما العاقرة عندها مانع من الحمل، وقد تكون شابة كزوجة زكريا لذا قال عنها ﴿فأصلحنا له زوجته﴾ بينما قال عن امرأة إبراهيم ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ ثم أتبعها بالآية التي قبلها بقوله ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسَ رَتَبًا يَبْسُورُهَا بِإِسْحَاقَ﴾. وعند العرب عندما تأتي الدورة الشهرية لإمرأة فإنها تفرح لأنها ما زالت ولوداً، فهنا (ضحكت) أي جاءها الطمث ومباشرة قال ﴿فبشرناها بإسحق﴾.

بوضوح أن الحديث يدور على غلامين مختلفين في سياقين مختلفين. والثانية أن الغلام الأول في آية الحجر عليم، والإشارة هنا واضحة إلى إسحق لأن النبوة علوم وإسحق نبي بدلالة آية الصافات ١١٢. أما الغلام الثاني في آية الذاريات ١٠١ فحلیم، والإشارة هنا واضحة إلى إسماعيل لأن الحلم - كصفة إنسانية - يعني الصبر على الشدائد وإسماعيل من الصابرين بدلالة قوله تعالى ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنبياء ٨٥)، وبدلالة قوله تعالى على لسان إسماعيل لأبيه ﴿يَتَأْتِيَ أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات ١٠٢).

في ضوء هذه الثوابت ننظر في الآيتين ١ و ٢ من الإصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين لنجدهما تقولان: «وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم. فقال له يا إبراهيم فقال ها أنذا. فقال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق وإذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك إلى محرقة على أحد الجبال الذي أقول له». أه.

ثمة أمور ثلاثة في الآيتين التوراتيتين المذكورتين أعلاه تستحق الوقوف عندها. أولها، أن إسحق وحيد أبيه المحبوب. ثانيها، أنه الذبيح المفتدى. ثالثها أن مسرح أحداث امتحان الله لإبراهيم هو في أرض فلسطين.

بالنسبة للأمر الأول، تقول الآية ١٨ و ١٩ من الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين في العهد القديم: «قال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك، فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحق...» أه. أضف إلى ذلك أن الآية ١٧ من الإصحاح نفسه تقرر أن عمر إبراهيم كان مئة سنة حين رزقه الله بإسحق، والآية ١٦ من الإصحاح السادس عشر تقرر أن عمره كان ٨٦ سنة حين ولدت له هاجر إسماعيل. وهذا كله يناقض ما قررته الآيتان ١ و ٢ من الإصحاح الثاني والعشرين من أن إسحق وحيد أبيه. لكن لأهل التلمود رأياً مسكوتاً عنه يبرر عندهم هذا التناقض الواضح في كتابهم المقدس.

هذا الرأي يتجسد في نقطتين. أولاًهما، أن المجتمع اليهودي - في كل

زمان ومكان - مجتمع أمومة يقوم على رابطة الرحم وليس على رابطة النسب، أي أن يهودية الأم هي التي تقرر يهودية الأبناء وهي التي تعطيهم الحق بأن يكونوا من شعب الله المختار. الثانية، أن المجتمع اليهودي - أيضاً في كل زمان ومكان - يقوم على تمييز طبقي متطرف حاد من جانب، وعلى تمييز عقائدي متطرف حاد من جانب آخر. من هنا كان إسماعيل عندهم نبياً من الدرجة الثانية، لأن أمه جارية مملوكة من جهة، وغير يهودية من جهة ثانية، ولا يمكن أن ينخصه ربه بمثل هذه المكرمة العظيمة، ونقرأ نص الآيتين ٢٠ و ٢١ من الإصحاح السابع عشر: «وأما إسماعيل فقد سمحت له فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً، إثني عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة. ولكن عهدي أقيم مع إسحق الذي تلده له سارة...» أه.

كان لا بدّ - بالنسبة للأمر الثاني والثالث - وهم يحاولون طمس دور إسماعيل إلى جانب أبيه عند بيت الله المحرم، وفضله في حفر زمزم، وفضل أمه هاجر في إرساء شعيرة السعي بين الصفا والمروة، وفضله في تطهير البيت العتيق للطائفين والعاكفين والركع السجود، ثم فضله في الصبر على أمر الله وفي طاعته لأبيه وهو يأخذ بناصيته ليذبحه قرباناً لربه. وكان لا بدّ وهم يحاولون رد الاعتبار لإسحق بعد أن اختار تعالى إسماعيل للدخول في امتحان وصفه الله سبحانه بأنه البلاء المبين في آية الصافات ١٠٦، من أن يبدلوا مسرح الأحداث فيجعلوه على قمة أحد جبال أرض المريا في الشام، وليس في واد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم في مكة من أرض العرب، غير عابئين بالإجابة عن سؤال ينتج بالضرورة عن هذا التبديل: كيف يمكن لإبراهيم أن يتواجد بوقت واحد في مكانين متباعدين يفصل بينهما جبال ووديان وبراري، مع إسحق وسارة في أرض الشام ومع إسماعيل وهاجر في أرض العرب؟ الطريف أن أصحاب التواريخ وأهل التفسير من الأمة المحمدية هم الذين تطوعوا من عندهم بالإجابة عن هذا السؤال وحل هذه الإشكالية. يقول الإمام الطبري في تاريخ الرسل والملوك (ج ١ ص ٢٧٣): «كان إبراهيم فيما يقال إذا زارها - يعني هاجر - حُمِلَ على البُرّاق

يغدو به من الشام فيقبل بمكة ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام، حتى إذا بلغ معه السعي (أي إسحق) وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يأمل فيه من عبادة ربه وتعظيم حرماته أرى في المنام أنه يذبحه» أهـ.

هذا التبديل في مسرح الأحداث نتج عنه أمران خطيران. الأول، أنه سلخ مسألة تقديم القرابين - كشعيرة من شعائر الحج - عن مكانها الأصلي. فالإحرام والطواف والسعي ورمي الجمرات والوقوف بعرفة وتقديم الأضاحي شعائر تنتظم كلها في سلك واحد هو الحج، وتجري كلها في مكان واحد هو مكة. والثاني أنه جرّد قصة الذبح والافتداء من دلالتها على تحريم تقديم القرابين البشرية - ولأول مرة في تاريخ الإنسانية - في بيت الله المحرّم بمكة الذي يصفه تعالى بقوله ﴿فِيهِ أَلَكْتُ يَنْتَ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا...﴾ (آل عمران ٩٧). إذ لا يعقل أن يحرم الله تقديم القرابين البشرية في أول بيت وضع للناس بدلالة حديث جرى في جبال الشام على يد إسحق.

مرة أخرى نعود لنشير إلى أننا لانقصد هنا إقامة الدليل على خطأ أو صواب ما ذهب إليه أهل التلمود في مسألة الذبيح فهؤلاء أدركوا بما فعلوه بتوراتهم. ما يذهلنا هنا أن نرى إماماً مفسراً مؤرخاً كالطبري يقول في تاريخ الرسل والملوك (ج ١ ص ٢٦٣):

«واختلف السلف من علماء أمة نبينا (ص) في الذي أمر إبراهيم بذبحه من ابنه. فقال بعضهم هو إسحق بن إبراهيم وقال بعضهم هو إسماعيل بن إبراهيم. وقد روي عن رسول الله (ص) كلا القولين، لو كان فيهما صحيح لم نعهده إلى غيره. غير أن الدليل من القرآن على صحة الرواية التي رويت عنه (ص) أنه قال: هو إسحق. أوضح وأبين منه على صحة الأخرى» أهـ.

لن نقف عند اختلاف السلف من علمائنا الأفاضل حول مسألة الذبيح، إذ لا تكاد تخلو منه آية من آيات التنزيل الحكيم سواء المحكم منها أم المتشابه. ولقد سبق أن أشرنا إليه في أكثر من موضع فلا نعيد. ستقف عند أمرين:

١ - قوله «وقد روي عن رسول الله (ص) كلا القولين، لو كان فيهما صحيح لم نعهده إلى غيره».

٢ - قوله «غير أن الدليل من القرآن على صحة الرواية التي رويت عنه (ص) أنه قال: هو إسحق، أوضح وأبين منه على صحة الأخرى».

أما في الأمر الأول، فالمدهش فيه أن الطبري يقرر بكل صراحة أن النبي (ص) - فيما يروي عنه - أعلن لأصحاب معه مرة أن الذبيح هو إسحق، وأعلن لأصحاب له مرة أخرى أن الذبيح هو إسماعيل. ثم يقرر أن الروایتين عنده غير صحيحتين، ونحن نفهم أن يرد الطبري إحداهما ويقبل الأخرى، لاعتبارات رأى كمؤرخ أنها ترجح المقبولة على المردودة، لكننا لا نفهم أبداً أن يطعن في صحتها معاً فيقول «لو كان فيهما صحيح لم نعهده إلى غيره».

إن إنكار صحة الروایتين معاً إما أن يقود إلى وجود غلام ثالث غير إسماعيل وإسحق شارك أباه في هذه التجربة المريرة، أو أن يقود إلى إنكار وقوع الحادثة أصلاً، وكلاهما محال، بدليل أن الطبري لم يقل بأحدهما في تاريخه. فما تفسير ذلك؟

التفسير - فيما نرى - هو أن الطبري ليس مجرد مؤرخ، بل هو محدث ومفسر، يريد بعبارته أن يفهمنا أن الروایتين لم تصححا عنده كمحدث، لكنه لا يستطيع - كمؤرخ - أن ينكر وقوع الحادثة رغم عدم صحة رواياتها عنده.

نأتي الآن إلى الأمر الثاني، وفيه أن الدليل من القرآن عنده على أن الذبيح هو إسحق أوضح وأبين منه على أن الذبيح هو إسماعيل. ثم يمضي على صفحتي ٢٧٠، ٢٧١ من المجلد الأول في تاريخه يشرح هذا الدليل وبالرد على من زعم أن الذبيح هو إسماعيل، وسنكتفي هنا بالإشارة إلى أهم ما ورد في الصفحتين من أدلة تجنباً للإطالة تاركين لمن شاء الرجوع إليهما طلباً للتفاصيل.

يقول الطبري على ص ٢٧٠ «... حين فارق إبراهيم قومه مهاجراً إلى ربه إلى الشام مع زوجته سارة قال ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّ سَيِّدَيْنِ﴾ \* رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ» (الصفات ٩٩-١٠٠) وذلك قبل أن يعرف هاجر وقبل أن تصير له أم

إسماعيل، ثم أتبع ذلك ربنا عز وجل الخبر عن إجابته دعاءه، وتبشيريه إياه بغلام حلیم» أهـ.

من الواضح أن الطبري في هذه الفقرة بالذات ينطلق من ثوابت تنطلق منها الروايات التلمودية التي تجعل من إسحق بكر أبيه أولاً، وتنقل مسرح أحداث قصة الذبح والفداء من أرض مكة إلى أرض الشام.

ومن الواضح أنه يعتقد بأن استجابة الله عز وجل لدعاء إبراهيم في قوله ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الصفافات ١٠٠) قد انتهت بالبشرى بإسحق وحده وكأنه اكتفى بهذا الغلام الحلیم العليم عن الصالحين الذين طلبهم من ربه.

المتأمل في عبارات الطبري من الفقرة المقتبسة أعلاه لا يملك إلا أن يتساءل: إذا كانت قصة البشرى بإسحق وولادته حصلت قبل أن يعرف إبراهيم هاجر وقبل أن تصير له أم إسماعيل - حسب قول الطبري - فلماذا تزوج إبراهيم من هاجر؟ ولماذا دعا ربه في آية الصفافات ١٠٠ أن يهبه ذرية صالحة؟ أليس لأن سارة - كما هو ثابت في التنزيل الحكيم - كانت عجوزاً عقيماً؟

وإذا كانت قصة الذبح والفداء قد وقعت في أرض الشام - حسب ما يعتقد الطبري - فلماذا تابع إبراهيم رحلة البحث عن ربه مصطحباً معه بعض ذريته ليستقر في واد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم؟ ولماذا يترك وراءه ابنه المفتدى في أرض الشام ويأخذ معه إسماعيل إلى أرض مكة حسب ما هو ثابت في التنزيل الحكيم ليساعده في تطهير البيت وتكريسه للطائفين والعاكفين والركع السجود؟

ثمة من يقول - حسب اعتراف الطبري - بأن الذبيح هو إسماعيل وأن القصة وقعت في أرض مكة، منهم ابن عمر وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبیر، ومنهم الشعبي الذي يقول: رأيت قرني الكبش في الكعبة. ولم ينكر الطبري ذلك، فقال على ص ٢٧١: «وكذلك لا وجه لاعتلال من اعتل بقرن الكبش أنه رآه معلقاً في الكعبة، لأنه من غير المستحيل أن يكون حمل من الشام إلى الكعبة



فعلّق هناك» أه. وهذه عندنا مكابرة لاتصدر من مؤرخ عاقل، يبقى معها سؤال وجيه بدون جواب هو: لماذا يحمل إبراهيم معه من أرض الشام قرن كبش نزل إليه من السماء فداء لابنه إسحق وهو يبحث عن ربه في رحلة لا يدري أين ومتى تنتهي، ليعلقه في الكعبة حيث يراه الناس هناك؟

لقد شغل اللهاث خلف الإسرائيليات المفسرين والمؤرخين من الأمة الإسلامية قديماً، وشغل تقديس التراث بعقول منغلقة علماءنا الأفاضل اليوم، فكانت المحصلة أنهم جميعاً لم ينتبهوا إلى الشبه العجيب بين قصة إبراهيم مع هاجر - الجارية المصرية - وقصة النبي (ص) مع ماري القبطية - الجارية المصرية - . فالأولى كانت عجوزاً عقيماً، والثاني كانت زوجته الأولى مثناً لاتلد الذكور، وإن ولدتهم لايعيشون طويلاً، ولم يفهموا لماذا سمى النبي (ص) ابنه إبراهيم . ولم يسألوا أنفسهم وهم يقرؤون دعاء إبراهيم لربه في آية الصفات ١٠٠ ، لماذا لانجد في التنزيل الحكيم دعاء مماثلاً دعا به النبي (ص) ربه ليهب له ابناً ذكراً من صلبه؟ أليس إنساناً كباقي الناس قبل أن يكون نبياً ورسولاً؟ فإن كان قد فعل ، وليس ذلك ببعيد، فلماذا لم يرزقه ربه أولاداً ذكوراً يبلغون معه السعي؟ تلك قصة أخرى، قد نحاول أن نضع أجوبة لأسئلتها حين نتحدث عن القصص المحمدي في التنزيل الحكيم.

## إسماعيل وإسحق عليهما السلام في كتاب التوراة

إسماعيل

سفر التكوين

الإصحاح السادس عشر

٧فَوَجَدَهَا مَلَأَكَ الرَّبُّ عَلَى عَيْنِ الْمَاءِ فِي الْبَرِّيَّةِ، عَلَى الْعَيْنِ الَّتِي فِي طَرِيقِ شُورَ. ٨وَقَالَ: «يَا هَاجِرُ جَارِيَّةَ سَارَايَ، مِنْ أَيْنَ أَتَيْتِ؟ وَإِلَى أَيْنَ تَذْهَبِينَ؟». فَقَالَتْ: «أَنَا هَارِيَّةٌ مِنْ وَجْهِ مَوْلَاتِي سَارَايَ». ٩فَقَالَ لَهَا مَلَأَكَ الرَّبُّ: «ارْجِعِي

إِلَى مَوْلَاتِكَ وَاخْضَعِي تَحْتَ يَدَيْهَا». ١٠ وَقَالَ لَهَا مَلَاكُ الرَّبِّ: «تَكْثِيرًا أَكْثَرُ نَسْلِكَ فَلَا يُعَدُّ مِنَ الْكَثْرَةِ». ١١ وَقَالَ لَهَا مَلَاكُ الرَّبِّ: «هَا أَنْتِ حُبْلَى، فَتَلِدِينَ ابْنًا وَتَدْعِينَ اسْمَهُ إِسْمَاعِيلَ».

١٥ فَوَلَدَتْ هَاجِرُ لَأَبْرَامَ ابْنًا. وَدَعَا أَبْرَامُ اسْمَ ابْنِهِ الَّذِي وَلَدَتْهُ هَاجِرُ «إِسْمَاعِيلَ». ١٦ كَانَ أَبْرَامُ ابْنُ سِتٍّ وَثَمَانِينَ سَنَةً لَمَّا وَلَدَتْ هَاجِرُ إِسْمَاعِيلَ لَأَبْرَامَ.

#### الإصحاح السابع عشر

١٨ وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِلَّهِ: «لَيْتَ إِسْمَاعِيلَ يَعْيشُ أَمَامَكَ!». ١٩ فَقَالَ اللَّهُ: «بَلْ سَارَةُ امْرَأَتُكَ تِلْدُ لَكَ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحَاقَ. وَأُقِيمَ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبَدِيًّا لِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ. ٢٠ وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أَبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأَكْثِرُهُ كَثِيرًا جِدًّا. إِنِّنِي عَشَرَ رِئِيسًا يِلْدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً. ٢١ وَلَكِنْ عَهْدِي أُقِيمُهُ مَعَ إِسْحَاقَ الَّذِي تِلْدُهُ لَكَ سَارَةُ فِي هَذَا الْوَقْتِ فِي السَّنَةِ الْآتِيَةِ». ٢٢ فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الْكَلَامِ مَعَهُ صَعِدَ اللَّهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ.

٢٣ فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ إِسْمَاعِيلَ ابْنَهُ، وَجَمِيعَ وَلَدَانِ بَيْتِهِ، وَجَمِيعَ الْمُتَبَاعِينَ بِفِضَّتِهِ، كُلُّ ذَكَرٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ إِبْرَاهِيمَ، وَخَتَنَ لَحْمَ غُرْلَتِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَيْنِهِ كَمَا كَلَّمَهُ اللَّهُ. ٢٤ وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً حِينَ خَتَنَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ، ٢٥ وَكَانَ إِسْمَاعِيلُ ابْنُهُ ابْنُ ثَلَاثِ عَشْرَةِ سَنَةٍ حِينَ خَتَنَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ. ٢٦ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَيْنِهِ خَتَنَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنُهُ. ٢٧ وَكُلُّ رِجَالِ بَيْتِهِ وَلَدَانِ الْبَيْتِ وَالْمُتَبَاعِينَ بِالْفِضَّةِ مِنْ ابْنِ الْغَرِيبِ خَتَنُوا مَعَهُ.

#### الإصحاح الخامس والعشرون

٧ وَهَذِهِ أَيَّامُ سِنِي حَيَاةِ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي عَاشَهَا: مِئَةٌ وَخَمْسُ وَسَبْعُونَ سَنَةً. ٨ وَأَسْلَمَ إِبْرَاهِيمُ رُوحَهُ وَمَاتَ بِشَيْبَةٍ صَالِحَةٍ، شَيْخًا وَشَبَعَانِ أَيَّامًا، وَانْضَمَّ إِلَى قَوْمِهِ. ٩ وَدَفَنَتْهُ إِسْحَاقُ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنَاهُ فِي مَعَارَةِ الْمَكْفِيلَةِ فِي حَقْلِ عَفْرُونَ بْنِ صُوَحَرَ الْحِثِّيِّ الَّذِي أَمَامَ مَمْرَا، ١٠ الْحَقْلِ الَّذِي اشْتَرَاهُ إِبْرَاهِيمُ مِنْ بَنِي حِثَّ.

هُنَاكَ دُفِنَ إِبْرَاهِيمُ وَسَارَةُ امْرَأَتُهُ. ١١ وَكَانَ بَعْدَ مَوْتِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ اللَّهَ بَارَكَ إِسْحَاقَ ابْنَهُ. وَسَكَنَ إِسْحَاقُ عِنْدَ بَيْتِ لَحْيِ رُثْيِي.

١٢ وَهَذِهِ مَوَالِيدُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، الَّذِي وَلَدَتْهُ هَاجَرُ الْمِصْرِيَّةُ جَارِيَّةَ سَارَةَ لِإِبْرَاهِيمَ. ١٣ وَهَذِهِ أَسْمَاءُ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بِأَسْمَائِهِمْ حَسَبَ مَوَالِيدِهِمْ: نَبَايُوثُ بِكْرُ إِسْمَاعِيلَ، وَقِيدَارُ، وَأَدْبَيْيْلُ وَمِيسَامُ ١٤ وَمِشْمَاعُ وَدُومَةُ وَمَسَا ١٥ وَحَدَارُ وَتَيْمَا وَيَطُورُ وَنَافِيسُ وَقَدْمَةُ. ١٦ هَؤُلَاءِ هُمُ بَنُو إِسْمَاعِيلَ، وَهَذِهِ أَسْمَاؤُهُمْ بِدِيَارِهِمْ وَخُصُونِهِمْ. اثْنَا عَشَرَ رَئِيسًا حَسَبَ قَبَائِلِهِمْ. ١٧ وَهَذِهِ سِنُو حَيَاةِ إِسْمَاعِيلَ: مِئَةٌ وَسَبْعٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً، وَأَسْلَمَ رُوحُهُ وَمَاتَ وَانْضَمَّ إِلَى قَوْمِهِ. ١٨ وَسَكَنُوا مِنْ حَوِيلَةَ إِلَى شُورَ الَّتِي أَمَامَ مِصْرَ حِينَمَا تَجِيءُ نَحْوَ أَشُورَ. أَمَامَ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ نَزَلَ.

## إسحاق

### سفر التكوين

#### الإصحاح السابع عشر

١٨ وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِلَّهِ: «لَيْتَ إِسْمَاعِيلَ يَعْيشُ أَمَامَكَ!». ١٩ فَقَالَ اللَّهُ: «بَلْ سَارَةُ امْرَأَتُكَ تِلْدُ لَكَ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحَاقَ. وَأَقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبَدِيًّا لِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ. ٢٠ وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أَبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأَكْثُرُهُ كَثِيرًا جَدًّا. إِنِّي عَشَرَ رَئِيسًا يِلْدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً. ٢١ وَلَكِنْ عَهْدِي أَقِيمُهُ مَعَ إِسْحَاقَ الَّذِي تِلْدُهُ لَكَ سَارَةُ فِي هَذَا الْوَقْتِ فِي السَّنَةِ الْآتِيَةِ». ٢٢ فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الْكَلَامِ مَعَهُ صَعِدَ اللَّهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ.

#### الإصحاح الحادي والعشرون

١ وَافْتَقَدَ الرَّبُّ سَارَةَ كَمَا قَالَ، وَفَعَلَ الرَّبُّ لِسَارَةَ كَمَا تَكَلَّمَ. ٢ فَحَبِلَتْ سَارَةُ وَوَلَدَتْ لِإِبْرَاهِيمَ ابْنًا فِي شَيْخُوخَتِهِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَكَلَّمَ اللَّهُ عَنْهُ. ٣ وَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ابْنِهِ الْمَوْلُودِ لَهُ، الَّذِي وَلَدَتْهُ لَهُ سَارَةُ «إِسْحَاقَ». ٤ وَخَتَنَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ ابْنَهُ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ. ٥ وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ مِئَةٍ سَنَةٍ حِينَ

وُلِدَ لَهُ إِسْحَاقُ ابْنُهُ. ٦ وَقَالَتْ سَارَةُ: «قَدْ صَنَعَ إِلَهِ اللَّهِ ضِحْكًا. كُلُّ مَنْ يَسْمَعُ يَضْحَكُ لِي». ٧ وَقَالَتْ: «مَنْ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ: سَارَةُ تُزْضِعُ بَيْنِي؟ حَتَّى وَلَدْتُ ابْنًا فِي شَيْخُوخَتِي!». ٨ فَكَبِرَ الْوَلَدُ وَفُطِمَ. وَصَنَعَ إِبْرَاهِيمُ وَلِيمَةً عَظِيمَةً يَوْمَ فِطَامِ إِسْحَاقَ.

٩ وَرَأَتْ سَارَةُ ابْنَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِي وَلَدَتْهُ لِإِبْرَاهِيمَ يَمْزُحُ، ١٠ فَقَالَتْ لِإِبْرَاهِيمَ: «اطْرُدْ هَذِهِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا، لِأَنَّ ابْنَ هَذِهِ الْجَارِيَةِ لَا يَرِثُ مَعَ ابْنِي إِسْحَاقَ». ١١ فَقَبَّحَ الْكَلَامَ جِدًّا فِي عَيْنَيِ إِبْرَاهِيمَ لِسَبَبِ ابْنِهِ. ١٢ فَقَالَ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ: «لَا يَقْبُحُ فِي عَيْنَيْكَ مِنْ أَجْلِ الْغُلَامِ وَمِنْ أَجْلِ جَارِيَتِكَ. فِي كُلِّ مَا تَقُولُ لَكَ سَارَةُ اسْمَعْ لِقَوْلِهَا، لِأَنَّهُ بِإِسْحَاقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ. ١٣ وَابْنُ الْجَارِيَةِ أَيْضًا سَاجِعُهُ أُمَّةٌ لِأَنَّهُ نَسْلُكَ».

١٤ فَكَبَّرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَأَخَذَ خُبْرًا وَقِرْبَةً مَاءٍ وَأَعْطَاهُمَا لِهَاجَرَ، وَاضْعَا إِيَّاهُمَا عَلَى كَتِفَيْهَا، وَالْوَلَدَ، وَصَرَفَهَا. فَمَضَتْ وَتَاهَتْ فِي بَرِّيَّةٍ بِئْرٍ سَبْعَ. ١٥ وَلَمَّا فَرَّغَ الْمَاءَ مِنَ الْقِرْبَةِ طَرَحَتْ الْوَلَدَ تَحْتَ إِحْدَى الْأَشْجَارِ، ١٦ وَمَضَتْ وَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ بَعِيدًا نَحْوَ رَمِيَّةٍ قَوْسٍ، لِأَنَّهُمَا قَالَتْ: «لَا أَنْظُرُ مَوْتَ الْوَلَدِ». فَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ وَرَفَعَتْ صَوْتَهَا وَبَكَتْ. ١٧ فَسَمِعَ اللَّهُ صَوْتَ الْغُلَامِ، وَنَادَى مَلَاكُ اللَّهِ هَاجَرَ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ لَهَا: «مَا لَكَ يَا هَاجِرُ؟ لَا تَخَافِي، لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ لَصُوتِ الْغُلَامِ حَيْثُ هُوَ. ١٨ قُومِي احْمِلِي الْغُلَامَ وَشُدِّي يَدَكَ بِهِ، لِأَنِّي سَاجِعُهُ أُمَّةً عَظِيمَةً». ١٩ وَفَتَحَ اللَّهُ عَيْنَيْهَا فَأَبْصَرَتْ بئرَ مَاءٍ، فَذَهَبَتْ وَمَلَأَتِ الْقِرْبَةَ مَاءً وَسَقَتِ الْغُلَامَ. ٢٠ وَكَانَ اللَّهُ مَعَ الْغُلَامِ فَكَبِرَ، وَسَكَنَ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَكَانَ يَتَمُو رَامِي قَوْسٍ. ٢١ وَسَكَنَ فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ، وَأَخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ زَوْجَةً مِنْ أَرْضِ مِصْرَ.

#### الإصحاح الثاني والعشرون

١ وَحَدَّثَ بَعْدَ هَذِهِ الْأُمُورِ أَنَّ اللَّهَ امْتَحَنَ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لَهُ: «يَا إِبْرَاهِيمُ!». فَقَالَ: «هَآنَذَا». ٢ فَقَالَ: «خُذْ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، الَّذِي تُحِبُّهُ، إِسْحَاقَ، وَاذْهَبْ إِلَى أَرْضِ الْمَرْيَا، وَأَضِعْهُ هُنَاكَ مُحْرَقَةً عَلَى أَحَدِ الْجِبَالِ الَّذِي أَقُولُ لَكَ». ٣ فَكَبَّرَ

إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَشَدَّ عَلَى حِمَارِهِ، وَأَخَذَ اثْنَيْنِ مِنْ غِلْمَانِهِ مَعَهُ، وَإِسْحَاقَ ابْنَتَهُ، وَشَقَّقَ حَطْبًا لِمُحْرَقَةٍ، وَقَامَ وَذَهَبَ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللَّهُ. ٤ وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَأَبْصَرَ الْمَوْضِعَ مِنْ بَعِيدٍ، ٥ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِعُغْلَامَيْهِ: «اجْلِسَا أَتَمًّا هَهُنَا مَعَ الْحِمَارِ، وَأَمَّا أَنَا وَالْعُلَامُ فَنَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ وَنَسْجُدُ، ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَيْكُمَا». ٦ فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ حَطَبَ الْمُحْرَقَةِ وَوَضَعَهُ عَلَى إِسْحَاقَ ابْنِهِ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ النَّارَ وَالسَّكِينَ. فَذَهَبَا كِلَاهُمَا مَعًا. ٧ وَكَلَّمَ إِسْحَاقُ إِبْرَاهِيمَ أَبِياهُ وَقَالَ: «يَا أَبِي!». فَقَالَ: «هَآنَذَا يَا ابْنِي». فَقَالَ: «هُوَذَا النَّارُ وَالْحَطْبُ، وَلَكِنْ أَيْنَ الْخُرُوفُ لِلْمُحْرَقَةِ؟» ٨ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «اللَّهُ يَرَى لَهُ الْخُرُوفَ لِلْمُحْرَقَةِ يَا ابْنِي». فَذَهَبَا كِلَاهُمَا مَعًا.

٩ فَلَمَّا أَتَيَا إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللَّهُ، بَنَى هُنَاكَ إِبْرَاهِيمُ الْمَذْبَحَ وَرَتَّبَ الْحَطَبَ وَرَبَطَ إِسْحَاقَ ابْنَهُ وَوَضَعَهُ عَلَى الْمَذْبَحِ فَوْقَ الْحَطْبِ. ١٠ ثُمَّ مَدَّ إِبْرَاهِيمُ يَدَهُ وَأَخَذَ السَّكِينَ لِيَذْبَحَ ابْنَتَهُ. ١١ فَتَنَادَاهُ مَلَأُكَ الرَّبُّ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ: «إِبْرَاهِيمُ! إِبْرَاهِيمُ!». فَقَالَ: «هَآنَذَا» ١٢ فَقَالَ: «لَا تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى الْعُلَامِ وَلَا تَفْعَلْ بِهِ شَيْئًا، لِأَنِّي الْآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ خَائِفُ اللَّهِ، فَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي». ١٣ فَرَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا كَبُشٌ وَرَاءَهُ مُمَسَّكًا فِي الْعَابَةِ بِقَرْنَيْهِ، فَذَهَبَ إِبْرَاهِيمُ وَأَخَذَ الْكَبُشَ وَأَضْعَدَهُ مُحْرَقَةً عِوَضًا عَنِ ابْنِهِ. ١٤ فَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ «يَهُوَّهَ يِرْأَهُ». حَتَّى إِنَّهُ يُقَالُ الْيَوْمَ: «فِي جَبَلِ الرَّبِّ يُرَى».

١٥ وَتَادَى مَلَأُكَ الرَّبِّ إِبْرَاهِيمَ ثَانِيَةً مِنَ السَّمَاءِ ١٦ وَقَالَ: «بِذَاتِي أَقْسَمْتُ يَقُولُ الرَّبُّ، أَنِّي مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ فَعَلْتَ هَذَا الْأَمْرَ، وَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، ١٧ أَبَارِكُكَ مُبَارَكَةً، وَأَكْثُرُ نَسْلَكَ تَكْثِيرًا كَنُجُومِ السَّمَاءِ وَكَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، وَيَرِثُ نَسْلُكَ بَابَ أَعْدَائِهِ، ١٨ وَيَتَبَارَكَ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الْأَرْضِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِي». ١٩ ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى غُلَامَيْهِ، فَقَامُوا وَذَهَبُوا مَعًا إِلَى بَثْرَ سَبْعٍ. وَسَكَنَ إِبْرَاهِيمُ فِي بَثْرَ سَبْعٍ.

#### الإصحاح الرابع والعشرون

١ وَشَاحَ إِبْرَاهِيمُ وَتَقَدَّمَ فِي الْآيَامِ. وَبَارَكَ الرَّبُّ إِبْرَاهِيمَ فِي كُلِّ شَيْءٍ. ٢ وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِعَبْدِهِ كَبِيرِ بَيْتِهِ الْمُسْتَوَلِيِّ عَلَى كُلِّ مَا كَانَ لَهُ: «ضَعْ يَدَكَ تَحْتَ فُخْذِي، ٣ فَاسْتَحْلِفْكَ بِالرَّبِّ إِلَهِ السَّمَاءِ وَإِلَهِ الْأَرْضِ أَنْ لَا تَأْخُذَ زَوْجَةً لَابْنِي مِنْ بَنَاتِ الْكُتْعَانِيِّينَ الَّذِينَ أَنَا سَاكِنٌ بَيْنَهُمْ، ٤ بَلْ إِلَى أَرْضِي وَإِلَى عَشِيرَتِي تَذْهَبُ وَتَأْخُذُ زَوْجَةً لَابْنِي إِسْحَاقَ». ٥ فَقَالَ لَهُ الْعَبْدُ: «رُبَّمَا لَا تَشَاءُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَتَّبَعَنِي إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ. هَلْ أَرْجِعُ بِابْنِكَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي خَرَجْتَ مِنْهَا؟» ٦ فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: «اخْتَرُ مِنْ أَنْ تَرْجِعَ بِابْنِي إِلَى هُنَاكَ. ٧ أَلَرَّبُّ إِلَهُ السَّمَاءِ الَّذِي أَخَذَنِي مِنْ بَيْتِ أَبِي وَمِنْ أَرْضِ مِيلَادِي، وَالَّذِي كَلَّمَنِي وَالَّذِي أَقْسَمَ لِي قَائِلًا: لِنَسْلِكَ أُعْطِيَ هَذِهِ الْأَرْضَ، هُوَ يُرْسِلُ مَلَائِكَةً أَمَامَكَ، فَتَأْخُذُ زَوْجَةً لَابْنِي مِنْ هُنَاكَ. ٨ وَإِنْ لَمْ تَشَأِ الْمَرْأَةُ أَنْ تَتَّبَعَكَ، تَبَرَّأْتُ مِنْ حَلْفِي هَذَا. أَمَّا ابْنِي فَلَا تَرْجِعْ بِهِ إِلَى هُنَاكَ». ٩ فَوَضَعَ الْعَبْدُ يَدَهُ تَحْتَ فُخْذِ إِبْرَاهِيمَ مَوْلَاهُ، وَحَلَفَ لَهُ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ.

١٠ فَقَامَتْ رِفْقَةُ وَفَتَيَاتُهَا وَرَكِبْنَ عَلَى الْجِمَالِ وَتَبِعْنَ الرَّجُلَ. فَأَخَذَ الْعَبْدُ رِفْقَةَ وَمَضَى. ١١ وَكَانَ إِسْحَاقُ قَدْ أَتَى مِنْ وَرُودِ بَثْرَ لَحْيِ رُئِي، إِذْ كَانَ سَاكِنًا فِي أَرْضِ الْجَنُوبِ. ١٢ وَخَرَجَ إِسْحَاقُ لِيَتَأَمَّلَ فِي الْحَقْلِ عِنْدَ إِقْبَالِ الْمَسَاءِ، فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا جَمَالٌ مُقْبِلَةٌ. ١٣ وَرَفَعَتْ رِفْقَةُ عَيْنَيْهَا فَرَأَتْ إِسْحَاقَ فَتَزَلَّتْ عَنِ الْجَمَلِ. ١٤ وَقَالَتْ لِلْعَبْدِ: «مَنْ هَذَا الرَّجُلُ الْمَاشِي فِي الْحَقْلِ لِلِقَائِنَا؟» فَقَالَ الْعَبْدُ: «هُوَ سَيِّدِي». فَأَخَذَتْ الْبُرْقُعَ وَتَغَطَّتْ. ١٥ ثُمَّ حَدَّثَ الْعَبْدُ إِسْحَاقَ بِكُلِّ الْأُمُورِ الَّتِي صَنَعَ، ١٦ فَأَدْخَلَهَا إِسْحَاقُ إِلَى خِبَاءِ سَارَةَ أُمِّهِ، وَأَخَذَ رِفْقَةَ فَصَارَتْ لَهُ زَوْجَةً وَأَحْبَبَهَا. فَتَعَزَّى إِسْحَاقُ بَعْدَ مَوْتِ أُمِّهِ.

#### الإصحاح الخامس والعشرون

١ وَعَادَ إِبْرَاهِيمُ فَأَخَذَ زَوْجَةً اسْمُهَا قَطُورَةُ، ٢ فَوَلَدَتْ لَهُ: زِمْرَانَ وَيَقْشَانَ وَمَدَانَ وَمِذْيَانَ وَيِشْبَاقَ وَشُوحَا. ٣ وَوَلَدَ يَقْشَانُ: شَبَا وَدَدَانَ. وَكَانَ بَنُو دَدَانَ: أَشُورِيمَ وَلَطُوشِيمَ وَلَاثِيمَ. ٤ وَبَنُو مِذْيَانَ: عِيفَةُ وَعِغْمُرُ وَحَنُوكُ وَأَبِيدَاعُ وَالْدَعَةُ.

جَمِيعُ هَؤُلَاءِ بَنُو قُطُورَةٍ. ٥ وَأَعْطَى إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ. ٦ وَأَمَّا بَشُو السَّرَارِيِّ اللَّوَاتِي كَانَتْ لِإِبْرَاهِيمَ فَأَعْطَاهُمُ إِبْرَاهِيمُ عَطَايَا، وَصَرَفَهُمْ عَنْ إِسْحَاقَ ابْنِهِ شَرْقًا إِلَى أَرْضِ الْمَشْرِقِ، وَهُوَ بَعْدُ حَيٌّ.

٧ وَهَذِهِ أَيَّامُ سِنِي حَيَاةِ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي عَاشَهَا: مِئَةٌ وَخَمْسٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً. ٨ وَأَسْلَمَ إِبْرَاهِيمُ رُوحَهُ وَمَاتَ بِشَيْبَةٍ صَالِحَةٍ، شَيْخًا وَشَبَعَانِ أَيَّامًا، وَأَنْضَمَّ إِلَى قَوْمِهِ. ٩ وَدَفَنَهُ إِسْحَاقُ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنَاهُ فِي مَعَارَةِ الْمَكْفِيلَةِ فِي حَقْلِ عَفْرُونَ بْنِ صُوحَرَ الْحِثِّيِّ الَّذِي أَمَامَ مَمْرَا، ١٠ الْحَقْلُ الَّذِي اشْتَرَاهُ إِبْرَاهِيمُ مِنْ بَنِي حِثٍّ. هُنَاكَ دُفِنَ إِبْرَاهِيمُ وَسَارَةُ امْرَأَتُهُ. ١١ وَكَانَ بَعْدَ مَوْتِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ اللَّهَ بَارَكَ إِسْحَاقَ ابْنَهُ. وَسَكَنَ إِسْحَاقُ عِنْدَ بَثْرَ لَحْيَ رُثِي.

١٩ وَهَذِهِ مَوَالِيدُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ: وَلَدَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ. ٢٠ وَكَانَ إِسْحَاقُ ابْنَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمَّا اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ زَوْجَةً، رِفْقَةَ بِنْتُ بَثُورِيلِ الْأَرَامِيِّ، أُخْتُ لَابَانَ الْأَرَامِيِّ مِنْ فَدَّانِ أَرَامَ. ٢١ وَصَلَّى إِسْحَاقُ إِلَى الرَّبِّ لِأَجْلِ امْرَأَتِهِ لِأَنَّهَا كَانَتْ عَاقِرًا، فَاسْتَجَابَ لَهُ الرَّبُّ، فَحَبِلَتْ رِفْقَةُ امْرَأَتُهُ. ٢٢ وَتَزَاوَحَ الْوُلَدَانِ فِي بَطْنِهَا، فَقَالَتْ: «إِنْ كَانَ هَكَذَا فَلِمَذَا أَنَا؟» فَمَضَتْ لِتَسْأَلَ الرَّبَّ. ٢٣ فَقَالَ لَهَا الرَّبُّ: «فِي بَطْنِكَ أُمْتَانِ، وَمِنْ أَحْشَائِكَ يَفْتَرِقُ شَعْبَانِ: شَعْبٌ يَفْوَى عَلَى شَعْبٍ، وَكَبِيرٌ يُسْتَعْبَدُ لِصَغِيرٍ».

٢٤ فَلَمَّا كَمُلَتْ أَيَّامُهَا لِتَلِدَ إِذَا فِي بَطْنِهَا تَوَآمَانِ. ٢٥ فَخَرَجَ الْأَوَّلُ أَحْمَرَ، كُلُّهُ كَفَرَوَةٍ شَعْرِ، فَدَعَوْا اسْمَهُ «عِيسُو». ٢٦ وَبَعْدَ ذَلِكَ خَرَجَ أَخُوهُ وَيَدُهُ قَابِضَةٌ يَعْقِبُ عِيسُو، فَدَعَوْا اسْمَهُ «يَعْقُوبَ». وَكَانَ إِسْحَاقُ ابْنَ سِتِّينَ سَنَةً لَمَّا وَلَدَتْهُمَا.

٢٧ فَكَبِرَ الْغُلَامَانِ، وَكَانَ عِيسُو إِنْسَانًا يَعْرِفُ الصَّيْدَ، إِنْسَانًا الْبَرِّيَّةِ، وَيَعْقُوبُ إِنْسَانًا كَامِلًا يَسْكُنُ الْخِيَامَ. ٢٨ فَأَحَبَّ إِسْحَاقُ عِيسُو لِأَنَّهُ فِي فَمِهِ صَبْداً، وَأَمَّا رِفْقَةُ فَكَانَتْ تُحِبُّ يَعْقُوبَ. ٢٩ وَطَبَخَ يَعْقُوبُ طَبِيخًا، فَأَتَى عِيسُو مِنَ الْحَقْلِ وَهُوَ قَدْ أَعْيَا. ٣٠ فَقَالَ عِيسُو لِيَعْقُوبَ: «أَطْعِمْنِي مِنْ هَذَا الْأَحْمَرِ لِأَنِّي قَدْ أَعْيَيْتُ». لِذَلِكَ دُعِيَ اسْمُهُ «أَدُومَ». ٣١ فَقَالَ يَعْقُوبُ: «بِغْنِي الْيَوْمَ بَكُورِيَّتِكَ». ٣٢ فَقَالَ عِيسُو:

«هَا أَنَا مَاضٍ إِلَى الْمَوْتِ، فَلِمَ أَذًا لِي بِكُورِيَّةَ؟» ٣٣ فَقَالَ يَعْقُوبُ: «اخْلِفْ لِي الْيَوْمَ». فَحَلَفَ لَهُ، فَبَاعَ بِكُورِيَّتِهِ لِيَعْقُوبَ. ٣٤ فَأَعْطَى يَعْقُوبُ عَيْسُو خُبْزًا وَطَبِيخَ عَدَسٍ، فَأَكَلَ وَشَرِبَ وَقَامَ وَمَضَى. فَاحْتَقَرَ عَيْسُو الْبُكُورِيَّةَ.

#### الإصحاح السادس والعشرون

١ وَكَانَ فِي الْأَرْضِ جُوعٌ غَيْرُ الْجُوعِ الْأَوَّلِ الَّذِي كَانَ فِي أَيَّامِ إِبْرَاهِيمَ، فَذَهَبَ إِسْحَاقُ إِلَى أَبِيمَالِكَ مَلِكِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ، إِلَى جَرَارَ. ٢ وَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ وَقَالَ: «لَا تَنْزِلْ إِلَى مِصْرَ. اسْكُنْ فِي الْأَرْضِ الَّتِي أَقُولُ لَكَ. ٣ تَغْرَبْ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ فَأَكُونَ مَعَكَ وَأُبَارِكَكَ، لِأَنِّي لَكَ وَلَسْتُ لَكَ أُعْطِيَ جَمِيعَ هَذِهِ الْبِلَادِ، وَأَفِي بِالْقَسَمِ الَّذِي أَقْسَمْتُ لِإِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ. ٤ وَأَكْثُرُ نَسْلَكَ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، وَأُعْطِيَ نَسْلَكَ جَمِيعَ هَذِهِ الْبِلَادِ، وَتَتَبَارَكَ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الْأَرْضِ، ٥ مِنْ أَجْلِ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ سَمِعَ لِقَوْلِي وَحَفِظَ مَا يُحْفَظُ لِي: أَوَامِرِي وَفَرَائِضِي وَشَرَائِعِي». ٦ فَأَقَامَ إِسْحَاقُ فِي جَرَارَ.

٧ وَسَأَلَهُ أَهْلُ الْمَكَانِ عَنِ امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: «هِيَ أُخْتِي». لِأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَقُولَ: «امْرَأَتِي» لَعَلَّ أَهْلَ الْمَكَانِ: «يَقْتُلُونَنِي مِنْ أَجْلِ رِفْقَةٍ» لِأَنَّهُمَا كَانَتْ حَسَنَةً الْمُنْظَرِ. ٨ وَحَدَّثَ إِذْ طَالَتْ لَهُ الْأَيَّامُ هُنَاكَ أَنَّ أَبِيمَالِكَ مَلِكِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ أَشْرَفَ مِنَ الْكُوَّةِ وَنَظَرَ، وَإِذَا إِسْحَاقُ يَلَاعِبُ رِفْقَةَ امْرَأَتِهِ. ٩ فَدَعَا أَبِيمَالِكُ إِسْحَاقَ وَقَالَ: «إِنَّمَا هِيَ امْرَأَتُكَ! فَكَيْفَ قُلْتَ: هِيَ أُخْتِي؟» فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ: «لَأَنِّي قُلْتُ: لَعَلِّي أَمُوتُ بِسَبَبِهَا». ١٠ فَقَالَ أَبِيمَالِكُ: «مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتَ بِنَا؟ لَوْلَا قَلِيلٌ لَاضْطَجَعَ أَحَدُ الشَّعْبِ مَعَ امْرَأَتِكَ فَجَلَبَتْ عَلَيْنَا ذَنْبًا». ١١ فَأَوْصَى أَبِيمَالِكُ جَمِيعَ الشَّعْبِ قَائِلًا: «الَّذِي يَمَسُّ هَذَا الرَّجُلَ أَوْ امْرَأَتَهُ مَوْتًا يَمُوتُ».

١٢ وَزَرَعَ إِسْحَاقُ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ فَأَصَابَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ مِثَّةٌ ضِعْفٍ، وَبَارَكَهُ الرَّبُّ. ١٣ فَتَعَاظَمَ الرَّجُلُ وَكَانَ يَتَزَايِدُ فِي التَّعَاظُمِ حَتَّى صَارَ عَظِيمًا جَدًّا. ١٤ فَكَانَ لَهُ مَوَاشٍ مِنَ الْعَنَمِ وَمَوَاشٍ مِنَ الْبَقَرِ وَعَبِيدٌ كَثِيرُونَ. فَحَسَدَهُ الْفِلِسْطِينِيُّونَ. ١٥ وَجَمِيعُ الْآبَارِ، الَّتِي حَفَرَهَا عِبْدُ أَبِيهِ فِي أَيَّامِ إِبْرَاهِيمَ أَبِيهِ، طَمَّهَا



الْفِلِسْطِينِيُّونَ وَمَلَأُوهَا ثُرَابًا. ١٦ وَقَالَ أَيِيمَالِكُ لِإِسْحَاقَ: «أَذْهَبَ مِنْ عِنْدِنَا لِأَنَّكَ صِرْتَ أَقْوَى مِنَّا جِدًّا». ١٧ فَمَضَى إِسْحَاقُ مِنْ هُنَاكَ، وَنَزَلَ فِي وَادِي جَرَارَ وَأَقَامَ هُنَاكَ.

١٨ فَعَادَ إِسْحَاقُ وَنَبَشَ آبَارَ الْمَاءِ الَّتِي حَفَرُوهَا فِي أَيَّامِ إِبْرَاهِيمَ أَبِيهِ، وَطَمَّهَا الْفِلِسْطِينِيُّونَ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ، وَدَعَاَهَا بِأَسْمَاءَ كَالْأَسْمَاءِ الَّتِي دَعَاَهَا بِهَا أَبُوهُ. ١٩ وَحَفَرَ عَيْبُدُ إِسْحَاقَ فِي الْوَادِي فَوَجَدُوا هُنَاكَ بَيْتَ مَاءٍ حَيٍّ. ٢٠ فَخَاصَمَ رُعَاةَ جَرَارَ رُعَاةَ إِسْحَاقَ قَائِلِينَ: «لَنَا الْمَاءُ». فَدَعَا اسْمَ الْبَيْتِ «عَيْقَ» لِأَنَّهُمْ نَازَعُوهُ. ٢١ ثُمَّ حَفَرُوا بَيْتًا أُخَرَى وَتَخَاصَمُوا عَلَيْهَا أَيضًا، فَدَعَا اسْمَهَا «سَيْطَنَةً». ٢٢ ثُمَّ نَقَلَ مِنْ هُنَاكَ وَحَفَرَ بَيْتًا أُخَرَى وَلَمْ يَتَخَاصَمُوا عَلَيْهَا، فَدَعَا اسْمَهَا «رُحُوبُوتَ»، وَقَالَ: «إِنَّهُ الْآنَ قَدْ أَرْحَبَ لَنَا الرَّبُّ وَأَثْمَرْنَا فِي الْأَرْضِ». ٢٣ ثُمَّ صَعِدَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى بَيْتِ سَبْعَ. ٢٤ فَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَقَالَ: «أَنَا إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ. لَا تَخَفْ لِأَنِّي مَعَكَ، وَأُبَارِكُكَ وَأَكْثُرُ نَسْلَكَ مِنْ أَجْلِ إِبْرَاهِيمَ عَبْدِي». ٢٥ فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا وَدَعَا بِاسْمِ الرَّبِّ. وَنَصَبَ هُنَاكَ خَيْمَتَهُ، وَحَفَرَ هُنَاكَ عَيْبُدُ إِسْحَاقَ بَيْتًا.

٢٦ وَذَهَبَ إِلَيْهِ مِنْ جَرَارَ أَيِيمَالِكُ وَأَحْرَاثَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَفِيكُولُ رَئِيسُ جَيْشِهِ. ٢٧ فَقَالَ لَهُمْ إِسْحَاقُ: «مَا بِالْكُمْ أَتَيْتُمْ إِلَيَّ وَأَنْتُمْ قَدْ أَبْغَضْتُمُونِي وَصَرَفْتُمُونِي مِنْ عِنْدِكُمْ؟» ٢٨ فَقَالُوا: «إِنَّا قَدْ رَأَيْنَا أَنَّ الرَّبَّ كَانَ مَعَكَ، فَقُلْنَا: لِيَكُنْ بَيْنَنَا حَلْفٌ، بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، وَنَقْطَعَ مَعَكَ عَهْدًا: ٢٩ أَنْ لَا تَصْنَعَ بِنَا شَرًّا، كَمَا لَمْ نَمْسَكَ وَكَمَا لَمْ نَصْنَعْ بِكَ إِلَّا خَيْرًا وَصَرَفْنَاكَ بِسَلَامٍ. أَنْتَ الْآنَ مُبَارَكُ الرَّبِّ». ٣٠ فَصْنَعَ لَهُمْ ضِيَافَةً، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا. ٣١ ثُمَّ بَكَرُوا فِي الْعَدِ وَحَلَفُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، وَصَرَفَهُمْ إِسْحَاقُ. فَمَضَوْا مِنْ عِنْدِهِ بِسَلَامٍ. ٣٢ وَحَدَّثَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ عَيْبُدَ إِسْحَاقَ جَاءُوا وَأَخْبَرُوهُ عَنِ الْبَيْتِ الَّتِي حَفَرُوا، وَقَالُوا لَهُ: «قَدْ وَجَدْنَا مَاءً». ٣٣ فَدَعَاَهَا «شِبْعَةً»، لِذَلِكَ اسْمُ الْمَدِينَةِ بَيْتُ سَبْعَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ.

٣٤ وَلَمَّا كَانَ عِيسُو ابْنُ أَرْبَعِينَ سَنَةً اتَّخَذَ زَوْجَةً: يَهُودِيَّةَ ابْنَةِ بِيْرِي الْحِثِّيِّ، وَبِسْمَةِ ابْنَةِ إِيلُونِ الْحِثِّيِّ. ٣٥ فَكَانَتَا مَرَارَةً نَفْسٍ لِإِسْحَاقَ وَرِفْقَةً.

## الإصحاح السابع والعشرون

وَحَدَّثَ لَمَّا شَاخَ إِسْحَاقُ وَكَلَّتْ عَيْنَاهُ عَنِ النَّظَرِ، أَنَّهُ دَعَا عِيسُو ابْنَهُ الْأَكْبَرَ وَقَالَ لَهُ: «يَا ابْنِي». فَقَالَ لَهُ: «هَآنَذَا». ٢ فَقَالَ: «إِنِّي قَدْ شِخْتُ وَلَسْتُ أَعْرِفُ يَوْمَ وَفَاتِي. ٣ فَالآنَ خُذْ عِدَّتَكَ: جُعِبْتُكَ وَقَوْسَكَ، وَاخْرُجْ إِلَى الْبَرِّيَّةِ وَتَصِيدْ لِي صَيْدًا، ٤ وَاصْنَعْ لِي أَطْعِمَةً كَمَا أَحِبُّ، وَأَتِيَنِي بِهَا لِأَكُلَ حَتَّى تُبَارِكَكَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ».

٥ وَكَانَتْ رِفْقَةُ سَامِعَةً إِذْ تَكَلَّمَ إِسْحَاقُ مَعَ عِيسُو ابْنِهِ. فَذَهَبَ عِيسُو إِلَى الْبَرِّيَّةِ كَيْ يَصْطَادَ صَيْدًا لِيَأْتِيَ بِهِ. ٦ وَأَمَّا رِفْقَةُ فَكَلِمَتْ يَعْقُوبَ ابْنَهَا قَائِلَةً: «إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ أَبَاكَ يُكَلِّمُ عِيسُو أَخَاكَ قَائِلًا: ٧ أَتَتَنِي بِصَيْدٍ وَاصْنَعْ لِي أَطْعِمَةً لِأَكُلَ وَتُبَارِكَكَ أَمَامَ الرَّبِّ قَبْلَ وَفَاتِي. ٨ فَالآنَ يَا ابْنِي اسْمَعْ لِقَوْلِي فِي مَا أَنَا أَمْرُكَ بِهِ: ٩ إِذْهَبْ إِلَى الْغَنَمِ وَخُذْ لِي مِنْ هُنَاكَ جَدِيَيْنِ جَيِّدَيْنِ مِنَ الْمِعْزَى، فَأَصْنَعُهُمَا أَطْعِمَةً لِأَبِيكَ كَمَا يُحِبُّ، ١٠ فَتُحْضِرْهَا إِلَى أَبِيكَ لِأَكُلَ حَتَّى يُبَارِكَكَ قَبْلَ وَفَاتِهِ. ١١ فَقَالَ يَعْقُوبُ لِرِفْقَةَ أُمِّهِ: «هُوَذَا عِيسُو أَخِي رَجُلٌ أَشْعَرُ وَأَنَا رَجُلٌ أَمْلَسُ. ١٢ رُبَّمَا يَجُسُّنِي أَبِي فَأَكُونُ فِي عَيْنَيْهِ كَمُتْهَوِّينَ، وَأَجْلِبُ عَلَى نَفْسِي لَعْنَةً لَا بَرَكَةَ». ١٣ فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: «لَعْنَتُكَ عَلَيَّ يَا ابْنِي. اسْمَعْ لِقَوْلِي فَقَطْ وَادْهَبْ خُذْ لِي. ١٤ فَذَهَبَ وَأَخَذَ وَأَخْضَرَ لَأُمِّهِ، فَصَنَعَتْ أُمُّهُ أَطْعِمَةً كَمَا كَانَ أَبُوهُ يُحِبُّ. ١٥ وَأَخَذَتْ رِفْقَةُ ثِيَابَ عِيسُو ابْنِهَا الْأَكْبَرِ الْفَاحِشَةِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهَا فِي الْبَيْتِ وَالْبَسَتْ يَعْقُوبَ ابْنَهَا الْأَصْغَرَ، ١٦ وَالْبَسَتْ يَدَيْهِ وَمَلَأَسَةً عَنْقَهُ جُلُودَ جَدِيٍّ الْمِعْزَى. ١٧ وَأَعْطَتْ الْأَطْعِمَةَ وَالْخُبْزَ الَّتِي صَنَعَتْ فِي يَدِ يَعْقُوبَ ابْنِهَا.

١٨ فَدَخَلَ إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ: «يَا أَبِي». فَقَالَ: «هَآنَذَا. مَنْ أَنْتَ يَا ابْنِي؟» ١٩ فَقَالَ يَعْقُوبُ لِأَبِيهِ: «أَنَا عِيسُو بِكَرِّكَ. قَدْ فَعَلْتُ كَمَا كَلَّمْتَنِي. قُمْ أَجْلِسْ وَكُلْ مِنْ صَيْدِي لِكَيْ تُبَارِكَنِي نَفْسُكَ». ٢٠ فَقَالَ إِسْحَاقُ لِابْنِهِ: «مَا هَذَا الَّذِي أَسْرَعْتَ لِتَجِدَ يَا ابْنِي؟» فَقَالَ: «إِنَّ الرَّبَّ إِلَهَكَ قَدْ يَسَّرَ لِي». ٢١ فَقَالَ إِسْحَاقُ لِيَعْقُوبَ: «تَقَدَّمْ لِأَجْسُكَ يَا ابْنِي. أَأَنْتَ هُوَ ابْنِي عِيسُو أَمْ لَا؟» ٢٢ فَتَقَدَّمَ يَعْقُوبُ إِلَى

إِسْحَاقَ أَبِيهِ، فَجَسَّهُ وَقَالَ: «الصَّوْتُ صَوْتُ يَعْقُوبَ، وَلَكِنَّ الْيَدَيْنِ يَدَا عِيسُو». ٢٣ وَلَمْ يَعْرِفْهُ لَأَنَّ يَدَيْهِ كَانَتَا مُشْعِرَتَيْنِ كَيْدِي عِيسُو أَخِيهِ، فَبَارَكُهُ. ٢٤ وَقَالَ: «هَلْ أَنْتَ هُوَ ابْنِي عِيسُو؟» فَقَالَ: «أَنَا هُوَ». ٢٥ فَقَالَ: «قَدِّمْ لِي لِأَكُلَ مِنْ صَيْدِ ابْنِي حَتَّى تُبَارِكَكَ نَفْسِي». فَقَدِّمَ لَهُ فَأَكَلَ، وَأَخْضَرَ لَهُ خَمْرًا فَشَرِبَ. ٢٦ فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ أَبُوهُ: «تَقَدِّمْ وَقَبِّلْنِي يَا ابْنِي». ٢٧ فَتَقَدَّمَ وَقَبَّلَهُ، فَشَمَّ رَائِحَةَ ثِيَابِهِ وَبَارَكَهُ، وَقَالَ: «انْظُرْ! رَائِحَةُ ابْنِي كَرَائِحَةِ حَقْلٍ قَدْ بَارَكَهُ الرَّبُّ. ٢٨ فَلْيُعْطِكَ اللَّهُ مِنْ نَدَى السَّمَاءِ وَمِنْ دَسَمِ الْأَرْضِ. وَكَثْرَةَ حِنْطَةٍ وَخَمْرِ. ٢٩ لِيُسْتَعْبَدَ لَكَ شُعُوبٌ، وَتَسْجُدَ لَكَ قَبَائِلُ. كُنْ سَيِّدًا لِإِخْوَتِكَ، وَلَيْسْجُدَ لَكَ بَنُو أُمِّكَ. لِيَكُنْ لَاعِنُوكَ مَلْعُونِينَ، وَمُبَارِكُوكَ مُبَارَكِينَ».

٣٠ وَحَدَّثَ عِنْدَمَا فَرَعَ إِسْحَاقُ مِنْ بَرَكةٍ يَعْقُوبَ، وَيَعْقُوبُ قَدْ خَرَجَ مِنْ لَدُنْ إِسْحَاقَ أَبِيهِ، أَنَّ عِيسُو أَخَاهُ أَتَى مِنْ صَيْدِهِ، ٣١ فَصَنَعَ هُوَ أَيْضًا أَطْعَمَةً وَدَخَلَ بِهَا إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ لِأَبِيهِ: «لِيَقُِّمَ أَبِي وَيَأْكُلَ مِنْ صَيْدِ ابْنِهِ حَتَّى تُبَارِكَنِي نَفْسُكَ». ٣٢ فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ أَبُوهُ: «مَنْ أَنْتَ؟» فَقَالَ: «أَنَا ابْنُكَ بِكَرْكٍ عِيسُو». ٣٣ فَارْتَعَدَ إِسْحَاقُ ارْتِعَادًا عَظِيمًا جَدًّا وَقَالَ: «فَمَنْ هُوَ الَّذِي اضْطَادَ صَيْدًا وَأَتَى بِهِ إِلَيَّ فَأَكَلْتُ مِنَ الْكُلِّ قَبْلَ أَنْ تَجِيءَ، وَبَارَكْتُهُ؟ نَعَمْ، وَيَكُونُ مُبَارَكًا». ٣٤ فَعِنْدَمَا سَمِعَ عِيسُو كَلَامَ أَبِيهِ صَرَخَ صَرَخَةً عَظِيمَةً وَمرَّةً جَدًّا، وَقَالَ لِأَبِيهِ: «بَارِكْنِي أَنَا أَيْضًا يَا أَبِي». ٣٥ فَقَالَ: «قَدْ جَاءَ أَخُوكَ بِمَكْرٍ وَأَخَذَ بَرَكَتَكَ». ٣٦ فَقَالَ: «أَلَا إِنَّ اسْمَهُ دُعِيَ يَعْقُوبَ، فَقَدْ تَعَقَّبَنِي الْآنَ مَرَّتَيْنِ! أَخَذَ بِكُورِيَّتِي، وَهُوَذَا الْآنَ قَدْ أَخَذَ بَرَكَتِي». ثُمَّ قَالَ: «أَمَا أَبْقَيْتَ لِي بَرَكةً؟» ٣٧ فَأَجَابَ إِسْحَاقُ وَقَالَ لِعِيسُو: «إِنِّي قَدْ جَعَلْتُهُ سَيِّدًا لَكَ، وَدَفَعْتُ إِلَيْهِ جَمِيعَ إِخْوَتِهِ عِيْدًا، وَعَضَدْتُهُ بِحِنْطَةٍ وَخَمْرِ. فَمَاذَا أَصْنَعُ إِلَيْكَ يَا ابْنِي؟» ٣٨ فَقَالَ عِيسُو لِأَبِيهِ: «أَلَمْ تَكُنْ بَرَكةً وَاحِدَةً فَقَطْ يَا أَبِي؟ بَارِكْنِي أَنَا أَيْضًا يَا أَبِي». وَرَفَعَ عِيسُو صَوْتَهُ وَيَكِي. ٣٩ فَأَجَابَ إِسْحَاقُ أَبُوهُ: «هُوَذَا بِلَا دَسَمِ الْأَرْضِ يَكُونُ مَسْكُنُكَ، وَبِلَا نَدَى السَّمَاءِ مِنْ فَوْقِ. ٤٠ وَبِسَيْفِكَ تَعِيشُ، وَلَأَخِيكَ تُسْتَعْبَدُ، وَلَكِنْ يَكُونُ حِينَمَا تَجْمَعُ أَنَّكَ تُكْسِرُ نِيرَهُ عَنْ عُنُقِكَ».

٤١ فَحَقَّدَ عَيْسُو عَلَى يَعْقُوبَ مِنْ أَجْلِ الْبَرَكَةِ الَّتِي بَارَكَهُ بِهَا أَبُوهُ. وَقَالَ عَيْسُو فِي قَلْبِهِ: «قَرُبْتُ أَيَّامَ مَنَاحَةِ أَبِي، فَأَقْتُلُ يَعْقُوبَ أَخِي». ٤٢ فَأَخْبِرَتْ رِفْقَةُ بِكَلَامِ عَيْسُو ابْنِهَا الْأَكْبَرَ، فَأَرْسَلَتْ وَدَعَتْ يَعْقُوبَ ابْنَهَا الْأَصْغَرَ وَقَالَتْ لَهُ: «هُوَذَا عَيْسُو أَخُوكَ مُتَسَلٍّ مِنْ جِهَتِكَ بِأَنَّهُ يَقْتُلُكَ. ٤٣ فَلَا تَنْ يَا ابْنِي اسْمَعْ لِقَوْلِي، وَقُمْ أَهْرُبْ إِلَى أَخِي لَابَانَ إِلَى حَارَانَ، ٤٤ وَأَقِمْ عِنْدَهُ أَيَّامًا قَلِيلَةً حَتَّى يَرْتَدَّ سُخْطُ أَخِيكَ. ٤٥ حَتَّى يَرْتَدَّ غَضَبُ أَخِيكَ عَنْكَ، وَيَنْسَى مَا صَنَعْتَ بِهِ. ثُمَّ أُرْسِلُ فَأَخْذُكَ مِنْ هُنَاكَ. لِمَاذَا أَعْدَمْتُ اثْنَيْكُمَا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ؟».

٤٦ وَقَالَتْ رِفْقَةُ لِإِسْحَاقَ: «مِلْتُ حَيَاتِي مِنْ أَجْلِ بَنَاتِ حِثَّ. إِنْ كَانَ يَعْقُوبُ يَأْخُذُ زَوْجَةً مِنْ بَنَاتِ حِثَّ مِثْلَ هَؤُلَاءِ مِنْ بَنَاتِ الْأَرْضِ، فَلِمَاذَا لِي حَيَاةٌ؟».

#### الإصحاح الثامن والعشرون

١ اذْهَبَا إِسْحَاقُ يَعْقُوبَ وَبَارَكَهُ، وَأَوْصَاهُ وَقَالَ لَهُ: «لَا تَأْخُذْ زَوْجَةً مِنْ بَنَاتِ كَنْعَانَ. ٢ أَقِمْ أَذْهَبْ إِلَى فَدَّانَ أَرَامَ، إِلَى بَيْتِ بَثُوثِيلَ أَبِي أُمِّكَ، وَخُذْ لِنَفْسِكَ زَوْجَةً مِنْ هُنَاكَ، مِنْ بَنَاتِ لَابَانَ أَخِي أُمِّكَ. ٣ وَاللَّهُ الْقَدِيرُ يُبَارِكُكَ، وَيَجْعَلَكَ مُثْمِرًا، وَيَكْثُرُكَ فَتَكُونُ جُمْهُورًا مِنَ الشُّعُوبِ. ٤ وَيُعْطِيكَ بَرَكَهَ إِبْرَاهِيمَ لَكَ وَلِنَسْلِكَ مَعَكَ، لِتَرِثَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ الَّتِي أَعْطَاهَا اللَّهُ لإِبْرَاهِيمَ». ٥ فَصَرَفَ إِسْحَاقُ يَعْقُوبَ فَذَهَبَ إِلَى فَدَّانَ أَرَامَ، إِلَى لَابَانَ بْنِ بَثُوثِيلَ الْأَرَامِيِّ، أَخِي رِفْقَةَ أُمِّ يَعْقُوبَ وَعَيْسُو.

٦ فَلَمَّا رَأَى عَيْسُو أَنَّ إِسْحَاقَ بَارَكَ يَعْقُوبَ وَأَرْسَلَهُ إِلَى فَدَّانَ أَرَامَ لِيَأْخُذَ لِنَفْسِهِ مِنْ هُنَاكَ زَوْجَةً، إِذْ بَارَكَهُ وَأَوْصَاهُ قَائِلًا: «لَا تَأْخُذْ زَوْجَةً مِنْ بَنَاتِ كَنْعَانَ». ٧ وَأَنَّ يَعْقُوبَ سَمِعَ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ وَذَهَبَ إِلَى فَدَّانَ أَرَامَ. ٨ رَأَى عَيْسُو أَنَّ بَنَاتِ كَنْعَانَ شَرِيرَاتٌ فِي عَيْنَيْ إِسْحَاقَ أَبِيهِ، ٩ فَذَهَبَ عَيْسُو إِلَى إِسْمَاعِيلَ وَأَخَذَ مَحَلَّةَ بِنْتِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، أُخْتُ نَبَايُوتَ، زَوْجَةً لَهُ عَلَى نِسَائِهِ.

## الإنجيل

لا يوجد في كتاب الإنجيل ذكر للنبي إسماعيل، في حين يأتي ذكر إسحاق في بعض الأناجيل مقترناً بقصة نسب السيد المسيح أو في نسق تذكري أو موعظي.

### إنجيل متى

#### الإصحاح الأول

١ كِتَابُ مِيلَادِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِ دَاوُدَ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ: ٢ إِبْرَاهِيمُ وَلَدَ إِسْحَاقَ. وَإِسْحَاقُ وَلَدَ يَعْقُوبَ. وَيَعْقُوبُ وَلَدَ يَهُوذَا وَإِخْوَتَهُ. ٣ وَيَهُوذَا وَلَدَ فَارِصَ وَزَارَحَ مِنْ ثَامَارَ. وَفَارِصُ وَلَدَ حَضْرُونَ. وَحَضْرُونَ وَلَدَ أَرَامَ. ٤ وَأَرَامُ وَلَدَ عَمِّيئَادَابَ. وَعَمِّيئَادَابُ وَلَدَ نَحْشُونَ. وَنَحْشُونَ وَلَدَ سَلْمُونَ. ٥ وَسَلْمُونُ وَلَدَ بُوعَزَ مِنْ رَاحَابَ. وَبُوعَزُ وَلَدَ عُوبِيدَ مِنْ رَاعُوثَ. وَعُوبِيدُ وَلَدَ يَسَى. ٦ وَيَسَى وَلَدَ دَاوُدَ الْمَلِكِ. وَدَاوُدُ الْمَلِكُ وَلَدَ سُلَيْمَانَ مِنَ الْتِّي لِأُورِيَّا. ٧ وَسُلَيْمَانُ وَلَدَ رَحْبَعَامَ. وَرَحْبَعَامُ وَلَدَ أَبِيَّا. وَأَبِيَّا وَلَدَ آسَا. ٨ وَآسَا وَلَدَ يَهُوشَافَاطَ. وَيَهُوشَافَاطُ وَلَدَ يُورَامَ. وَيُورَامُ وَلَدَ عُزْرِيَّا. ٩ وَعُزْرِيَّا وَلَدَ يُوثَامَ. وَيُوثَامُ وَلَدَ أَحَازَ. وَأَحَازُ وَلَدَ حِزْقِيَّا. ١٠ وَحِزْقِيَّا وَلَدَ مَنَسَّى. وَمَنَسَّى وَلَدَ آمُونَ. وَآمُونُ وَلَدَ يُوشِيَّا. ١١ وَيُوشِيَّا وَلَدَ يَكُنْيَا وَإِخْوَتَهُ عِنْدَ سَبْيِ بَابِلَ. ١٢ وَبَعْدَ سَبْيِ بَابِلَ يَكُنْيَا وَلَدَ شَالْتِيئِيلَ. وَشَالْتِيئِيلُ وَلَدَ زَرْبَابِيلَ. ١٣ وَزَرْبَابِيلُ وَلَدَ أَبِيهُودَ. وَأَبِيهُودُ وَلَدَ أَلِيَّاظِيمَ. وَأَلِيَّاظِيمُ وَلَدَ عَازُورَ. ١٤ وَعَازُورُ وَلَدَ صَادُوقَ. وَصَادُوقُ وَلَدَ أَحِيمَ. وَأَحِيمُ وَلَدَ أَلِيُودَ. ١٥ وَأَلِيُودُ وَلَدَ أَلِيْعَازَرَ. وَأَلِيْعَازَرُ وَلَدَ مَتَّانَ. وَمَتَّانُ وَلَدَ يَعْقُوبَ. ١٦ وَيَعْقُوبُ وَلَدَ يُوْسُفَ رَجُلَ مَرْيَمَ الَّتِي وُلِدَ مِنْهَا يَسُوعُ الَّذِي يُدْعَى الْمَسِيحَ. ١٧ فَجَمِيعُ الْأَجْيَالِ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِلَى دَاوُدَ أَرْبَعَةٌ عَشَرَ جِيلًا، وَمِنْ دَاوُدَ إِلَى سَبْيِ بَابِلَ أَرْبَعَةٌ عَشَرَ جِيلًا، وَمِنْ سَبْيِ بَابِلَ إِلَى الْمَسِيحِ أَرْبَعَةٌ عَشَرَ جِيلًا.

## الإصحاح الثامن

٥ وَلَمَّا دَخَلَ يَسُوعُ كَفَرْنَاهُومَ، جَاءَ إِلَيْهِ قَائِدُ مِئَةٍ يَطْلُبُ إِلَيْهِ ٦ وَيَقُولُ: «يَا سَيِّدُ، غُلَامِي مَطْرُوحٌ فِي الْبَيْتِ مَفْلُوجًا مُتَعَذِّبًا جِدًّا». ٧ فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنَا آتِي وَأَشْفِيهِ». ٨ فَأَجَابَ قَائِدُ الْمِئَةِ وَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، لَسْتُ مُسْتَحِقًّا أَنْ تَدْخُلَ تَحْتَ سَفَافِي، لَكِنْ قُلْ كَلِمَةً فَقَطْ فَيَبْرَأَ غُلَامِي. ٩ لِأَنِّي أَنَا أَيْضًا إِنْسَانٌ تَحْتَ سُلْطَانٍ. لِي جُنْدٌ تَحْتَ يَدَيَّ. أَقُولُ لِهَذَا: اذْهَبْ! فَيَذْهَبُ، وَلَا أَحَرَّ: ائْتِ! فَيَأْتِي، وَلِعَبْدِي: افْعَلْ هَذَا! فَيَفْعَلُ». ١٠ فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ تَعَجَّبَ، وَقَالَ لِلَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُ: «الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: لَمْ أَجِدْ وَلَا فِي إِسْرَائِيلَ إِيْمَانًا بِمِقْدَارِ هَذَا! ١١ وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ وَيَتَّكِثُونَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، ١٢ وَأَمَّا بَنُو الْمَلَكُوتِ فَيُطْرَحُونَ إِلَى الظُّلْمَةِ الْخَارِجِيَّةِ. هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصَرِيرُ الْأَسْنَانِ». ١٣ ثُمَّ قَالَ يَسُوعُ لِقَائِدِ الْمِئَةِ: «اذهَبْ، وَكَمَا آمَنْتَ لِيَكُنْ لَكَ». فَبَرَأَ غُلَامُهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ.

## الإصحاح الثاني والعشرون

٢٩ فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «تَضِلُّونَ إِذْ لَا تَعْرِفُونَ الْكِتَابَ وَلَا قُوَّةَ اللَّهِ. ٣٠ لِأَنَّهُمْ فِي الْقِيَامَةِ لَا يُزَوِّجُونَ وَلَا يَتَزَوَّجُونَ، بَلْ يَكُونُونَ كَمَلَائِكَةِ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ. ٣١ وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ قِيَامَةِ الْأَمْوَاتِ، أَفَمَا قَرَأْتُمْ مَا قِيلَ لَكُمْ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ الْقَائِلِ: ٣٢ أَنَا إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ وَإِلَهُ يَعْقُوبَ؟ لَيْسَ اللَّهُ إِلَهُ أَمْوَاتٍ بَلْ إِلَهُ أَحْيَاءٍ». ٣٣ فَلَمَّا سَمِعَ الْجُمُوعُ يَهْتُوا مِنْ تَعْلِيمِهِ.

## إنجيل مرقس

## الإصحاح الثاني عشر

٢٦ وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الْأَمْوَاتِ إِنَّهُمْ يَقُومُونَ: أَفَمَا قَرَأْتُمْ فِي كِتَابِ مُوسَى، فِي أَمْرِ الْعُلَاقَةِ، كَيْفَ كَلَّمَهُ اللَّهُ قَائِلًا: أَنَا إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ وَإِلَهُ يَعْقُوبَ؟ ٢٧ لَيْسَ هُوَ إِلَهُ أَمْوَاتٍ بَلْ إِلَهُ أَحْيَاءٍ. فَأَنْتُمْ إِذَا تَضِلُّونَ كَثِيرًا

## إنجيل لوقا

### الإصحاح الثالث

٢٣ وَلَمَّا ابْتَدَأَ يَسُوعُ كَانَ لَهُ نَحْوُ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَهُوَ عَلَى مَا كَانَ يُظَنُّ ابْنُ  
يُوسُفَ، بْنِ هَالِي، ٢٤ بْنِ مَتَّى، بْنِ لَآوِي، بْنِ مَلِكِي، بْنِ يَتَّى، بْنِ يُوسُفَ،  
٢٥ بْنِ مَتَّيَّا، بْنِ عَامُوصَ، بْنِ نَاخُومَ، بْنِ حَسَلِي، بْنِ نَجَّايَ، ٢٦ بْنِ مَاتَّ، بْنِ  
مَتَّيَّا، بْنِ شَمْعِي، بْنِ يُوسُفَ، بْنِ يَهُودَا، ٢٧ بْنِ يُوَحَنَّا، بْنِ رِيسَا، بْنِ زَرْبَابَلْ،  
بْنِ شَالْتَيْشِيلَ، بْنِ نِيرِي، ٢٨ بْنِ مَلِكِي، بْنِ أَدِّي، بْنِ قُصَمَ، بْنِ أَلْمُودَامَ، بْنِ عِيرِ،  
٢٩ بْنِ يُوسِي، بْنِ أَلِيْعَازَرَ، بْنِ يُونِيمَ، بْنِ مَتَّى، بْنِ لَآوِي، ٣٠ بْنِ شَمْعُونَ، بْنِ  
يَهُودَا، بْنِ يُوسُفَ، بْنِ يُونَانَ، بْنِ أَلْيَاقِيمَ، ٣١ بْنِ مَلِيَا، بْنِ مَيْنَانَ، بْنِ مَتَّانَا، بْنِ  
نَافَانَ، بْنِ دَاوُدَ، ٣٢ بْنِ يَسَى، بْنِ عُوَيْدَ، بْنِ بُوعَزَ، بْنِ سَلْمُونَ، بْنِ نَحْشُونَ،  
٣٣ بْنِ عَمِّيْنَادَابَ، بْنِ أَرَامَ، بْنِ حَضْرُونَ، بْنِ قَارِصَ، بْنِ يَهُودَا، ٣٤ بْنِ يَعْقُوبَ،  
بْنِ إِسْحَاقَ، بْنِ إِبْرَاهِيمَ، بْنِ تَارَحَ، بْنِ نَاخُورَ، ٣٥ بْنِ سَرُوجَ، بْنِ رَعُو، بْنِ  
قَالَجَ، بْنِ عَابِرَ، بْنِ شَالِحَ، ٣٦ بْنِ قَيْنَانَ، بْنِ أَرْفَكَشَادَ، بْنِ سَامَ، بْنِ نُوحَ، بْنِ  
لَامَكَ، ٣٧ بْنِ مَتُوشَالِحَ، بْنِ أَخْنُوحَ، بْنِ يَارِدَ، بْنِ مَهْلَلُشِيلَ، بْنِ قَيْنَانَ .

## يوسف عليه السلام

هو يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم، ورد ذكره في سبعة وعشرين موضعاً من التنزيل الحكيم، أولها في الأنعام ٨٤ وآخرها في غافر ٣٤ والباقي جميعه في سورة يوسف، وهي السورة رقم ١٢ التي تتضمن تفاصيل قصة هذا النبي الكريم، وترسم لنا صورة الأوضاع والعلاقات الأسرية والقبلية والعشائرية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية السائدة في ذلك الوقت بتفصيل غير مسبوق.

بعد أن رأينا كيف انتهت رحلة إبراهيم من الحيرة والشك في بابل حتى وصوله إلى اليقين والاطمئنان عند بيت الله المحرم في بكة، ورأينا أن الصلاة والحج بدأ بإبراهيم وأن الزكاة بدأت بإسماعيل، وكنا قد رأينا كيف بدأ برُّ الوالدين بنوح وسادت في زمانه سُكنى الوديان ثم كيف انتقل الناس إلى سُكنى الجبال خوفاً من الطوفان وبعدها إلى البيوت المنحوتة في الجبال خوفاً من العواصف والرياح، ورأينا كيف بدأ الوفاء بالكيل والميزان بشُعيب وتحريم بعض الأطعمة بإسرائيل، ونأتي الآن لتأمل ما في قصة يوسف - كما وردت في التنزيل الحكيم - من عبر.

### أ - على صعيد الأسرة والعشيرة

تبدأ القصة لتصوّر لنا والداً هو يعقوب وأبناءه الاثني عشر أصغرهم يوسف وبنيامين المحبوبان المفضلان عند يعقوب، ونفهم أن ثمة جوانب في علاقات



الأفراد بعضهم مع بعض ضمن الأسرة الواحدة لم تتغير رغم توالي الحقب والعصور، منها وجود ابن في الأسرة يفضلُه الأبوان عن باقي إخوته ويخصَّنه بالحب والاهتمام، خصوصاً عندما يكون الأب صاحب جاه أو تكون الأم صاحبة مال.

لا ريب في أن هذه الظاهرة أكثر شيوعاً ووضوحاً عند الأمهات منها عند الآباء، والسبب في ذلك هو اختلاف طبيعة العاطفة بين الرجل والمرأة من جانب، ونظرة المجتمع التي تعتبر إظهار الحنان والحب للأولاد نوعاً من الضعف ودليلاً على التخنُّث. وهذا معنى قول إخوة يوسف لأبيهم ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ (يوسف ٨٥). إلا أننا يجب هنا أن نفرق بين أمرين أولهما محمود والثاني مذموم:

فالعطف على الأولاد وأخذهم بالرحمة وإحاطتهم بالحنان والرعاية ومداعبتهم والمسح على رؤوسهم أمر مطلوب دعا النبي (ص) أصحابه إلى التمسك به. روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قَبَّلَ رسول الله (ص) الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قَبَّلْتُ منهم أحداً. فنظر إليه رسول الله (ص) ثم قال: من لا يَرْحَمَ لا يُرْحَم. أه. وهذا الحديث من الحكمة النبوية إن صح.

أما تفضيل بعض الأولاد على بعض، وتمييز أحدهم عن الآخرين وتخصيصه بما ليس لغيره فيه حصة ونصيب بدون سبب وجيه، مثال ذلك تخصيص الضعاف من الذرية بشيء من الوصية دون غيرهم، فتلك هي العبرة الأساس التي قصد سبحانه أن نصل إليها وأن نفهمها، وذلك هو الدرس الأول الذي أَرَادَنَا أن نتعلمه وأن نتجنب الوقوع فيما ينتج عنه من متواليات تم تفصيلها في القصة بكل وضوح:

١ - لعل الغيرة هي أول ما يتولد عن التمييز بين الإخوة، ضمن الأسرة الواحدة، وتفضيل بعضهم على بعض. وهذا معنى قوله تعالى ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ

وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْنَمَا مَنَّا. . . ﴿ (يوسف ٨) . فالإخوة لم ينكروا حب أبيهم لهم ، ولم يزعموا أنه يكرههم مثلاً ، لكنهم أخذوا عليه تفضيل يوسف وأخيه عليهم بحبه لهما أكثر من حبه لهم .

٢ - فإذا ما انتشر سرطان الغيرة تحوّل إلى حسد تغذّيه الأنانية ، يعتقد الحاسد معه أنه أفضل من المحسود من جانب ، ويودّ لو أنه استأثر بما لديه من جانب آخر ، وهذا - برأينا - ما عناء إبليس في قوله لربه حين أمره بالسجود لآدم ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (ص ٧٦) .

٣ - وإذا ما استحکم الحسد انقلب إلى ضغينة وحقد يدفع الحاقداً إلى التفكير بتصفية المحقود عليه جسدياً إما بالقتل أو بالإبعاد ، وكأني بإخوة يوسف استقر رأيهم بداية على قتله ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَحْتَـلْ لَكُمْ وَجْهٌ أَيْكُمُ . . .﴾ (يوسف ٩) ، إلا أنهم عدلوا عن ذلك وأخذوا بقول من قال منهم ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (يوسف ١٠) .

ويستوقفنا في الآية السابقة أمران . الأول ، أنها ذكرت الجُبّ ولم تذكر البئر . والجُبّ حُفْرة عميقة من صنع الطبيعة تتجمع فيها المياه ، وعرة الجوانب يصعب على الساقط فيها أن يخرج منها . أما البئر فحفرة يصنعها الإنسان - قد تكون عميقة وقد لا تكون - ليصل إلى منابع المياه العميقة ، والأجباب حُفر مملوءة بالمياه يعرف الرعاة أماكنها ويردون لها لمواشيهم كما يقصدها المسافرون السيارة وليس القوافل ، التماساً للماء لإبلهم وخيولهم ، أما الآبار فغالباً ما تكون على الطرق التجارية ليشرب منها الناس (القوافل) ، وأما ما زعمه المفسرون من أن الجب بئر بيت المقدس أو بأرض الأردن أو بين مَدْيَن ومصر (انظر التفسير الكبير للرازي ج ١٨ ص ٧٧ ومجمع البيان للطبرسي ج ٣ ص ٢١٣) فهو خلط في معاني الألفاظ ومدلولاتها قاد إليه القول بالترادف ، لأن الجب شيء والبئر شيء آخر ولأن بيت المقدس لم يكن معروفاً في زمن يعقوب وأبنائه بهذا الاسم .

والثاني، أنها ذكرت السيارة ولم تذكر القوافل، والسيارة جمع تكسير مفردة سيار اسم فاعل من سار يسير، وهو المسافر من بلد إلى آخر، فإذا اجتمع المسافرون في جماعة أصبحوا سيارة. أما القوافل فجمع مفردة قافلة أفرادها تجار يحملون بضائعهم من منطقة لبيعوها في منطقة أخرى، ثم يشترون بضائع يعودون بها إلى المنطقة التي جاؤوا منها، ومن هنا سُميت القافلة قافلة لأنها ترجع وتعود، أما السيارة فمسافروها لا يعودون بالضرورة، وتلك إشارة إلى أن الإخوة قرروا إبعاد يوسف إبعاداً لا عودة فيه.

ونفهم من هذا كله أن يعقوب وأبناءه لم يكونوا تجاراً أهل حضر بل كانوا رعاة أهل بادية بدلالة ثلاثة أمور:

١ - ورد لفظ الجب في الآية ١٠ من سورة يوسف معرّفاً بأل العهد، ولم يكن ليأتي كذلك لولا أن الإخوة يعرفونه، إذ طالما وردوه بماشيتهم وقطعانهم.

٢ - ورد لفظ الذئب أيضاً معرّفاً بأل العهد على لسان يعقوب لبنيه في قوله تعالى ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ (يوسف ١٣)، ولم يكن ليأتي كذلك لولا أن الإخوة يعرفونه، إذ طالما تعرّضوا أثناء رعيهم لهجمات الذئاب الجائعة.

٣ - ورد لفظ البدو على لسان يوسف لإخوته وأبويه في قوله تعالى بنهاية القصة ﴿... وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي...﴾ (يوسف ١٠٠)، والبدو لا يكونون إلا رعاة.

في ضوء هذه الأمور الثلاثة من جانب، فنحن في قوله تعالى ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (يوسف ١٢)، لا نستطيع إلا أن نفهم فعل الرتع بمعنى الرعي والارتعاء حصراً وليس بأي معنى آخر، تماماً كما في قول ابن الملوّح العامري:

أخذنا وأعطينا إذ البُهم ترتعي      وإذ نحن خلف البُهم مستتران  
ولتجئ الوقوع في اللحن والخروج على ما اصطلاح عليه العرب قواعدياً في

لسانهم من جانب ثانٍ، فنحن لانستطيع - إن فهمنا الرتع بمعنى الرعي - إلا أن نحرك العين في فعل «يرتع» بالكسر وليس بالسكون كما هي في جميع مصاحف الأمة الإسلامية سنّةً وشيعةً، وكما في جميع الترجمات إلى اللغات الأخرى فارسية وتركية وروسية وإنكليزية، وكما في جميع التفاسير المنتشرة في أيدي الناس قديمها وحديثها.

وللحفاظ على منطقية الحوار بين الإخوة وأبيهم من جانب ثالث، فنحن لانستطيع - إن لاحظنا أن يوسف كان وقتها غلاماً صغير السن - أن نقرأ فعل «يرتع» بالياء فنسند إلى يوسف فعل رعي القطيع. قد يصح أن نسند إليه بحكم سنّة فعل اللعب أما الرعي فلا. كما لا نستطيع أن نسند إليه فعل الرعي وفعل اللعب معاً، إذ الغلام في مثل سن يوسف إما أن يساعد بإخراج القطيع إلى الأماكن الخصيبة بالماء والكلأ - إن توقّرت له الخبرة اللازمة - أو أن يلعب، ولا يجتمعان. وأمام هذا لا يسعنا إلا أن نستعرض القراءات وإشكالياتها.

ثمة سبع قراءات لآية يوسف ١٢، اتفق الإمام الرازي في تفسيره ج ١٨ ص ٧٨، والإمام الطبرسي في تفسيره ج ٣ ص ٢١٣ على خمس منها، وانفرد الطبرسي بذكر سادسة وسابعة اعتبرهما من الشواذ، ندرجها جميعاً بالتفصيل كما وردت:

١ - (أرسله معنا غداً نرتع ويلعب) هكذا قرأها ابن كثير. الفعل المضارع الأول بالنون منسوباً للإخوة، ويكسر العين من الارتعاء. والارتعاء على وزن افتعال من رعت، يقال ارتعت الماشية الكلأ إذا ساغته وأكلته. والفعل المضارع الثاني بالياء منسوباً ليوسف.

٢ - (أرسله معنا غداً يرتع ويلعب) هكذا قرأها أبو جعفر ونافع، الفعلان المضارعان كلاهما بالياء منسوبان ليوسف، بمعنى أنه يياشر الرعي ليتدرب عليه فمرة يرتعي ومرة يلعب كفعل الصبيان.

٣ - (أرسله معنا غداً نرتع ونلعب) هكذا قرأها أبو عمرو وابن عامر، الفعلان المضارعان كلاهما بالنون منسوبان للإخوة وكلاهما مجزوم بالسكون

على آخره . قال ابن الأعرابي : الرتع هو الأكل بشراهة .

٤ - (أرسله معنا غداً يرتع ويلعب) هكذا قرأها أهل الكوفة ورويس عن يعقوب ، والفعالان كلاهما بالياء منسوبان ليوسف ، وكلاهما مجزوم بالسكون على آخره . وهذه هي القراءة المعتمدة فيما بين أيدي الناس اليوم من مصاحف وتفسير وترجمات .

٥ - (أرسله معنا غداً نرتع ويلعب) هكذا قرأها روح وزيد عن يعقوب وقرأها الأعرج وإبراهيم النخعي ، وروي عن أبي عمرو أنه قرأها كذلك . الفعل الأول بالنون منسوباً للإخوة والفعل الثاني بالياء منسوباً ليوسف وكلا الفعلين مجزوم بالسكون على آخره .

٦ - (أرسله معنا غداً يرتع ويلعب) هكذا قرأها العلاء بن سيابة ، الفعالان بالياء منسوبان ليوسف ، الأول مجزوم بحذف حرف العلة من آخره والثاني مرفوع وعلامته الضمة .

٧ - (أرسله معنا غداً يرتع ويلعب) هكذا قرأها أبو الرجا ، كلا الفعلين بالياء وكلاهما مرفوع وعلامته الضم على آخره .

ليس صعباً على أي متأمل عاقل ينظر في هذه القراءات السبع أن يلاحظ عدة أمور . أولها أن القارئ الواحد قد يقرأ الآية نفسها على أكثر من وجه . فقد أخذ أهل الكوفة بقراءة يعقوب (رقم ٤) وأخذ روح وزيد عنه قراءة أخرى (رقم ٥) . وقرأ أبو عمرو بالقراءة رقم ٣ وبالقراءة رقم ٥ معاً . ثانيها ، أن القراء مشهورهم وشواذهم ، سواء أكانوا سبعة كما في رأي البعض أم كانوا عشرة كما في رأي البعض الآخر ، هم جميعاً من التابعين أي من أبناء ما بعد العصر النبوي ، وأغلبيتهم من أبناء ما بعد عصر التدوين<sup>(١)</sup> . هذان الأمران يقودان إلى

(١) نورد على سبيل المثال لتوضيح ما ذهبنا إليه ما ذكره أبو بكر أحمد بن محمد الدمشقي

الشهير بابن الجزري (ت عام ٨٣٥ هـ) في كتابه «طيب النشر في القراءات العشر» :

١ - نافع بن عبد الرحمن الليثي (٧٠-١٦٩ هـ) راويه : قالون وورش .

٢ - عبد الله بن كثير الداري المكي (٤٥-١٢٠ هـ) راويه : البري وقيل .

أمر ثالث هو أن ما عددناه من اختلافات سبعة في قراءة قوله تعالى ﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب﴾ ليس أكثر من تصحيفات في نص مكتوب مقروء، أما في التنقيط والإعجام أو في الشكل والإعراب أو في كليهما معاً: يرتع ويلعب / نرتع ويلعب / يرتع ويلعب / نرتع ويلعب / يرتع ويلعب / نرتع ويلعب. وكان طبيعياً أن تقع مثل هذه التصحيفات في نص مكتوب لم يكن قد عرف التنقيط ولا حركات الإعراب بعد من ضمّ وفتح وكسر وسكون.

من الثابت أن التنزيل الحكيم جاء منظوقاً مسموعاً وليس مخطوطاً مقروءاً. ومن الثابت أيضاً أن الرسول (ص) أبلغه لأصحابه بكل دقة وأمانة كما سمعه من جبريل. وهذا يعني بكل بساطة أن للتنزيل الحكيم قراءة واحدة لا ثانية لها ولا سابعة ولا عشرة. ونحن نفهم في ضوء هذه الثوابت أن يتساهل النبي (ص) وهو يسمع القراء من مُضَرّ وربيعة وتميم يقرأون الآيات كما تقتضي لهجات قبائلهم، فيجيز أن تنقلب الكاف شيئاً والحاء هاءً وأن تتحوّل العين في أول الكلمة إلى همزة. ونفهم أن هذا التجويز عنده يأتي مصداقاً لقوله تعالى ﴿... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...﴾ (البقرة ١٨٥) ولقوله تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ (البقرة ٢٨٦). لكننا لانفهم أبداً أن يتساهل

٣ - زياد بن العلا المازني البصري (٦٨-١٥٥ هـ) راويه: يحيى والدوري.

٤ - عبد الله بن عامر اليحصبي الدمشقي (٦١-١١٨ هـ) راويه: هشام وابن ذكوان.

٥ - عاصم بن أبي النجود الأسدي الكوفي (٩٩-١٢٧ هـ) راويه: شعبة وحفص.

٦ - حمزة بن حبيب التيمي الكوفي (٨٠-١٥٦ هـ) راويه: سليم وخلف.

٧ - علي بن حمزة الكسائي الكوفي (٩٩-١٩٨ هـ) راويه: أبو الحارث والدوري.

٨ - يزيد بن القعقاع المخزومي المدني (٩٩-١٣٠ هـ) راويه: عيسى وابن حجاز.

٩ - يعقوب بن اسحق الحضرمي البصري (١١٧-٢٠٥ هـ) راويه: رؤس وروح.

١٠ - خلف بن هشام البزار (١٥٠-٢٢٩ هـ) راويه: إسحق وإدريس.

يبقى أن نشير إلى أن لكل من الرواة طرقاً متعددة لا تقل عن أربعة، فالرواية عن الراوي في علم القراءات اسمها طريق، كطريق الداني وطريق الشاطبي وطريق أبي العز ونحو ذلك. فما كان عن أحد الأئمة العشرة فهو قراءة، وما كان عن أحد روايتهم فهو رواية، وما كان عن بعدهم فهو طريق، وقد يصل عدد الطرق إلى ألف.

فيجيز قراءة ترفع المجزوم وأخرى تجزم المرفوع وثالثة تنسب الفعل لغير فاعله ورابعة تقلب المفرد الغائب إلى جمع غائب أو إلى جمع متكلم وخامسة تحوّل الفعل المعتل الآخر إلى تام وسادسة تفسّر الرعي والارتعاء بأنه الأكل بشرائه .  
يقول الإمام محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي في تفسيره «الكشاف عن حقائق التنزيل» (ج ٢ ص ١٧٧) مفسراً قوله تعالى ﴿... فَقِيلُوا أَيِّمَّةَ الْكُفْرِ...﴾ (التوبة ١٢):

«فإن قلت: كيف لفظ أئمة؟ قلت: همزة بعدها همزة بين بين، أي بين مخرج الهمزة والياء . وتحقيق الهمزتين قراءة مشهورة وإن لم تكن مقبولة عند البصريين . وأما التصريح بالياء فليس بقراءة ولا يجوز أن تكون قراءة، ومن صرح بهما فهو لاحق محرّف» أهـ.

إن من العجيب ألا يقف إمام لغوي مفسر كالزمخشري أمام اختلاف القراءات في آية يوسف (١٢) كما وقف أمام المسألة ذاتها في آية التوبة (١٢) . والأعجب أنه، وهو على رأس قائمة متهمة بالاعتزال لاحتكامه إلى العقل في كل ما يذهب إليه، لم تستوقفه قراءة ابن كثير الداري المكي لآية يوسف (١٢) بمтанتها قواعدياً من جانب وبانسجامها مع السباق والسياق من جانب آخر، بقدر ما استوقفه عدد من الأمور في آية التوبة (١٢) وأشار إليها:

- أ - مسألة تحقيق الهمزتين في لفظة (أئمة) كقراءة مشهورة .
  - ب - رفض قراءة البصرة لهذه القراءة رغم أنها مشهورة .
  - ج - مسألة ترقيق الهمزة الثانية شرط ألا تتحوّل إلى ياء .
  - د - فإن تحوّلت إلى ياء صريحة أصبحت لاحقاً وتحريفاً .
- ويندهش المتأمل وهو يجده يرفض مع البصريين تحقيق الهمزتين في قراءة مشهورة لا يكلف نفسه ذكر صاحبها أهو من الكوفيين أم من غيرهم<sup>(١)</sup> . وتزداد

(١) من المفيد الإشارة إلى أن القراء العشرة فيهم البصريون كيعقوب ورويس وذبّان وفيهم الكوفيون كعاصم وحمزة والكسائي وفيهم المدنيون كنافع ويزيد .

دهشته وهو يجده يعتبر - دون أن يرفّ له جفن - أن إشباع ترقيق الهمزة ليس بقراءة ولا يجوز أن تكون قراءة وأن التصريح بالياء لحن وتحريف .

وإذا تركنا جانباً التعجب والاندعاش مما قاله الزمخشري فنحن لا نستطيع إلا أن نقف عند ما لم يقله . أترأه وهو يذكر البصريين في عبارته وما هو مقبول عندهم من قراءات أو غير مقبول غاب عنه أن يشير - على الأقل - إلى قراءة إمام قراء المدينة المنورة نافع بن عبد الرحمن الليثي الذي قال فيه الإمام مالك : «قراءة نافع سُنة»؟

وإذا كان لم يغب عنه ذلك - وهو الأرجح عندنا - أترأه يحاول أن يفهمنا أن اختلاف القراءات، كغيره من أوجه الخلاف بين الكوفيين والبصريين مثل النحو والصرف وغيره، ليس أكثر من خلاف بين شيعة ونواصب كل منهم يقرأ بقراءة إمامه، هؤلاء ينتهون في زعمهم إلى ابن مسعود وأولئك ينتهون في زعمهم إلى علي بن أبي طالب . ونحن نعلم أن التاريخ يذكر لنا مصاحف لعلي بن أبي طالب ولعبد الله بن مسعود ولكنها كلها أُحرقت بعد تدوين نسخة عثمان، وهذا - برأينا - سبب هذه الاختلافات في القراءات . وأن علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود لم يكونا من لجنة تدوين المصحف في عهد عثمان بن عفّان .

لقد سبق لنا في موضع آخر من كتابنا (نحو أصول جديدة للفقهاء الإسلاميين) أن أفردنا خبراً متواضعاً لمسألة القراءات دعونا فيه الدارسين إلى استقصاء أبعاد المسألة وبحثها، وما نحن نفرد لها هنا هذا الحيز المتواضع راجين ممن تخصصوا في هذه المسألة لنيل شهاداتهم العليا كالمجستير والدكتوراه إعطاءها حقها من التأمل والتفكير .

### ب - على صعيد حياته الخاصة بأبرز أحداثها

بعيداً عن اصطفاء الله سبحانه ليوسف واختياره ليكون نبياً، وهو ما ستحدث عنه بالتفصيل في فقرة تالية، فإن المتأمل في قصة يوسف - كما وردت في السورة رقم ١٢ من التنزيل الحكيم - يجد نفسه أمام جملة أحداث أبرزها :



١ - كثيرون من أهل الأخبار وأصحاب قصص الأنبياء بالغوا في وصف يوسف بالحسن والجمال والملاحة، وتركوا العنان لمخيلتهم وهم يقرؤون وصفه على لسان نسوة المدينة في قوله تعالى ﴿... فَلَمَّا رَأَتْهُ أَكْبَرَتْهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف ٣١). ونكتفي هنا بالإشارة إلى عبارة (أكبرته)، ففي الإكبار من الإجلال والهيبة أكثر مما فيه من الإعجاب والافتتان.

كان يوسف بهيَّ الطلعة وسيماً موفور الصحة في ريعان الشباب، ولد طفلاً ونشأ غلاماً في بيئة رعوية بين أحضان الطبيعة، ثم اشتد ساعده ناعماً مدلاً في قصر سيد المدينة الذي من اللحظة الأولى التي اشتراه فيها أوصى امرأته به قائلاً ﴿... أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا...﴾ (يوسف ٢١). أما النفع المرجو منه فهو الربح إن باعه بسعر أعلى مما دفعه فيه عند شرائه. ونفهم أن الرق والتبتي كانا شائعين في البيئة الجديدة التي وجد يوسف نفسه فيها.

٢ - وكان من الطبيعي أن يصبح يوسف سراجاً تحوم حوله فراشات القصر إن لم نقل فراشات المدينة، فبدأت بذلك محتته الثانية.

٣ - يبدو أن يوسف كان عُرضة لإغراءات ودعوات أكثر من امرأة واحدة بدليل قوله في دعائه لربه سبحانه ﴿... وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف ٣٣). لكن المؤكد أنه تعرّض مرات عديدة لمحاولات سيّدته المشغوفة به حباً، كانت إحداها تلك التي انفردت به في غياب زوجها وغلّقت فيها الأبواب، بدليل أن فعل المراودة على لسان النسوة في قوله تعالى ﴿... وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ...﴾ (يوسف ٣٠)، جاء في الآية بصيغة المضارع الدالة على دوام التكرار، ولو كان ذلك حصل مرة واحدة لجاء بصيغة الماضي (راودت).

٤ - إذا نحن عدنا للوقوف عند قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا...﴾ (يوسف ٢١)، فهما

بدلالة العبارة الأخيرة أن الرجل وامراته ليس لديهما أولاد، لعقم أو عُقر أو عُنَّة لدى أحدهما أو لديهما معاً، رغم أن ذلك لا يمنع غريزة الجماع ولا يهددها، علماً أننا نرجح أن سبب عدم الإنجاب هو العُنَّة لدى عزيز مصر، التي لعلها شكّلت بدورها سبباً دفع بالمرأة إلى البحث خارج فراش الزوجية عمّن يعوضها عن زوجها العُتِن.

٥ - ننتقل الآن إلى قوله تعالى ﴿وَرَوَدَتْهُ آلِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتْ الْأَبْيَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (يوسف ٢٣)، ونفهم منه أموراً أولها: أن يوسف كان يعرف الله بدليل أنه استعاذ به، ثانيها: أنه استكبر واستنكر أن يمثل لما تدعوه إليه باعتباره يتعارض أخلاقياً مع ما انفتحت عيناه عليه في بيته الأولى من مكارم وقيم ومثل عليا كالوفاء والمروءة، وليس باعتباره زنا محرماً لأن تحريم الزنا لم يكن قد نزل به تشريع إلهي. ثالثها: أن قوله في النصف الثاني من الآية ٢٣ يجسد من جانب مصداقية كونه حكيماً يفعل ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي، ويجسد من جانب آخر كونه عليمًا يعرف أن الظالم خاسر لا يحصد الفلاح. رابعها: أنه استخدم في قوله عبارة (أحسن مثواي) وهي ذات العبارة التي استخدمها العزيز وهو يوصي امرأته بيوسف، وكأنه يذكرها بزواجها بشكل غير مباشر.

٦ - بعد آية يوسف ٢٣، يتابع سبحانه القصة قائلاً ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَمًا بُرْهَنَ رَبِّيَ ۖ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف ٢٤).

هذه الآية لا يمكن فهمها إلا إذا فهمنا لماذا استعاذ يوسف بالله في الآية السابقة. والجواب: إنه من موقعه كنبّي يعلم أن ميل الرجل للمرأة والمرأة للرجل غريزة فطرية جعلها الله فيهما بدلالة قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً...﴾ (الروم ٢١)، ويعلم أن هذه الغريزة المخلوقة المجعولة فيه قانون رباني قاهر لا فكاك لإنسان

منه نبياً كان أم غير نبي إلا بتدخل من الله الخالق البارئ المصور. وهذا ما أشار إليه يوسف نفسه في قوله ﴿... وَإِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف ٣٣)، ومن هنا كان طبيعياً أن يلجأ يوسف إلى ربه مستعيذاً به راجياً منه متوكلاً عليه. والسؤال الأول: هل استجاب الله ليوسف؟ والجواب: نعم، بدلالة قوله تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (يوسف ٣٤). والسؤال الثاني: كيف حصل ذلك وتم؟ والجواب: كما أن الله سبحانه استجاب لإبراهيم وعطّل خاصية الإحراق في نار النمرود فجعلها برداً وسلاماً، وكما استجاب لموسى في مباراته أمام فرعون فحوّل العصا من خشب إلى لحم ودم فإذا هي حية تسعى، كذلك استجاب لنبيه يوسف فجرّده من قدرته على الجماع، فإذا بعنوان ذكوره خرقه بالية لا تنفع لا للخل ولا للخردل. وهذا هو البرهان الربّاني المادي الذي رآه يوسف رأي العين وهي تهّم به ويهّم بها، وهكذا أصبح الجماع الجنسي مستحيلاً. وهذا هو برهان الله على الإحصان من الفاحشة، وهو برهان من مقام الربوبية. وإلى يومنا هذا إذا أراد الله منع إنسان ما من الوقوع في الفاحشة فإنه يفقده القدرة على الجنس إن كان فاحشة، ونحن نؤكد قوله تعالى بأنه لو لم يهّم بها لما رأى برهان ربه.

ولقد ذهب بعضهم إلى تفسير همّ يوسف بأنه حلّ تكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاها. وفسر بعضهم برهان ربه بأنه سمع صوتاً يقول: إياك وإياها. فلم يكثرث له، فسمعه ثانية فلم يعمل به، فسمعه الثالثة يقول: أعرض عنها. فلم يأبه له. حتى تمثّل أمامه يعقوب عاضاً على أناملته. وقيل صيح به: يا يوسف لا تكن كالطائر كان له ريش فلما زنى قعد لا ريش له. وقيل نبت من فرج المرأة كفّ ليس لها عَضُد ولا مِعْصَم مكتوب فيها قوله تعالى ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ \* كِرَامًا كُنِينًا﴾ (الانفطار ١٠-١١). فلم ينصرف عنها. ثم رأى مكتوباً فيها قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوَاجَ إِنَّمَا كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء ٣٢)، فلم ينته. ثم رأى مكتوباً فيها قوله تعالى ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ تُرْجَعُونَ

فِيهِ إِلَى اللَّهِ... ﴿ (البقرة ٢٨١)، فلم ينجح فيه . فقال الله لجبريل عليه السلام : أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة، فانحط جبريل وهو يقول : يا يوسف أتعلم عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء؟ وقيل رأى تمثال العزيز . وقيل قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته وقالت : استحيي منه أن يرانا . فقال يوسف : استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا أستحيي من السميع البصير العليم بذات الصدور؟ (انظر تفسير الكشاف للزمخشري ج ٢ ص ٣١٢).

وهذا عندنا كله هراء صاغته مخيلة مريضة لم تفهم معنى قوله تعالى واصفاً يوسف ﴿... إِنَّكُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف ٢٤). وهو عندنا هذر عامي جاهل لا يعرف أن الملابس الداخلية كالسراويل لم تكن معروفة عند أهل مصر ولا عند غيرهم في عصر يوسف . وأن الطيور تعرف السفاد بغريزتها لكنها لا تعرف الزنا بعقلها، وليس في الدنيا أحد من علماء الطيور يزعم أن ثمة طائراً يزني، فإن هو زنى سقط ريشه .

ونكتفي بهذا القدر في الإشارة إلى ما تطفح به التفاسير التراثية وكتب قصص الأنبياء من هراء يُنكره المحقق العالم ويستنكره المتأمل العاقل لنعود إلى ما كنا فيه .

كان على يوسف في محنته الثانية حين راودته التي هو في بيتها عن نفسه واستعصم بالله واستعاذه وتمسك بما تُمليه عليه كرامته ووفاءه وشهامته أن يدفع ثمن موقفه هذا، رغم ثبوت براءته بشهادة الشاهد من أهلها . يقول تعالى ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُؤْثُهُمْ حَتَّىٰ جِينِ﴾ (يوسف ٣٥) . ونفهم أن الثمن هو السجن، وهو محنة يوسف الثالثة .

٨ - ثمة أمر بعينه يدور حوله ما جرى في السجن من وقائع، وكأنه محور تتمركز حوله الأحداث . هذا الأمر هو تأويل الأحلام الذي نرى فيه دليلاً من دلائل النبوة خصّ به سبحانه يوسف كما هو واضح في قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ...﴾ (يوسف ٦) . واشتهر به بين أقرانه

في السجن حتى أصبح عندهم معروفاً بالصدِّيق. وقد ذكر الأحلام على أنها أحاديث لأن الحلم عبارة عن مجموعة أحداث رمزية، ولكن لا يمكن أن يكون هناك حلم تشريعي، لذا فقد كان تأويل الأحلام من نبوة يوسف لا من رسالته.

إننا حين نرى في تأويل الأحلام دليلاً من دلائل النبوة، فنحن ننطلق من أن التأويل غير التفسير، ومن أن التأويل رؤية غيبية لمستقبل ما ستكون عليه الأحداث فيما بعد على أرض الواقع، أي كما أسلفنا سابقاً هو عندما يتحوّل النبأ إلى خبر، ومن هنا يصحّ عندنا قول النبي (ص) في حديث رواه أبو يعلى في مُصنّفه عن سليمان بن عريب قال: سمعت أبا هريرة يقول لابن عباس: قال رسول الله (ص): رؤيا المسلم جزء من أربعين جزءاً من النبوة. ونرى أن ذكر النبوة هنا في محله، ولو ذكر الرسالة لكان تزويراً، ومع ذلك ليس من الضروري أن تكون رؤية كل مسلم قابلة للتحقيق والتأويل.

والمتأمل في آيات التنزيل الحكيم يلاحظ أن لقب الصدِّيق - بالمعنى الذي أشرنا إليه - ليس حكراً على يوسف دون غيره، كلقب الخليل لإبراهيم والكليم لموسى والذبيح لإسماعيل والمسيح لعيسى وأحمد لمحمد (ص). فإبراهيم - مثلاً - كان صديقاً بدلالة قوله تعالى ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ (مريم ٤١)، ومريم أيضاً كانت صديقة بدلالة قوله تعالى ﴿مَا الْمَسِيحُ أَبْتُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ...﴾ (المائدة ٧٥)، وإدريس كان بدوره صديقاً بدلالة قوله تعالى ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِسَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ (مريم ٥٦).

ويخلص المتأمل في هذه الآيات إلى أمرين: الأول تلازم واقتران الصديقية بالنبوة وبالرؤى النبوية. والثاني الفرق بين الرؤى والأحلام. فالرؤيا قد تأتي لصاحبها في المنام أثناء النوم، أو في حالة الوفاة حين الموت، ومثالها قول إبراهيم لابنه إسماعيل ﴿... يَبْنِيْ اِنِّىْ اَرَىْ فِى الْمَنَامِ اَنِّىْ اَذْبَحُكَ...﴾ (الصافات ١٠٢). وقد تأتي لصاحبها في صحوته فتكون كشفاً وإلهاماً، ومثالها ما رآه العبد

الصالح في خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، أو الإلهام لإسحق نيوتن عندما رأى التفاحة وهي تسقط من على الشجرة، وهو ما ستحدث عنه بالتفصيل في مجلد قادم ونحن نتلمس العبر والعظات في قصة موسى (ع).  
أما ما نراه اليوم ونسمعه على العديد من شاشات الفضائيات على يد ثلثة من أصحاب العمائم يزعمون أن الله سبحانه أطلعهم على غيب المستقبل وعلمهم تأويل الأحاديث كما أطلع وعلم أنبياءه إبراهيم وإدريس ويوسف ومريم، وأما ما نقرأه من كتب أهل التنجيم وعلماء الأبراج يزعمون أنهم يكشفون ما جرى ويجري وسيجري من أحداث وأن الإنسان في سلوكه أسير حركة شمس وقرم وكواكب لا يستطيع منها فكاً، فليس عند العقلاء بشيء، ورغم أنه - عندنا - أمر يستحق الوقوف دراسة وتأملًا لكننا أميل إلى ترك ذلك - هنا على الأقل - لنعود إلى ما كنا فيه.

### ج - على صعيد النبوة والسلطة

قلنا في أكثر من موضع أن الرسالة تشريعات تأمر وتنهى وترسم للمؤمن بالله واحداً واحداً طريقاً في السلوك وسبيلاً يضمن له الفلاح في الدنيا والفوز في الآخرة. وإن النبوة علوم يصطفي سبحانه من عباده الصالحين نفرأ هم الأنبياء يعلمها لهم ويوحى بها إليهم، وعلى رأسها علمان: علم التوحيد بأن الله واحد في الكم وأحد في الكيف، وعلم غيب الماضي والمستقبل. أما غيب الماضي فهو ما أشار إليه قوله تعالى ﴿... وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (يس ١٢)، وقوله تعالى ﴿... إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية ٢٩)، أي أنه لكل حدث وقع في الماضي القريب أو البعيد وانطبع في صفحات الإمام المبين ولم يكن الإنسان المصطفى شهيداً عليه وحاضراً فيه، مثال ذلك قوله تعالى ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهِمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آل عمران ٤٤). وأما غيب المستقبل فليس المقصود غيب ما سيأتي وما سيكون مطلقاً بكل تفاصيل وقائعه وأحداثه إلى أن

تقوم الساعة - كما يزعم البعض - بل المقصود بعض هذه الوقائع والأحداث التي ارتضى سبحانه أن يظهر عليه كلاً من أنبيائه ورسله إثباتاً لنبوته ودليلاً على صدق رسالته، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا \* إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (الجن ٢٦-٢٧). والمتأمل في قصص الأنبياء كما رواها التنزيل الحكيم يجد كثيراً من أمثلة الغيب المستقبلي الذي أظهره تعالى لأنبيائه ورسله. منها قوله تعالى لنبيه العربي (ص): ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ \* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ \* فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (الروم ٢-٤). وقوله له ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامَيْنِ...﴾ (الفتح ٢٧)، ومنها قوله لنوح ﴿وَاصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (هود ٣٧)، وقوله ليوسف ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (يوسف ١٥).

تبدأ قصة يوسف في التنزيل الحكيم بقوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف ٤)، وتبدأ معها قصة نبوة يوسف التي تشكل الآية أولى مراحلها:

أ - الرؤيا وهو طفل لا يدري شيئاً بعد عن تأويل الأحاديث، بدليل أنه يلجأ في فهمها إلى أبيه يعقوب الذي لم يخف عليه ما فيها من إرهاصات، خاف معها على ابنه أن تثير حسد إخوته وكيدهم إن هم علموا بها.

ب - الوحي وهو غلام تلقه غيايات الحب، وهذا الوحي - كما نراه - إلهام يلقي به سبحانه في روع من يعجبه من خلقه، نجده عند يوسف في الآية ١٥، تماماً كما نجده عند أم موسى في قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمُّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَاتَّقِيهِ فِي الْيَمِّ...﴾ (القصص ٧)، وكما نجده عند أنصار المسيح في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّتِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (المائدة ١١١).

ج - حكمة النبوة وعلومها وهو في سِنِّ اكتمل فيها جسماً وعقلاً، وهي المرحلة التي يشير إليها قوله تعالى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف ٢٢).

ونلاحظ أولاً أن مراحل النبوة هذه عند يوسف ليست قاعدة مطردة عند جميع الرسل والأنبياء، فقد أوتي يحيى الحكم صبياً (انظر مريم ١٢) والمسيح أوتي الكتاب وجعل نبياً (الروح) وهو ما زال في بطن أمه (انظر مريم ٢٩، ٣٠).

ولقد سبق أن لاحظنا أن رابطة النسب ليست قاعدة مطردة عند جميع الأنبياء والرسل، لا بل هي ليست قاعدة على الإطلاق، فقد يكون ابن النبي نبياً كما عند سليمان وداود وقد لا يكون، وقد يكون أخو النبي نبياً كما عند هارون وموسى وقد لا يكون، وقد يكون سبط النبي أو حفيده نبياً كما في حالة إبراهيم ويعقوب وقد لا يكون.

ونلاحظ ثانياً أن عبارة (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) التي جرت على لسان عدد من الأنبياء والرسل قبل يوسف، لم يرد لها ذكر عند هذا النبي الكريم، وهذا - في رأينا - من طبائع الأمور لأن يوسف أوتي النبوة غريباً بين قوم آخرين. لكن ذلك لم يمنعه من الدعوة إلى التوحيد في أحلك ساعات المحنة وهو في السجن ﴿يُصَلِّحِي اللَّيْلَ ۖ أَرْيَاكَ مُتَفَرِّقَتَ خَيْرَ أَمْرِ اللَّهِ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ \* مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِي ۖ إِلَّا أَشْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ ءَمْرٌ ءَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الَّذِي أَلْقَيْتُمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف ٣٩-٤٠).

ونلاحظ ثالثاً أن علاقة يوسف - كنبى - بالسلطة القائمة ممثلة بالعزيز في مصر تختلف تماماً عما رأيناه من علاقة إبراهيم بالسلطة القائمة المتمثلة بالنمرود في بابل كما ورد في الأخبار، وعما سنراه من علاقة موسى بالسلطة القائمة المتمثلة بفرعون. فالعزيز لم يتدخل حين دعا يوسف رفاقه في السجن إلى نبذ الأرباب المتفرقين، ولم يسأله عن عقيدته حين قال له ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ



أَلْأَرْضُ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ» (يوسف ٥٥). وكذلك الحكومات التكنوقراطية تهتمها قدرات العاملين وأمانتهم ولا تعنيها عقائدهم، وهذا ما نحن بأشد الحاجة إليه وهذه هي الصفة الأساسية للدولة العلمانية. وهذا ما يقودنا إلى ما نلاحظه رابعاً وأخيراً.

فالتنزيل الحكيم يشير إلى أن تعدد الأرباب كان سائداً في المدينة، لكنه لا يشير مطلقاً من قريب ولا من بعيد إلى دين حاكمها وعقيدته (انظر يوسف ٣٩). ولا يذكر مطلقاً أن يوسف دعاه إلى التوحيد، الأمر الذي أوهم أصحاب التواريخ وكتب الأخبار بأنه كان مسلماً. يقول الطبري في تاريخه ج ١ ص ٣٣٤: «فاشتراه الملك والمملك مسلم».

والتنزيل الحكيم لا يُعنى بأسماء الأشخاص والأماكن بقدر ما يُعنى بسلوكهم من جانب وبموقعهم الاجتماعي من جانب آخر. وحين أطلق على حاكم مصر في قصة يوسف اسم العزيز مرة والملك مرة أخرى فقد توهم بعض أهل الأخبار والتفاسير أنه فرعون صاحب الرؤيا، وذهب البعض الآخر غارفاً من أخبار أهل التوراة إلى أنه خصي من خصيان فرعون جعله رئيساً للشرطة اسمه فوطيفار (أنظر الآية الأولى من الإصحاح ٣٩ من سفر التكوين) وأن الرؤيا عن البقرات السمان والعجاف وعن السنابل السمان والعجاف هي رؤيا فرعون ولعلاقة لخصيته فوطيفار بها (أنظر الآية الأولى من الإصحاح ٤١ من سفر التكوين).

والم تأمل العاقل في الفقرة الأولى لا يحتاج إلى جهد كبير ليحزم بأن حاكم مصر وملكها - سواء أكان فرعوناً أم عزيزاً - لا يمكن أن يكون مسلماً، والم تأمل في الفقرة الثانية لا يجد عناء كبيراً ليفهم أن عزيز مصر لا يمكن أن يكون خصياً لأن الخصيان لا يتزوجون، ولأن خصيان الفراعنة مجبوبون ومخصيون في آن معاً.

نحن لا نحاول فقط أن نبرهن على خطأ العديد من أخبار التاريخ في الإسرائيليات التوراتية، وبخاصة ما يتعلق منها بقصص الأنبياء والرسل، وبالتالي على ضلال كل من اعتمدها وأخذ بها من أهل الأخبار وأصحاب التفاسير

التراثية، بل نحاول أن نشير إلى حالة معرفية بائسة عاشتها الأمة الإسلامية على مدى اثني عشر قرناً ماضية وما زالت تعيشها إلى وقتنا هذا، تتلخص على صعيد التاريخ في أن الأمة اليوم أمام روايتين: الأولى دينية تراثية ثقافية ظنية<sup>(١)</sup>، والثانية علمانية لا تعنيها العقائد، علمية لا تقيم وزناً للمظنونات ولا تقبل من المرويات إلا ما ثبتت صحته بأدلة قطعية من رُقم وآثار ومنقوشات ومخطوطات.

لم يكن عجباً أن تتباعد الروايتان على مر القرون، فالانحراف في التاريخ - كما في الهندسة والفقه والسياسة - يبدأ بنقطة ثم يتسع كلما امتدت الخطوط. مثال ذلك ما يراه المتأمل بكل وضوح في أخبار معاوية بن أبي سفيان عند أهل التواريخ والتراجم، الذي رسم أول نقطتين على درب الانحراف السياسي في تاريخ الأمة الإسلامية. الأولى حين أخذ البيعة لابنه يزيد، تحوّل الحكم بعدها إلى مُلك عضوض. والثانية حين أطلق على الخزينة العامة اسم «بيت مال الله» بدلاً من «بيت مال المسلمين» تحوّل بعدها إلى ملك شخصي للسلطان الحاكم إن شاء أعطى وإن شاء منع.

ولم يكن عجباً أن يتمترس كل من الفريقين خلف خنادقه في حروب سجالية لا تكاد تهدأ حيناً حتى تثور أحياناً، يتبادلون سهام الاتهامات والشتائم، فأصحاب الرواية الثانية عند خصومهم كفّار ضالّون لتشكيكهم في تراث مقدّس معصوم هو

---

(١) قولنا «دينية» يعني أنها المعتمدة لدى رجال المؤسسات الدينية الرسمية في الملل الثلاث اليهودية والنصرانية والإسلامية، ولدى كهنة العقائد الأخرى، لا يقبلون من أحد الخروج عنها أو التشكيك بها أو نقدها، فإن فعل أمسى مطروداً ويات محروماً وغداً موسوماً بالكفر والهرطقة. وقولنا «تراثية ثقافية» يعني أنها ليست وحياً إلهياً ولا نصاً مقدساً نزل من عند الله، بل هو نتاج إنساني صرف توارثه القصاصون وأهل الأخبار قبل الإسلام تلقفه عنهم بعد الإسلام بالنقل رواة الحكايا من أمثال تميم الداري وأصحابه فأخذها أصحاب التفسير دون تفكير أو تدبر، ثم جاء علماؤنا الأفاضل اليوم ليسبغوا عليها صفة القدسية وليعتبروها مسلّمات لا تحتاج إلى تحقيق ولا إلى برهان تندرج تحت عنوان «ما يجب علمه ومعرفته من الدين بالضرورة». أما قولنا «ظنية» فيعني أنها ليست يقينية، وأن فيها ما يمنع أن تكون قطعية، كشأن جميع النصوص التراثية عند علماء الأصول.

جزء لا يتجزأ من الشريعة الغراء، وأصحاب الرواية الأولى عند خصومهم بلهاء مقلدون مصابون بداء اسمه الآبائية تركوا الأدلة القطعية وأخذوا بالأدلة الظنية.

العجيب أنهم جميعاً تركوا النظر في كتاب الله تعالى، رغم إيمانهم بالله وملائكته وكتبه ورسله، فإن هم فعلوا - وقليلاً ما يفعلون - خرّوا على آياته صمّاً وعُمياناً حسب تعبيره تعالى في آية الفرقان ٧٣. وأنهم جميعاً انطلقوا من أن التفاسير التراثية بما فيها من إسرائيليات وبما ولد منها ونتج عنها من أحكام فقهية هي التنزيل الحكيم ذاته بمحكمه وأحكامه ومتشابهه وقوانينه، فأخذ بها أصحاب الرواية الأولى وأنكرها واستنكرها أصحاب الرواية الثانية. والسؤال الآن: أما أن الأوان لرواية ثالثة يقبلها العقل والعلم دون أن تخرج عن النص القرآني؟ أما أن الأوان لفهم المقصد الإلهي في قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ...﴾ (آل عمران ٦٢)، وأن حقائق الاكتشافات العلمية - ما كان منها وما سيكون - لا يجوز عقلاً أن تتعارض مع القصص القرآني الحق، وأنه إذا تعارض نص تراثي مع نص قرآني يدعمه العقل السليم ويؤيده العلم الصحيح أخذنا بالثاني وضربنا بالأول عرض الحائط كائناً من كان صاحبه؟

لقد حاولنا أن نجيب عملياً عن هذه الأسئلة ونحن ننظر في قصص الأنبياء كما وردت في التنزيل الحكيم، وفي قصة يوسف على وجه التحديد، لنجد أن يوسف وإخوته كانوا رعاة من البدو وليسوا من أبناء المدن، وأنه حكم مصر إلى جانب عزيزها وفرعونها فكان قيماً على خزائنها وغلاتها، وهذا ما تؤيده الدراسات والبيانات التاريخية الحديثة في روايتها عن الهكسوس الرعاة الذين وفدوا إلى مصر وحكموها ردهاً من الزمن.

نحن لا نزعم أننا أجبتنا عن كل الأسئلة وحلّلنا جميع الإشكالات وسوّينا وجوه الخلاف بين الروايات، فالطريق ما زالت طويلة والمسالك ما زالت وعرة، وإذا صدق جهدنا ورأينا شيئاً بفضل من الله فقد غابت عنا أشياء. فنحن لا ندري - مثلاً - لماذا لا نجد ليوسف وموسى ذكراً في النقوش والآثار الفرعونية على كثرتها؟ هل لأن لهما اسمين فرعونيين عُرفا بهما؟ أم لأن آثارهما في مصر لم

تُكتشف بعد؟ خصوصاً ونحن نرى ونسمع في كل عام اكتشاف آثار جديدة ونقوش لم يكن أحد يدري عنها شيئاً. ومع ذلك فنحن ندري بكل تأكيد أن الاثنين شخصيتان حقيقتان سبق وجودهما في التاريخ وأن عدم ورود اسم يوسف أو موسى فيما بين أيدينا من نقوش لا يبرّر إنكار وجودهما كما فعل البعض. وهنا يبرز سؤال يحتاج إلى تمحيص ودراسة عميقة وهو: أين وُجد يوسف وهو على خزائن الأرض؟؟؟

## النبي يوسف في التوراة

### سفر التكوين

#### الإصحاح الثلاثون

٢٢ وَذَكَرَ اللَّهُ رَاحِيلَ، وَسَمِعَ لَهَا اللَّهُ وَفَتَحَ رَحِمَهَا، ٢٣ فَحَبِلَتْ وَلَدَتْ ابْنًا فَقَالَتْ: «قَدْ نَزَعَ اللَّهُ عَارِيَّ». ٢٤ وَدَعَتْ اسْمَهُ «يُوسُفَ» قَائِلَةً: «يَزِيدُنِي الرَّبُّ ابْنًا آخَرَ».

٢٥ وَحَدَّثَ لَمَّا وَلَدَتْ رَاحِيلُ يُوسُفَ أَنَّ يَعْقُوبَ قَالَ لِلاَّبَانَ: «اضْرِفْنِي لِأَذْهَبَ إِلَى مَكَانِي وَإِلَى أَرْضِي. ٢٦ أُعْطِنِي نِسَائِي وَأَوْلَادِي الَّذِينَ خَدَمْتُكَ بِهِمْ فَأَذْهَبَ، لِأَنَّكَ أَنْتَ تَعْلَمُ خِدْمَتِي الَّتِي خَدَمْتُكَ». ٢٧ فَقَالَ لَهُ لاَّبَانُ: «لَيْتَنِي أَجِدُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ. قَدْ تَفَاءَلْتُ فَبَارَكْنِي الرَّبُّ بِسَبَبِكَ». ٢٨ وَقَالَ: «عَيْنُ لِي أُجْرَتَكَ فَأُعْطِيكَ».

#### الإصحاح الثالث والثلاثون

١ وَرَفَعَ يَعْقُوبُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا عَيْسُو مُقْبِلٌ وَمَعَهُ أَرْبَعُ مِئَةِ رَجُلٍ، فَقَسَمَ الْأَوْلَادَ عَلَى لَيْئَةَ وَعَلَى رَاحِيلَ وَعَلَى الْجَارِيتَيْنِ. ٢ وَوَضَعَ الْجَارِيتَيْنِ وَأَوْلَادَهُمَا أَوَّلًا، وَلَيْئَةَ وَأَوْلَادَهَا وَرَاءَهُمْ، وَرَاحِيلَ وَيُوسُفَ آخِرًا. ٣ وَأَمَّا هُوَ فَاجْتَازَ قُدَّامَهُمْ وَسَجَدَ إِلَى الْأَرْضِ سَبْعَ مَرَّاتٍ حَتَّى اقْتَرَبَ إِلَى أَخِيهِ. ٤ فَرَكَّضَ عَيْسُو لِقَائِهِ وَعَانَقَهُ وَوَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَقَبَّلَهُ، وَبَكَيَا.

ه<sup>٥</sup> ثُمَّ رَفَعَ عَيْنَيْهِ وَأَبْصَرَ النِّسَاءَ وَالْأَوْلَادَ وَقَالَ: «مَا هَؤُلَاءِ مِنْكَ؟» فَقَالَ: «الْأَوْلَادُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِمْ عَلَيَّ عَبْدِكَ». ٦ فَاقْتَرَبَتِ الْجَارِيتَانِ هُمَا وَأَوْلَادُهُمَا وَسَجَدَتَا. ٧ ثُمَّ اقْتَرَبَتْ لَيْثَةُ أَيْضًا وَأَوْلَادُهَا وَسَجَدُوا. وَبَعْدَ ذَلِكَ اقْتَرَبَ يُوسُفُ وَرَاحِيلُ وَسَجَدَا. ٨ فَقَالَ: «مَاذَا مِنْكَ كُلُّ هَذَا الْجِئِشِ الَّذِي صَادَفْتُهُ؟» فَقَالَ: «لَأَجِدَ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْ سَيِّدِي». ٩ فَقَالَ عِيسُو: «لِي كَثِيرٌ، يَا أَخِي. لِيَكُنْ لَكَ الَّذِي لَكَ». ١٠ فَقَالَ يَعْقُوبُ: «لَا. إِنْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ تَأْخُذْ هَدِيَّتِي مِنْ يَدَيَّ، لِأَنِّي رَأَيْتُ وَجْهَكَ كَمَا يُرَى وَجْهُ اللَّهِ، فَرَضِيتَ عَلَيَّ. ١١ اخْذْ بَرَكَتِي الَّتِي أُتِيَ بِهَا إِلَيْكَ، لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيَّ وَلِي كُلُّ شَيْءٍ». وَأَلَحَّ عَلَيْهِ فَأَخَذَ.

١٢ ثُمَّ قَالَ: «لِنَرْحَلْ وَنَذْهَبَ، وَأَذْهَبُ أَنَا قُدَّامَكَ». ١٣ فَقَالَ لَهُ: «سَيِّدِي عَالِمٌ أَنَّ الْأَوْلَادَ رَخْصَةٌ، وَالْغَنَمَ وَالْبَقَرِ الَّتِي عِنْدِي مُرْصِعَةٌ، فَإِنْ اسْتَكْدَوْهَا يَوْمًا وَاحِدًا مَاتَتْ كُلُّ الْغَنَمِ. ١٤ لِيَجْتَزَّ سَيِّدِي قُدَّامَ عَبْدِهِ، وَأَنَا أَسْتَأْذِنُ عَلَى مَهْلِي فِي إِثْرِ الْأَمْلاكِ الَّتِي قُدَّامِي، وَفِي إِثْرِ الْأَوْلَادِ، حَتَّى أَجِيءَ إِلَى سَيِّدِي إِلَى سَعِيرٍ». ١٥ فَقَالَ عِيسُو: «أَتُرِكَ عِنْدَكَ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ مَعِيَ». فَقَالَ: «لِمَاذَا؟ دَعْنِي أَجِدُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْ سَيِّدِي».

#### الإصحاح السابع والثلاثون

١ وَسَكَنَ يَعْقُوبُ فِي أَرْضِ غُرْبَةِ أَبِيهِ، فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. ٢ هَذِهِ مَوَالِيدُ يَعْقُوبَ: يُوسُفُ إِذْ كَانَ ابْنُ سَبْعِ عَشْرَةَ سَنَةً، كَانَ يَرْعَى مَعَ إِخْوَتِهِ الْغَنَمَ وَهُوَ غُلَامٌ عِنْدَ بَنِي بِلْهَةَ وَبَنِي زَلْفَةَ امْرَأَتَيْ أَبِيهِ، وَاتَى يُوسُفُ بِنَمِيمَتِهِمُ الرَّدِيثَةِ إِلَى أَبِيهِمْ. ٣ وَأَمَّا إِسْرَائِيلُ فَأَحَبَّ يُوسُفَ أَكْثَرَ مِنْ سَائِرِ بَنِيهِ لِأَنَّهُ ابْنُ شَيْخُوخَتِهِ، فَصَنَعَ لَهُ قَمِيصًا مَلُونًا. ٤ فَلَمَّا رَأَى إِخْوَتُهُ أَنَّ أَبَاهُمْ أَحَبَّهُ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ أَبْغَضُوهُ، وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُكَلِّمُوهُ بِسَلَامٍ.

٥ وَحَلَمَ يُوسُفُ حُلْمًا وَأَخْبَرَ إِخْوَتَهُ، فَازْدَادُوا أَيْضًا بُغْضًا لَهُ. ٦ فَقَالَ لَهُمْ: «اسْمَعُوا هَذَا الْحُلْمَ الَّذِي حَلُمْتُ: ٧ فَهَا نَحْنُ حَازِمُونَ حُرْمًا فِي الْحَقْلِ، وَإِذَا حُرْمَتِي قَامَتْ وَانْتَصَبَتْ، فَاخْتَاطَتْ حُرْمُكُمْ وَسَجَدَتْ لِحُرْمَتِي». ٨ فَقَالَ لَهُ

إِخْوَتُهُ: «أَلَعَلَّكَ تَمْلِكُ عَلَيْنَا مُلْكًا أَمْ تَتَسَلَّطُ عَلَيْنَا تَسْلُطًا؟» وَازْدَادُوا أَيْضًا بُغْضًا لَهُ مِنْ أَجْلِ أَحْلَامِهِ وَمِنْ أَجْلِ كَلَامِهِ. ٩ ثُمَّ حَلُمَ أَيْضًا حُلْمًا آخَرَ وَقَصَّه عَلَى إِخْوَتِهِ، فَقَالَ: «إِنِّي قَدْ حُلُمْتُ؟ حُلْمًا أَيْضًا، وَإِذَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَاحِدَ عَشَرَ كَوْكَبًا سَاجِدَةً لِي». ١٠ وَقَصَّه عَلَى أَبِيهِ وَعَلَى إِخْوَتِهِ، فَانْتَهَرَهُ أَبُوهُ وَقَالَ لَهُ: «مَا هَذَا الْحُلْمُ الَّذِي حُلُمْتَ؟ هَلْ نَأْتِي أَنَا وَأُمُّكَ وَإِخْوَتُكَ لِنَسْجُدَ لَكَ إِلَى الْأَرْضِ؟» ١١ فَحَسَدَهُ إِخْوَتُهُ، وَأَمَّا أَبُوهُ فَحَفِظَ الْأَمْرَ.

١٢ وَمَضَى إِخْوَتُهُ لِيَزْعَوْنَ غَنَمَ أَبِيهِمْ عِنْدَ شَكِيمَ. ١٣ فَقَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ: «الْيَسَ إِخْوَتُكَ يَزْعَوْنَ عِنْدَ شَكِيمَ؟ تَعَالِ فَأَرْسِلْكَ إِلَيْهِمْ». فَقَالَ لَهُ: «هَآئِنَا». ١٤ فَقَالَ لَهُ: «اذهبِ انظُرِ سَلَامَةَ إِخْوَتِكَ وَسَلَامَةَ الْغَنَمِ وَرَدِّ لِي خَبْرًا». فَأَرْسَلَهُ مِنْ وَطَاءِ حَبْرُونَ فَأَتَى إِلَى شَكِيمَ. ١٥ فَوَجَدَهُ رَجُلٌ وَإِذَا هُوَ ضَالٌّ فِي الْحَقْلِ. فَسَأَلَهُ الرَّجُلُ قَائِلًا: «مَاذَا تَطْلُبُ؟» ١٦ فَقَالَ: «أَنَا طَالِبٌ إِخْوَتِي. أَخْبِرْنِي» أَيْنَ يَزْعَوْنَ؟» ١٧ فَقَالَ الرَّجُلُ: «قَدْ ازْتَحَلُوا مِنْ هُنَا، لِأَنِّي سَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ: لِنَذْهَبَ إِلَى دُونَانَ». فَذَهَبَ يُوسُفُ وَرَاءَ إِخْوَتِهِ فَوَجَدَهُمْ فِي دُونَانَ.

١٨ فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ مِنْ بَعِيدٍ، قَبَلَمَا اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ، اخْتَالُوا لَهُ لِيُمِيتُوهُ. ١٩ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «هُوَذَا هَذَا صَاحِبُ الْأَحْلَامِ قَادِمٌ». ٢٠ فَلَاَن هَلُمَّ نَقْتُلْهُ وَنَطْرَحْهُ فِي إِحْدَى الْأَبَارِ وَنَقُولُ: وَخَشٌ رَدِيءٌ أَكَلَهُ. فَتَرَى مَاذَا تَكُونُ أَحْلَامُهُ». ٢١ فَسَمِعَ رَأُوبِينُ وَأَنْقَذَهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ، وَقَالَ: «لَا نَقْتُلْهُ». ٢٢ وَقَالَ لَهُمْ رَأُوبِينُ: «لَا تَسْفِكُوا دَمًا. اطْرَحُوهُ فِي هَذِهِ الْبُيْرِ الَّتِي فِي الْبَرِّيَّةِ وَلَا تَمُدُّوا إِلَيْهِ يَدًا». لِكَيْ يُنْقَذَهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ لِيَرُدَّهُ إِلَى أَبِيهِ. ٢٣ فَكَانَ لَمَّا جَاءَ يُوسُفُ إِلَى إِخْوَتِهِ أَنَّهُمْ خَلَعُوا عَنْ يُوسُفَ قَمِيصَهُ، الْقَمِيصَ الْمُلَوَّنَ الَّذِي عَلَيْهِ، ٢٤ وَأَخَذُوهُ وَطَرَحُوهُ فِي الْبُيْرِ. وَأَمَّا الْبُيْرُ فَكَانَتْ فَارِغَةً لَيْسَ فِيهَا مَاءٌ.

٢٥ ثُمَّ جَلَسُوا لِيَأْكُلُوا طَعَامًا. فَرَفَعُوا عُيُونَهُمْ وَنَظَرُوا وَإِذَا قَافِلَةٌ إِسْمَاعِيلِيَّينَ مُقْبِلَةٌ مِنْ جِلْعَادَ، وَجَمَالُهُمْ حَامِلَةٌ كَثِيرَاءَ وَبِلَسَانًا وَلَاذْنًا، ذَاهِبِينَ لِيَنْزِلُوا بِهَا إِلَى مِصْرَ. ٢٦ فَقَالَ يَهُودَا لِإِخْوَتِهِ: «مَا الْفَائِدَةُ أَنْ نَقْتُلَ أَخَانَا وَنُخْفِيَ دَمَهُ؟ ٢٧ تَعَالَوْا

فَنَبِّئْهُمُ لِلْإِسْمَاعِيلِيِّينَ، وَلَا تَكُنْ أَيْدِينَا عَلَيْهِ لِأَنَّهُ أَخُونَا وَلَحْمُنَا». فَسَمِعَ لَهُ إِخْوَتُهُ.  
 ٢٨ وَاجْتَاَزَ رِجَالٌ مِذْيَانِيُونَ تَجَارَ، فَسَحَبُوا يُوسُفَ وَأَصْعَدُوهُ مِنَ الْبُيْرِ، وَبَاعُوا  
 يُوسُفَ لِلْإِسْمَاعِيلِيِّينَ بِعِشْرِينَ مِنَ الْفِضَّةِ. فَأَتَوْا بِيُوسُفَ إِلَى مِصْرَ. ٢٩ وَرَجَعَ  
 رَأُوْبَيْنُ إِلَى الْبُيْرِ، وَإِذَا يُوسُفُ لَيْسَ فِي الْبُيْرِ، فَمَزَّقَ ثِيَابَهُ. ٣٠ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى إِخْوَتِهِ  
 وَقَالَ: «الْوَلَدُ لَيْسَ مُوجُودًا، وَأَنَا إِلَى أَثْنِ أَذْهَبُ؟».

٣١ فَأَخَذُوا قَمِيصَ يُوسُفَ وَذَبَحُوا تَبَسًا مِنَ الْمِغْزَى وَغَمَسُوا الْقَمِيصَ فِي  
 الدَّمِ. ٣٢ وَأَرْسَلُوا الْقَمِيصَ الْمُلَوَّنَ وَأَخْضَرُوهُ إِلَى أَبِيهِمْ وَقَالُوا: «وَجَدْنَا هَذَا.  
 حَقَّقْ أَقْمِيصُ ابْنِكَ هُوَ أَمْ لَا؟» ٣٣ فَتَحَقَّقَهُ وَقَالَ: «قَمِيصُ ابْنِي! وَخَشْ رَدِيءُ  
 أَكْلُهُ، افْتَرَسَ يُوسُفُ افْتِرَاسًا». ٣٤ فَمَزَّقَ يَعْقُوبُ ثِيَابَهُ، وَوَضَعَ مِسْحًا عَلَى  
 حَقْوِيهِ، وَنَاحَ عَلَى ابْنِهِ أَيَّامًا كَثِيرَةً. ٣٥ فَقَامَ جَمِيعُ بَنِيهِ وَجَمِيعُ بَنَاتِهِ لِيُعْزُوهُ، فَأَبَى  
 أَنْ يَتَعَزَّى وَقَالَ: «إِنِّي أَنْزِلُ إِلَى ابْنِي نَائِحًا إِلَى الْهَآوِيَةِ». وَيَكِي عَلَيْهِ أَبُوهُ.  
 ٣٦ وَأَمَّا الْمِذْيَانِيُّونَ فَبَاعُوهُ فِي مِصْرَ لِفُوطِيفَارَ خَصِيٍّ فِرْعَوْنَ، رَئِيسَ الشَّرِطِ.

#### الإصحاح التاسع والثلاثون

١ وَأَمَّا يُوسُفُ فَأَنْزِلَ إِلَى مِصْرَ، وَاشْتَرَاهُ فُوطِيفَارُ خَصِيٍّ فِرْعَوْنَ رَئِيسُ  
 الشَّرِطِ، رَجُلٌ مِصْرِيٌّ، مِنْ يَدِ الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ الَّذِينَ أَنْزَلُوهُ إِلَى هُنَاكَ. ٢ وَكَانَ الرَّبُّ  
 مَعَ يُوسُفَ فَكَانَ رَجُلًا نَاجِحًا، وَكَانَ فِي بَيْتِ سَيِّدِهِ الْمِصْرِيِّ.  
 ٣ وَرَأَى سَيِّدُهُ أَنَّ الرَّبَّ مَعَهُ، وَأَنَّ كُلَّ مَا يَصْنَعُ كَانَ الرَّبُّ يُنْجِيهِ بِيَدِهِ.  
 ٤ فَوَجَدَ يُوسُفُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ، وَخَدَمَهُ، فَوَكَّلَهُ عَلَى بَيْتِهِ وَدَفَعَ إِلَى يَدِهِ كُلَّ مَا كَانَ  
 لَهُ. ٥ وَكَانَ مِنْ حِينِ وَكَّلَهُ عَلَى بَيْتِهِ، وَعَلَى كُلِّ مَا كَانَ لَهُ، أَنَّ الرَّبَّ بَارَكَ بَيْتَ  
 الْمِصْرِيِّ بِسَبَبِ يُوسُفَ. وَكَانَتْ بَرَكَاتُ الرَّبِّ عَلَى كُلِّ مَا كَانَ لَهُ فِي الْبَيْتِ وَفِي  
 الْحَقْلِ، ٦ فَفَتَرَكَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ فِي يَدِ يُوسُفَ. وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ يَعْرِفُ شَيْئًا إِلَّا الْخُبْزَ  
 الَّذِي يَأْكُلُ. وَكَانَ يُوسُفُ حَسَنَ الصُّورَةِ وَحَسَنَ الْمَنْظَرِ.

٧ وَحَدَّثَ بَعْدَ هَذِهِ الْأُمُورِ أَنَّ امْرَأَةً سَيِّدِهِ رَفَعَتْ عَيْنَيْهَا إِلَى يُوسُفَ وَقَالَتْ:  
 «اضْطَجَعْتُ مَعِي». ٨ فَأَبَى وَقَالَ لَامْرَأَةَ سَيِّدِهِ: «هُوَذَا سَيِّدِي لَا يَعْرِفُ مَعِي مَا فِي

الْبَيْتِ، وَكُلُّ مَا لَهُ قَدْ دَفَعَهُ إِلَى يَدَيَّ. ٩ لَيْسَ هُوَ فِي هَذَا الْبَيْتِ أَعْظَمَ مِنِّي. وَلَمْ يُمَسِّكْ عَنِّي شَيْئًا غَيْرَكَ، لِأَنَّكَ أَمَرْتَهُ. فَكَيْفَ أَصْنَعُ هَذَا الشَّرَّ الْعَظِيمَ وَأُخْطِئُ إِلَى اللَّهِ؟ ١٠ وَكَانَ إِذْ كَلَّمْتُ يُوسُفَ يَوْمًا فَيَوْمًا أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ لَهَا أَنْ يَضْطَجِعَ بِجَانِبِهَا لِيَكُونَ مَعَهَا.

١١ ثُمَّ حَدَّثَ نَحْوَ هَذَا الْوَقْتِ أَنَّهُ دَخَلَ الْبَيْتَ لِيَعْمَلَ عَمَلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ إِنْسَانٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ هُنَاكَ فِي الْبَيْتِ. ١٢ فَأَمْسَكْتُهُ بِتَوْبِهِ قَائِلَةً: «اضْطَجِعْ مَعِي!». فَتَرَكَ تَوْبَهُ فِي يَدِهَا وَهَرَبَ وَخَرَجَ إِلَى خَارِجٍ. ١٣ وَكَانَ لَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ تَرَكَ تَوْبَهُ فِي يَدِهَا وَهَرَبَ إِلَى خَارِجٍ، ١٤ أَنَّهَا نَادَتْ أَهْلَ بَيْتِهَا، وَكَلَّمَتْهُمْ قَائِلَةً: «انْظُرُوا! قَدْ جَاءَ إِلَيْنَا بِرَجُلٍ عِبْرَانِيٍّ لِيُدَاعِبَنَا! دَخَلَ إِلَيَّ لِيَضْطَجِعَ مَعِي، فَصَرَخْتُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ. ١٥ وَكَانَ لَمَّا سَمِعَ أَنِّي رَفَعْتُ صَوْتِي وَصَرَخْتُ، أَنَّهُ تَرَكَ تَوْبَهُ بِجَانِبِي وَهَرَبَ وَخَرَجَ إِلَى خَارِجٍ».

١٦ فَأَوْضَعْتُ تَوْبَهُ بِجَانِبِهَا حَتَّى جَاءَ سَيِّدُهُ إِلَى بَيْتِهِ. ١٧ فَكَلَّمْتُهُ بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ قَائِلَةً: «دَخَلَ إِلَيَّ الْعَبْدُ الْعِبْرَانِيُّ الَّذِي جِئْتُ بِهِ إِلَيْنَا لِيُدَاعِبَنِي. ١٨ وَكَانَ لَمَّا رَفَعْتُ صَوْتِي وَصَرَخْتُ، أَنَّهُ تَرَكَ تَوْبَهُ بِجَانِبِي وَهَرَبَ إِلَى خَارِجٍ».

١٩ فَكَانَ لَمَّا سَمِعَ سَيِّدُهُ كَلَامَ امْرَأَتِهِ الَّذِي كَلَّمْتُهُ بِهِ قَائِلَةً: «بِحَسَبِ هَذَا الْكَلَامِ صَنَعَ بِي عَبْدُكَ»، أَنَّ غَضَبَهُ حَمِيَ. ٢٠ فَأَخَذَ يُوسُفَ سَيِّدُهُ وَوَضَعَهُ فِي بَيْتِ السَّجْنِ، الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ أَسْرَى الْمَلِكِ مَحْبُوسِينَ فِيهِ. وَكَانَ هُنَاكَ فِي بَيْتِ السَّجْنِ.

٢١ وَلَكِنَّ الرَّبَّ كَانَ مَعَ يُوسُفَ، وَبَسَطَ إِلَيْهِ لُطْفًا، وَجَعَلَ نِعْمَةً لَهُ فِي عَيْنَي رَئِيسِ بَيْتِ السَّجْنِ. ٢٢ فَدَفَعَ رَئِيسُ بَيْتِ السَّجْنِ إِلَى يَدِ يُوسُفَ جَمِيعَ الْأَسْرَى الَّذِينَ فِي بَيْتِ السَّجْنِ. وَكُلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ هُنَاكَ كَانَ هُوَ الْعَامِلَ. ٢٣ وَلَمْ يَكُنْ رَئِيسُ بَيْتِ السَّجْنِ يَنْظُرُ شَيْئًا الْبَتَّةَ مِمَّا فِي يَدِهِ، لِأَنَّ الرَّبَّ كَانَ مَعَهُ، وَمَهْمَا صَنَعَ كَانَ الرَّبُّ يُنْجِئُهُ.



## الإصحاح الأربعون

١ وَحَدَّثَ بَعْدَ هَذِهِ الْأُمُورِ أَنَّ سَاقِي مَلِكِ مِصْرَ وَالْخَبَّازَ أَذْنَبَا إِلَى سَيِّدِهِمَا مَلِكِ مِصْرَ. ٢ فَسَخَطَ فِرْعَوْنُ عَلَى خَصِيَّتَيْهِ: رَئِيسِ الشَّقَاةِ وَرَئِيسِ الْخَبَّازِينَ، ٣ فَأَوْضَعَهُمَا فِي حَبْسٍ بَيْنَ رَئِيسِ الشَّرْطِ، فِي بَيْتِ السَّجْنِ، الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ يُوسُفُ مَحْبُوسًا فِيهِ. ٤ فَأَقَامَ رَئِيسُ الشَّرْطِ يُوسُفَ عِنْدَهُمَا فَخَدَمَهُمَا. وَكَانَا أَيَّامًا فِي الْحَبْسِ.

٥ وَحُلُمَا كِلَاهُمَا حُلُمًا فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، كُلُّ وَاحِدٍ حُلُمَهُ، كُلُّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ تَعْبِيرِ حُلُمِهِ، سَاقِي مَلِكِ مِصْرَ وَخَبَّازُهُ، الْمَحْبُوسَانِ فِي بَيْتِ السَّجْنِ. ٦ فَدَخَلَ يُوسُفُ إِلَيْهِمَا فِي الصَّبَاحِ وَنَظَرَهُمَا، وَإِذَا هُمَا مُغْتَمَّانِ. ٧ فَسَأَلَ خَصِيَّتِي فِرْعَوْنَ اللَّذَيْنِ مَعَهُ فِي حَبْسِ بَيْتِ سَيِّدِهِ قَائِلًا: «لِمَاذَا وَجَّهَكُمَا مُكَمَّدَانِ الْيَوْمَ؟» ٨ فَقَالَا لَهُ: «حُلُمُنَا حُلُمًا وَلَيْسَ مَنْ يُعْبِّرُهُ». فَقَالَ لَهُمَا يُوسُفُ: «أَلَيْسَتْ لِلَّهِ التَّعَابِيرُ؟ فُصَا عَلَيَّ».

٩ فَقَصَّ رَئِيسُ الشَّقَاةِ حُلُمَهُ عَلَى يُوسُفَ وَقَالَ لَهُ: «كُنْتُ فِي حُلُمِي وَإِذَا كَرْمَةٌ أَمَامِي. ١٠ وَفِي الْكَرْمَةِ ثَلَاثَةُ قُضْبَانٍ، وَهِيَ إِذْ أَفْرَخَتْ طَلَعَ زَهْرُهَا، وَأَنْضَجَتْ عَنَاقِيدُهَا عِنَبًا. ١١ وَكَانَتْ كَأْسُ فِرْعَوْنَ فِي يَدِي، فَأَخَذْتُ الْعِنَبَ وَعَصَرْتُهُ فِي كَأْسِ فِرْعَوْنَ، وَأَعْطَيْتُ الْكَأْسَ فِي يَدِ فِرْعَوْنَ». ١٢ فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ: «هَذَا تَعْبِيرُهُ: الثَّلَاثَةُ الْقُضْبَانِ هِيَ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ. ١٣ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أَيْضًا يَرْفَعُ فِرْعَوْنُ رَأْسَكَ وَيَرُدُّكَ إِلَى مَقَامِكَ، فَتُعْطِي كَأْسَ فِرْعَوْنَ فِي يَدِهِ كَالْعَادَةِ الْأُولَى حِينَ كُنْتَ سَاقِيَهُ. ١٤ وَإِنَّمَا إِذَا ذَكَرْتَنِي عِنْدَكَ حِينَمَا يَصِيرُ لَكَ خَيْرٌ، تَصْنَعُ إِلَيَّ إِحْسَانًا وَتَذْكُرْنِي لِفِرْعَوْنَ، وَتُخْرِجْنِي مِنْ هَذَا الْبَيْتِ. ١٥ لِأَنِّي قَدْ سُرِقْتُ مِنْ أَرْضِ الْعِبْرَانِيِّينَ، وَهُنَا أَيْضًا لَمْ أَفْعَلْ شَيْئًا حَتَّى وَضَعُونِي فِي السَّجْنِ».

١٦ فَلَمَّا رَأَى رَئِيسُ الْخَبَّازِينَ أَنَّهُ عَبَّرَ جَيِّدًا، قَالَ لِيُوسُفَ: «كُنْتُ أَنَا أَيْضًا فِي حُلُمِي وَإِذَا ثَلَاثَةُ سِلَالٍ حُورَى عَلَى رَأْسِي. ١٧ وَفِي السَّلِّ الْأَعْلَى مِنْ جَمِيعِ طَعَامِ فِرْعَوْنَ مِنْ صَنْعَةِ الْخَبَّازِ. وَالطُّيُورُ تَأْكُلُهُ مِنَ السَّلِّ عَنْ رَأْسِي». ١٨ فَأَجَابَ يُوسُفَ وَقَالَ: «هَذَا تَعْبِيرُهُ: الثَّلَاثَةُ السِّلَالِ هِيَ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ. ١٩ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أَيْضًا

يَرْفَعُ فِرْعَوْنُ رَأْسَكَ عَنْكَ، وَيُعَلِّقُكَ عَلَى خَشَبَةٍ، وَتَأْكُلُ الطُّيُورُ لَحْمَكَ عَنْكَ».

٢٠ فَحَدَّثَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ، يَوْمَ مِيلَادِ فِرْعَوْنَ، أَنَّهُ صَنَعَ وَلِيمَةً لِجَمِيعِ عِبِيدِهِ، وَرَفَعَ رَأْسَ رَئِيسِ الشُّقَاةِ وَرَأْسَ رَئِيسِ الْخَبَّازِينَ بَيْنَ عَبِيدِهِ. ٢١ وَرَدَّ رَئِيسُ الشُّقَاةِ إِلَى سَفِيهِ، فَأَعْطَى الْكَأْسَ فِي يَدِ فِرْعَوْنَ. ٢٢ وَأَمَّا رَئِيسُ الْخَبَّازِينَ فَعَلَّقَهُ، كَمَا عَبَّرَ لَهُمَا يُوسُفُ. ٢٣ وَلَكِنْ لَمْ يَذْكُرْ رَئِيسُ الشُّقَاةِ يُوسُفَ بَلْ نَسِيَهُ.

### الإصحاح الحادي والأربعون

١ وَحَدَّثَ مِنْ بَعْدِ سَتَتَيْنِ مِنَ الزَّمَانِ أَنَّ فِرْعَوْنَ رَأَى حُلُمًا: وَإِذَا هُوَ وَقِفٌ عِنْدَ النَّهْرِ، ٢ وَهُوَ ذَا سَبْعِ بَقَرَاتٍ طَالِعَةٍ مِنَ النَّهْرِ حَسَنَةِ الْمَنْظَرِ وَسَمِينَةِ اللَّحْمِ، فَازْتَعَتْ فِي رَوْضَةٍ. ٣ ثُمَّ هُوَ ذَا سَبْعِ بَقَرَاتٍ أُخْرَى طَالِعَةٍ وَرَاءَهَا مِنَ النَّهْرِ قَبِيحَةِ الْمَنْظَرِ وَرَقِيقَةِ اللَّحْمِ، فَوَقَّتْ بِجَانِبِ الْبَقَرَاتِ الْأُولَى عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ، ٤ فَأَكَلَتِ الْبَقَرَاتُ الْقَبِيحَةُ الْمَنْظَرِ وَالرَّقِيقَةُ اللَّحْمِ الْبَقَرَاتِ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةِ الْمَنْظَرِ وَالسَّامِيَةِ. وَاسْتَيْقِظَ فِرْعَوْنُ.

٥ ثُمَّ نَامَ فَحُلُمَ ثَانِيَةً: وَهُوَ ذَا سَبْعِ سَنَابِلٍ طَالِعَةٍ فِي سَاقٍ وَاحِدَةٍ سَمِينَةٍ وَحَسَنَةٍ. ٦ ثُمَّ هُوَ ذَا سَبْعِ سَنَابِلٍ رَقِيقَةٍ وَمَلْفُوحَةٍ بِالرِّيحِ الشَّرْقِيَّةِ نَابِتَةٍ وَرَاءَهَا. ٧ فَأَبْتَلَعَتِ السَّنَابِلُ الرَّقِيقَةُ السَّنَابِلَ السَّيِّئَةِ السَّامِيَةِ الْمُثْمِلَةَ. وَاسْتَيْقِظَ فِرْعَوْنُ، وَإِذَا هُوَ حُلُمٌ. ٨ وَكَانَ فِي الصَّبَاحِ أَنَّ نَفْسَهُ انْزَعَجَتْ، فَأَرْسَلَ وَدَّعَا جَمِيعَ سَحَرَةِ مِصْرَ وَجَمِيعَ حُكَمَائِهَا. وَقَصَّ عَلَيْهِمْ فِرْعَوْنُ حُلُمَهُ، فَلَمْ يَكُنْ مَنْ يُعْبِرُهُ لِفِرْعَوْنَ.

٩ ثُمَّ كَلَّمَ رَئِيسَ الشُّقَاةِ فِرْعَوْنَ قَائِلًا: «أَنَا أَتَذَكَّرُ الْيَوْمَ خَطَايَايَ. ١٠ فِرْعَوْنُ سَخَطَ عَلَى عَبْدِيهِ، فَجَعَلَنِي فِي حَبْسٍ بَيْنَ رَئِيسِ الشُّرَطِ أَنَا وَرَئِيسُ الْخَبَّازِينَ. ١١ فَحَلُمْنَا حُلُمًا فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ أَنَا وَهُوَ. حَلُمْنَا كُلُّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ تَغْيِيرِ حُلُمِهِ. ١٢ وَكَانَ هُنَاكَ مَعَنَا غُلَامٌ عِبْرَانِيٌّ عَبْدٌ لِرَئِيسِ الشُّرَطِ، فَقَصَصْنَا عَلَيْهِ، فَعَبَّرَ لَنَا حُلُمَيْنَا. عَبَّرَ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ حُلُمِهِ. ١٣ وَكَمَا عَبَّرَ لَنَا هَكَذَا حَدَّثَ. رَدَّنِي أَنَا إِلَى مَقَامِي، وَأَمَّا هُوَ فَعَلَّقَهُ».

١٤ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ وَدَّعَا يُوسُفَ، فَأَسْرَعُوا بِهِ مِنَ السَّجْنِ. فَحَلَقَ وَأَبْدَلَ ثِيَابَهُ

وَدَخَلَ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ . ١٥ فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ : «حُلْمْتُ حُلْمًا وَلَيْسَ مِنْ يُعْبَرُهُ .  
وَأَنَا سَمِعْتُ عَنْكَ قَوْلًا ، إِنَّكَ تَسْمَعُ أَحْلَامًا لِتُعْبَرَهَا» . ١٦ فَأَجَابَ يُوسُفُ فِرْعَوْنَ :  
«لَيْسَ لِي . اللَّهُ يُجِيبُ بِسَلَامَةٍ فِرْعَوْنَ» .

١٧ فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ : «إِنِّي كُنْتُ فِي حُلْمِي وَاقِفًا عَلَىٰ شَاطِئِ النَّهْرِ ،  
١٨ وَهُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ طَالِعَةٍ مِنَ النَّهْرِ سَمِينَةٍ اللَّحْمِ وَحَسَنَةِ الصُّورَةِ ، فَارْتَعَتْ فِي  
رَوْضَةٍ . ١٩ ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ أُخْرَى طَالِعَةٍ وَرَاءَهَا مَهْزُولَةٌ وَقَبِيحَةُ الصُّورَةِ جِدًّا  
وَرَقِيقَةُ اللَّحْمِ . لَمْ أَنْظُرْ فِي كُلِّ أَرْضٍ مِثْلَهَا فِي الْقَبَاحَةِ . ٢٠ فَأَكَلَتِ الْبَقَرَاتُ  
الرَّقِيقَةَ وَالْقَبِيحَةَ الْبَقَرَاتُ السَّيِّئَةِ الْأُولَى السَّمِينَةَ . ٢١ فَدَخَلْتُ أَجْوَافَهَا ، وَلَمْ يَعْلَمْ  
أَنَّهَا دَخَلَتْ فِي أَجْوَافِهَا ، فَكَانَ مَنَظَرُهَا قَبِيحًا كَمَا فِي الْأَوَّلِ . وَاسْتَيْقَظْتُ . ٢٢ ثُمَّ  
رَأَيْتُ فِي حُلْمِي وَهُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلٍ طَالِعَةٍ فِي سَاقٍ وَاحِدٍ مُمْتَلِئَةٌ وَحَسَنَةٌ . ٢٣ ثُمَّ  
هُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلٍ يَابِسَةٌ رَقِيقَةٌ مَلْفُوحَةٌ بِالرَّيْحِ الشَّرْقِيَّةِ نَابِتَةٌ وَرَاءَهَا . ٢٤ فَابْتَلَعَتْ  
السَّنَابِلُ الرَّقِيقَةُ السَّنَابِلُ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ . فَقُلْتُ لِلْسَّحَرَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ يُخْبِرُنِي» .

٢٥ فَقَالَ يُوسُفُ لِفِرْعَوْنَ : «حُلْمُ فِرْعَوْنَ وَاحِدٌ . قَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ بِمَا هُوَ  
صَانِعٌ . ٢٦ الْبَقَرَاتُ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةُ هِيَ سَبْعُ سِنِينَ ، وَالسَّنَابِلُ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةُ هِيَ  
سَبْعُ سِنِينَ . هُوَ حُلْمٌ وَاحِدٌ . ٢٧ وَالْبَقَرَاتُ السَّيِّئَةِ الرَّقِيقَةُ الْقَبِيحَةُ الَّتِي طَلَعَتْ  
وَرَاءَهَا هِيَ سَبْعُ سِنِينَ ، وَالسَّنَابِلُ السَّيِّئَةِ الْمَلْفُوحَةُ بِالرَّيْحِ الشَّرْقِيَّةِ تَكُونُ  
سَبْعَ سِنِينَ جُوعًا . ٢٨ هُوَ الْأَمْرُ الَّذِي كَلَّمْتُ بِهِ فِرْعَوْنَ . قَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ لِفِرْعَوْنَ مَا  
هُوَ صَانِعٌ . ٢٩ هُوَذَا سَبْعُ سِنِينَ قَادِمَةٌ شَبَعًا عَظِيمًا فِي كُلِّ أَرْضٍ مِصْرَ . ٣٠ ثُمَّ تَقُومُ  
بَعْدَهَا سَبْعُ سِنِينَ جُوعًا ، فَيَنْسَى كُلُّ الشَّيْءِ فِي أَرْضٍ مِصْرَ وَيَتْلَفُ الْجُوعُ الْأَرْضَ .  
٣١ وَلَا يُعْرِفُ الشَّيْءُ فِي الْأَرْضِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الْجُوعِ بَعْدَهُ ، لَأَنَّهُ يَكُونُ شَدِيدًا  
جِدًّا . ٣٢ وَأَمَّا عَنْ تَكَرُّرِ الْحُلْمِ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ مَرَّتَيْنِ ، فَلَأَنَّ الْأَمْرَ مُقَرَّرٌ مِنْ قِبَلِ  
اللَّهِ ، وَاللَّهُ مُسْرِعٌ لِمُصْنَعِهِ» .

٣٣ «فَالآنَ لِيَنْظُرَ فِرْعَوْنُ رَجُلًا بَصِيرًا وَحَكِيمًا وَيَجْعَلُهُ عَلَىٰ أَرْضِ مِصْرَ .  
٣٤ يَفْعَلُ فِرْعَوْنُ قَبُولًا نَظَارًا عَلَى الْأَرْضِ ، وَيَأْخُذُ خُمْسَ غَلِّهِ أَرْضِ مِصْرَ فِي سَبْعِ

سِنِي السَّبْعِ، ٣٥ فَيَجْمَعُونَ جَمِيعَ طَعَامِ هَذِهِ السَّنِينَ الْجَيِّدَةِ الْقَادِمَةِ، وَيَخْزِنُونَ قَمَحًا تَحْتَ يَدِ فِرْعَوْنَ طَعَامًا فِي الْمُدُنِ وَيَحْفَظُونَهُ. ٣٦ فَيَكُونُ الطَّعَامُ ذَخِيرَةً لِلأَرْضِ لِسَبْعِ سِنِي الْجُوعِ الَّتِي تَكُونُ فِي أَرْضِ مِصْرَ، فَلَا تَقْرِضُ الأَرْضُ بِالْجُوعِ».

٣٧ فَحَسَنَ الْكَلَامَ فِي عَيْتِي فِرْعَوْنَ وَفِي عُيُونِ جَمِيعِ عِبِيدِهِ. ٣٨ فَقَالَ فِرْعَوْنَ لِعَبِيدِهِ: «هَلْ نَجِدُ مِثْلَ هَذَا رَجُلًا فِيهِ رُوحُ اللَّهِ؟» ٣٩ ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنَ لِيُوسُفَ: «بَعْدَ مَا أَعْلَمَكَ اللَّهُ كُلَّ هَذَا، لَيْسَ بِصِيرٍ وَحَكِيمٍ مِثْلَكَ. ٤٠ أَنْتَ تَكُونُ عَلَى بَيْتِي، وَعَلَى فَمِكَ يَقْبَلُ جَمِيعُ شَعْبِي إِلَّا إِنْ الْكُرْسِيِّ أَكُونُ فِيهِ أَعْظَمَ مِنْكَ».

٤١ ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنَ لِيُوسُفَ: «انْظُرْ، قَدْ جَعَلْتُكَ عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ». ٤٢ وَخَلَعَ فِرْعَوْنَ خَاتِمَهُ مِنْ يَدِهِ وَجَعَلَهُ فِي يَدِ يُوسُفَ، وَأَلْبَسَهُ ثِيَابَ بُوصٍ، وَوَضَعَ طُوقَ ذَهَبٍ فِي عُنُقِهِ، ٤٣ وَأَرْكَبَهُ فِي مَرْكَبَتِهِ الثَّانِيَةِ، وَنَادَوْا أَمَامَهُ «ارْكَبُوا». وَجَعَلَهُ عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. ٤٤ وَقَالَ فِرْعَوْنَ لِيُوسُفَ: «أَنَا فِرْعَوْنُ. قَبِدُونَا لَا يَرْفَعُ إِنْسَانُ يَدَهُ وَلَا رِجْلَهُ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ».

٤٥ وَدَعَا فِرْعَوْنَ اسْمَ يُوسُفَ «صَفْنَاتُ فَعْنِيحَ»، وَأَعْطَاهُ أَسْنَاتُ بَيْتِ فُوطِي فَارَعَ كَاهِنِ أَوْنِ زَوْجَةً. فَخَرَجَ يُوسُفُ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ. ٤٦ وَكَانَ يُوسُفُ ابْنَ ثَلَاثِينَ سَنَةً لَمَّا وَقَفَ قُدَّامَ فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ. فَخَرَجَ يُوسُفُ مِنْ لَدُنْ فِرْعَوْنَ وَاجْتَاَزَ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ.

٤٧ وَانْمَرَّتِ الأَرْضُ فِي سَبْعِ سِنِي السَّبْعِ بِحُزْمٍ. ٤٨ فَجَمَعَ كُلُّ طَعَامِ السَّبْعِ سِنِينَ الَّتِي كَانَتْ فِي أَرْضِ مِصْرَ، وَجَعَلَ طَعَامًا فِي الْمُدُنِ. طَعَامَ حَقْلِ الْمَدِينَةِ الَّلَّذِي حَوَالَيْهَا جَعَلَهُ فِيهَا. ٤٩ وَخَزَنَ يُوسُفُ قَمَحًا كَرْمِلِ الْبَحْرِ، كَثِيرًا جَدًّا حَتَّى تَرَكَ الْعَدَدَ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَدَدٌ.

٥٠ وَوُلِدَ لِيُوسُفَ ابْنَانِ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ سَنَةُ الْجُوعِ، وَلَدَتْهُمَا لَهُ أَسْنَاتُ بَيْتِ فُوطِي فَارَعَ كَاهِنِ أَوْنِ. ٥١ وَدَعَا يُوسُفُ اسْمَ الْبِكْرِ «مَنْسَى» قَائِلًا: «لَأَنَّ اللَّهَ أَنْسَانِي كُلَّ تَعْبِي وَكُلَّ بَيْتِ أَبِي». ٥٢ وَدَعَا اسْمَ الثَّانِي «أَفْرَايِمَ» قَائِلًا: «لَأَنَّ اللَّهَ جَعَلَنِي مُثْمِرًا فِي أَرْضِ مِثْلَتِي».

٥٣ ثُمَّ كَمَلْتُ سَبْعَ سِنِي الشَّبَعِ الَّذِي كَانَ فِي أَرْضِ مِصْرَ. ٥٤ وَابْتَدَأْتُ سَبْعَ سِنِي الْجُوعِ تَأْتِي كَمَا قَالَ يُوسُفُ، فَكَانَ جُوعٌ فِي جَمِيعِ الْبُلْدَانِ. وَأَمَّا جَمِيعُ أَرْضِ مِصْرَ فَكَانَ فِيهَا خُبْزٌ. ٥٥ وَلَمَّا جَاعَتْ جَمِيعُ أَرْضِ مِصْرَ وَصَرَخَ الشَّعْبُ إِلَى فِرْعَوْنَ لِأَجْلِ الْخُبْزِ، قَالَ فِرْعَوْنُ لِكُلِّ الْمِصْرِيِّينَ: «اذْهَبُوا إِلَى يُوسُفَ، وَالَّذِي يَقُولُ لَكُمْ افْعَلُوا». ٥٦ وَكَانَ الْجُوعُ عَلَى كُلِّ وَجْهِ الْأَرْضِ، وَفَتَحَ يُوسُفُ جَمِيعَ مَا فِيهِ طَعَامَ وَبَاعَ لِلْمِصْرِيِّينَ. وَاشْتَدَّ الْجُوعُ فِي أَرْضِ مِصْرَ. ٥٧ وَجَاءَتْ كُلُّ الْأَرْضِ إِلَى مِصْرَ إِلَى يُوسُفَ لِتَشْتَرِيَ قَمْحًا، لِأَنَّ الْجُوعَ كَانَ شَدِيدًا فِي كُلِّ الْأَرْضِ.

#### الإصحاح الثاني وَالْأَرْبَعُونَ

١ فَلَمَّا رَأَى يَعْقُوبُ أَنَّهُ يُوجَدُ قَمْحٌ فِي مِصْرَ، قَالَ يَعْقُوبُ لِبَنِيهِ: «لِمَاذَا تَنْظُرُونَ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ؟» ٢ وَقَالَ «إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ أَنَّهُ يُوجَدُ قَمْحٌ فِي مِصْرَ. انْزِلُوا إِلَى هُنَاكَ وَاشْتَرُوا لَنَا مِنْ هُنَاكَ لِنَحْيَا وَلَا نَمُوتَ». ٣ فَانْزَلَ عَشْرَةٌ مِنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ لِيَشْتَرُوا قَمْحًا مِنْ مِصْرَ. ٤ وَأَمَّا بَنِيَامِينَ أَخُو يُوسُفَ فَلَمْ يُرْسِلْهُ يَعْقُوبُ مَعَ إِخْوَتِهِ، لِأَنَّهُ قَالَ: «لَعَلَّهُ تُصِيبُهُ أَذِيَّةٌ».

٥ فَأَتَى بَنُو إِسْرَائِيلَ لِيَشْتَرُوا مِنَ الَّذِينَ أَتَوْا، لِأَنَّ الْجُوعَ كَانَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. ٦ وَكَانَ يُوسُفُ هُوَ الْمُسَلِّطَ عَلَى الْأَرْضِ، وَهُوَ الْبَائِعَ لِكُلِّ شَعْبِ الْأَرْضِ. فَأَتَى إِخْوَةُ يُوسُفَ وَسَجَدُوا لَهُ بِوُجُوهِهِمْ إِلَى الْأَرْضِ. ٧ وَلَمَّا نَظَرَ يُوسُفُ إِخْوَتَهُ عَرَفَهُمْ، فَتَنَكَّرَ لَهُمْ وَتَكَلَّمَ مَعَهُمْ بِجَفَاءٍ، وَقَالَ لَهُمْ: «مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟» فَقَالُوا: «مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ لِنَشْتَرِيَ طَعَامًا». ٨ وَعَرَفَ يُوسُفُ إِخْوَتَهُ، وَأَمَّا هُمْ فَلَمْ يَعْرِفُوهُ.

٩ فَتَذَكَّرَ يُوسُفُ الْأَخْلَامَ الَّتِي حَلَّمَ عَنْهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «جَوَاسِيسُ أَنْتُمْ! لِمَ تَرَوْنَ عَوْرَةَ الْأَرْضِ جِئْتُمْ؟» ١٠ فَقَالُوا لَهُ: «لَا يَا سَيِّدِي، بَلْ عَيْبُكَ جَاءُوا لِيَشْتَرُوا طَعَامًا. ١١ نَحْنُ جَمِيعُنَا بَنُو رَجُلٍ وَاحِدٍ. نَحْنُ أُمَّتَاءُ، لَيْسَ عَيْبُكَ جَوَاسِيسَ». ١٢ فَقَالَ لَهُمْ: «كَلَّا! بَلْ لِمَ تَرَوْنَ عَوْرَةَ الْأَرْضِ جِئْتُمْ؟» ١٣ فَقَالُوا: «عَيْبُكَ اثْنَا عَشَرَ أَخًا. نَحْنُ بَنُو رَجُلٍ وَاحِدٍ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. وَهُوَذَا الصَّغِيرُ عِنْدَ أَبِيئَا الْيَوْمَ،

وَالْوَاحِدُ مَفْقُودٌ». ١٤ فَقَالَ لَهُمْ يُوسُفُ: «ذَلِكَ مَا كَلَّمْتُكُمْ بِهِ قَائِلًا: جَوَاسِيسُ أَنْتُمْ! ١٥ بِهِذَا تُمْتَحِنُونَ. وَحَيَاةَ فِرْعَوْنَ لَا تَخْرُجُونَ مِنْ هُنَا إِلَّا بِمَجِيءِ أَخِيكُمْ الصَّغِيرِ إِلَى هُنَا. ١٦ أَرْسِلُوا مِنْكُمْ وَاحِدًا لِيَجِيءَ بِأَخِيكُمْ، وَأَنْتُمْ تُحْبَسُونَ، فَيُمْتَحَنَ كَلَامُكُمْ هَلْ عِنْدَكُمْ صِدْقٌ. وَإِلَّا فَوَحْيَاةَ فِرْعَوْنَ إِنَّكُمْ لَجَوَاسِيسُ!». ١٧ فَجَمَعَهُمْ إِلَى حَبْسٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ.

١٨ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ يُوسُفُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ: «افْعَلُوا هَذَا وَاخْيَؤُوا. أَنَا خَائِفٌ لِلَّهِ. ١٩ إِنْ كُنْتُمْ أَمَنَاءَ فَلْيُحْبَسْ أَخٌ وَاحِدٌ مِنْكُمْ فِي بَيْتِ حَبْسِكُمْ، وَانْطَلِقُوا أَنْتُمْ وَخُذُوا قَمَحًا لِمَجَاعَةِ بِيُوتِكُمْ. ٢٠ وَأَخْضِرُوا أَحَاكُمُ الصَّغِيرِ إِلَيَّ، فَيَتَحَقَّقَ كَلَامُكُمْ وَلَا تَمُوتُوا». فَفَعَلُوا هَكَذَا. ٢١ وَقَالُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «حَقًّا إِنَّا مُذْنِبُونَ إِلَى أَخِينَا الَّذِي رَأَيْنَا ضِيقَهُ نَفْسِهِ لَمَّا اسْتَرْحَمَنَا وَلَمْ نَسْمَعْ. لِذَلِكَ جَاءَتْ عَلَيْنَا هَذِهِ الضِّيقَةُ». ٢٢ فَاجَابَهُمْ رَأُوبِينُ قَائِلًا: «أَلَمْ أَكَلِّمُكُمْ قَائِلًا: لَا تَأْتُمُوا بِالْوَلَدِ، وَأَنْتُمْ لَمْ تَسْمَعُوا؟ فَهُوَ ذَا دَمُهُ يُطَلَبُ». ٢٣ وَهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ يُوسُفَ فَاهِمٌ؛ لِأَنَّ التَّرْجُمَانَ كَانَ بَيْنَهُمْ. ٢٤ فَتَحَوَّلَ عَنْهُمْ وَبَكَى، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِمْ وَكَلَّمَهُمْ، وَأَخَذَ مِنْهُمْ شِمْعُونَ وَفَيْدَهُ أَمَامَ عُيُونِهِمْ.

٢٥ ثُمَّ أَمَرَ يُوسُفُ أَنْ تُمَلَأَ أَوْعِيَتُهُمْ قَمَحًا، وَتُرَدَّ فِصَّةُ كُلِّ وَاحِدٍ إِلَى عِذْلِهِ، وَأَنْ يُعْطُوا زَادًا لِلطَّرِيقِ. فَفَعِلَ لَهُمْ هَكَذَا. ٢٦ فَحَمَلُوا قَمَحَهُمْ عَلَى حِمِيرِهِمْ وَمَضُوا مِنْ هُنَاكَ. ٢٧ فَلَمَّا فَتَحَ أَحَدُهُمْ عِذْلَهُ لِيُعْطِيَ عَلِيْقًا لِحِمَارِهِ فِي الْمَنْزِلِ، رَأَى فِصَّتَهُ وَإِذَا هِيَ فِي فَمِ عِذْلِهِ. ٢٨ فَقَالَ لِإِخْوَتِهِ: «رُدَّتْ فِصَّتِي وَهِيَ فِي عِذْلِي». فَطَارَتْ قُلُوبُهُمْ وَازْتَعَدُوا بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ قَائِلِينَ: «مَا هَذَا الَّذِي صَنَعَهُ اللَّهُ بِنَا؟».

٢٩ فَجَاءُوا إِلَى يَعْقُوبَ أَبِيهِمْ إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ، وَأَخْبَرُوهُ بِكُلِّ مَا أَصَابَهُمْ قَائِلِينَ: ٣٠ «تَكَلَّمْ مَعَنَا الرَّجُلُ سَيِّدُ الْأَرْضِ بِجَفَاءٍ، وَحَسِبْنَا جَوَاسِيسَ الْأَرْضِ. ٣١ فَقُلْنَا لَهُ: نَحْنُ أَمَنَاءُ، لَسْنَا جَوَاسِيسَ. ٣٢ نَحْنُ اثْنَا عَشَرَ أَخًا بَنُو أَبِينَا. الْوَاحِدُ مَفْقُودٌ وَالصَّغِيرُ الْيَوْمَ عِنْدَ أَبِينَا فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. ٣٣ فَقَالَ لَنَا الرَّجُلُ سَيِّدُ الْأَرْضِ:

بِهَذَا أَعْرِفَ أَنتُمْ أَمْنَاءُ. دَعُوا أَخَا وَاحِدًا مِنْكُمْ عِنْدِي، وَخُذُوا لِمَجَاعَةِ بِيُوتِكُمْ  
وَانْطَلِقُوا. ٣٤ وَأَخْضِرُوا أَخَاكُمْ الصَّغِيرَ إِلَيَّ فَأَعْرِفَ أَتُكْمَ لَسْتُمْ جَوَاسِيسَ، بَلْ  
أَنْتُمْ أَمْنَاءُ، فَأَعْطِيَكُمْ أَخَاكُمْ وَتَتَجَرَّوْنَ فِي الْأَرْضِ. ٣٥ وَإِذْ كَانُوا يَفْرَعُونَ عِدَالَهُمْ  
إِذَا صُرَّةُ فِضَّةٍ كُلِّ وَاحِدٍ فِي عِدْلِهِ. فَلَمَّا رَأَوْا صُرَّرَ فِضَّتِهِمْ هُمْ وَأَبُوهُمْ خَافُوا.

٣٦ فَقَالَ لَهُمْ يَعْقُوبُ: «أَعَدْتُكُمْوَنِي الْأَوْلَادَ. يُوسُفُ مَفْقُودٌ، وَشِمْعُونُ  
مَفْقُودٌ، وَبَنِيَامِينَ تَأْخُذُونَهُ. صَارَ كُلُّ هَذَا عَلَيَّ». ٣٧ وَكَلَّمَ رَأُوَيْنُ أَبَاهُ قَائِلًا: «اقْتُلْ  
ابْنِي إِنْ لَمْ أَجِئْ بِهِ إِلَيْكَ. سَلَّمُهُ بِيَدِي وَأَنَا أَرُدُّهُ إِلَيْكَ». ٣٨ فَقَالَ: «لَا يَنْزِلُ ابْنِي  
مَعَكُمْ، لِأَنَّ أَخَاهُ قَدْ مَاتَ، وَهُوَ وَحْدَهُ بَاقٍ. فَإِنْ أَصَابَتْهُ أَدِيَّةٌ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي  
تَذْهَبُونَ فِيهَا تُنْزِلُونَ شَيْئِي بِحُزْنٍ إِلَى الْهَآوِيَةِ».

#### الإصحاح الثالث والأربعون

١ وَكَانَ الْجُوعُ شَدِيدًا فِي الْأَرْضِ. ٢ وَحَدَّثَ لَمَّا فَرَعُوا مِنْ أَكْلِ الْقَمْحِ الَّذِي  
جَاءُوا بِهِ مِنْ مِصْرَ، أَنَّ آبَاءَهُمْ قَالَ لَهُمْ: «ارْجِعُوا اشْتَرُوا لَنَا قَلِيلًا مِنَ الطَّعَامِ».  
٣ فَكَلَّمَهُ يَهُوذَا قَائِلًا: «إِنَّ الرَّجُلَ قَدْ أَشْهَدَ عَلَيْنَا قَائِلًا: لَا تَرَوْنَ وَجْهِي بِدُونِ أَنْ  
يَكُونَ أَخُوكُمْ مَعَكُمْ. ٤ إِنْ كُنْتُ تُرْسِلُ أَخَانَا مَعَنَا، نَنْزِلُ وَنَشْتَرِي لَكَ طَعَامًا،  
٥ وَلَكِنْ إِنْ كُنْتُ لَا تُرْسِلُهُ لَا نَنْزِلُ. لِأَنَّ الرَّجُلَ قَالَ لَنَا: لَا تَرَوْنَ وَجْهِي بِدُونِ أَنْ  
يَكُونَ أَخُوكُمْ مَعَكُمْ».

٦ فَقَالَ إِسْرَائِيلُ: «لِمَاذَا أَسَأْتُمْ إِلَيَّ حَتَّى أَخْبَرْتُمْ الرَّجُلَ أَنَّ لَكُمْ أَخَا أَيُّضًا؟»  
٧ فَقَالُوا: «إِنَّ الرَّجُلَ قَدْ سَأَلَ عَنَّا وَعَنْ عَشِيرَتِنَا، قَائِلًا: هَلْ أَبُوكُمْ حَيٌّ بَعْدُ؟ هَلْ  
لَكُمْ أَخٌ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ بِحَسَبِ هَذَا الْكَلَامِ. هَلْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ يَقُولُ: انْزِلُوا بِأَخِيكُمْ؟».  
٨ وَقَالَ يَهُوذَا لِإِسْرَائِيلَ أَبِيهِ: «أُرْسِلِ الْغُلَامَ مَعِي لِنَقُومَ وَنَذْهَبَ وَنَحْيَا وَلَا  
نَمُوتَ، نَحْنُ وَأَنْتَ وَأَوْلَادُنَا جَمِيعًا. ٩ أَنَا أَضْمَنُهُ. مِنْ يَدِي تَطْلُبُهُ. إِنْ لَمْ أَجِئْ بِهِ  
إِلَيْكَ وَأَوْقِفُهُ قُدَّامَكَ، أَصِرُّ مُذْنِبًا إِلَيْكَ كُلَّ الْيَامِ. ١٠ الْآنَ لَوْ لَمْ نَتَوَانَ لَكُنَّا قَدْ  
رَجَعْنَا الْآنَ مَرَّتَيْنِ».

١١ فَقَالَ لَهُمْ إِسْرَائِيلُ أَبُوهُمْ: «إِنْ كَانَ هَكَذَا فَافْعَلُوا هَذَا: خُذُوا مِنْ أَفْخَرِ

جَنَى الْأَرْضِ فِي أَوْعِيَّتِكُمْ، وَانْزِلُوا لِلرَّجُلِ هَدِيَّةً. قَلِيلًا مِنَ الْبَلْسَانِ، وَقَلِيلًا مِنَ الْعَسَلِ، وَكَثِيرَاءَ وَلَاذَنَّا وَفُسْتَقًا وَلَوْزًا. ١٢ وَخُذُوا فِضَّةً أُخْرَى فِي أَيَادِيكُمْ. وَالْفِضَّةَ الْمَرْدُودَةَ فِي أَفْوَاهِ عِدَالِكُمْ رُدُّوهَا فِي أَيَادِيكُمْ، لَعَلَّهُ كَانَ سَهْوًا. ١٣ وَخُذُوا أَخَاكُمْ وَقُومُوا ازْجِعُوا إِلَى الرَّجُلِ. ١٤ وَاللَّهُ الْقَدِيرُ يُعْطِيكُمْ رَحْمَةً أَمَامَ الرَّجُلِ حَتَّى يُطْلِقَ لَكُمْ أَخَاكُمْ الْآخَرَ وَبَنِيَّامِينَ. وَأَنَا إِذَا عَدِمْتُ الْأَوْلَادَ عَدِمْتُكُمْ». ١٥ فَأَخَذَ الرِّجَالُ هَذِهِ الْهَدِيَّةَ، وَأَخَذُوا ضِعْفَ الْفِضَّةِ فِي أَيَادِيهِمْ، وَبَنِيَّامِينَ، وَقَامُوا وَنَزَلُوا إِلَى مِصْرَ وَوَقَفُوا أَمَامَ يُوسُفَ. ١٦ فَلَمَّا رَأَى يُوسُفُ بَنِيَّامِينَ مَعَهُمْ، قَالَ لِلَّذِي عَلَى بَيْتِهِ: «أَدْخِلِ الرِّجَالَ إِلَى الْبَيْتِ وَادْبَحْ ذَبِيحَةً وَهَيِّئْ، لَأَنَّ الرِّجَالَ يَأْكُلُونَ مَعِيَ عِنْدَ الظُّهْرِ». ١٧ فَفَعَلَ الرَّجُلُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ. وَأَدْخَلَ الرَّجُلُ الرِّجَالَ إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ.

١٨ فَخَافَ الرِّجَالُ إِذْ أَدْخِلُوا إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ، وَقَالُوا: «لِسَبَبِ الْفِضَّةِ الَّتِي رَجَعْتَ أَوَّلًا فِي عِدَالِنَا نَحْنُ قَدْ أَدْخَلْنَا لِيَهْجَمَ عَلَيْنَا وَيَقَعَ بِنَا وَيَأْخُذَنَا عَبِيدًا وَحَمِيرًا». ١٩ فَتَقَدَّمُوا إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي عَلَى بَيْتِ يُوسُفَ، وَكَلَّمُوهُ فِي بَابِ الْبَيْتِ ٢٠ وَقَالُوا: «اسْتَمِعْ يَا سَيِّدِي، إِنَّا قَدْ نَزَلْنَا أَوَّلًا لِنَشْتَرِيَ طَعَامًا. ٢١ وَكَانَ لَمَّا أَتَيْنَا إِلَى الْمَتَرِلِ أَنَّنَا فَتَحْنَا عِدَالَنَا، وَإِذَا فِضَّةٌ كُلُّ وَاحِدٍ فِي فَمِ عَدْلِهِ. فَضُتْنَا بِوَزْنِهَا. فَقَدْ رَدَدْنَا فِي أَيَادِينَا. ٢٢ وَانْزَلْنَا فِضَّةً أُخْرَى فِي أَيَادِينَا لِنَشْتَرِيَ طَعَامًا. لَا نَعْلَمُ مَنْ وَضَعَ فَضَّتَنَا فِي عِدَالِنَا».

٢٣ فَقَالَ: «سَلَامٌ لَكُمْ، لَا تَخَافُوا. إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ أَبِيكُمْ أَعْطَاكُمْ كَنْزًا فِي عِدَالِكُمْ. فَضَّتُكُمْ وَصَلَّتْ إِلَيَّ». ثُمَّ أَخْرَجَ إِلَيْهِمْ شِمْعُونَ. ٢٤ وَأَدْخَلَ الرَّجُلُ الرِّجَالَ إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ وَأَعْطَاهُمْ مَاءً لِيَغْسِلُوا أَرْجُلَهُمْ، وَأَعْطَى عَلَيْهِمَا لِحْمِيرَهُمَا. ٢٥ وَهَيَّأُوا الْهَدِيَّةَ إِلَى أَنْ يَجِيءَ يُوسُفُ عِنْدَ الظُّهْرِ، لَأَنَّهُمْ سَمِعُوا أَنَّهُمْ هُنَاكَ يَأْكُلُونَ طَعَامًا.

٢٦ فَلَمَّا جَاءَ يُوسُفُ إِلَى الْبَيْتِ أَحْضَرُوا إِلَيْهِ الْهَدِيَّةَ الَّتِي فِي أَيَادِيهِمْ إِلَى الْبَيْتِ، وَسَجَدُوا لَهُ إِلَى الْأَرْضِ. ٢٧ فَسَالَ عَنْ سَلَامَتِهِمْ، وَقَالَ: «أَسَالِمُ آبُوكُمْ



الشَّيْخُ الَّذِي قُلْتُمْ عَنْهُ؟ أَحْيَىٰ هُوَ بَعْدُ؟» ٢٨ فَقَالُوا: «عَبْدُكَ أَبُوْنَا سَالِمٌ. هُوَ حَيٌّ بَعْدُ». وَخَرُّوا وَسَجَدُوا.

٢٩ فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ بَنِيَامِينَ أَخَاهُ ابْنَ أُمِّهِ، وَقَالَ: «أَهَذَا أَخُوكُمْ الصَّغِيرُ الَّذِي قُلْتُمْ لِي عَنْهُ؟» ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُ يُنْعِمُ عَلَيْكَ يَا ابْنِي». ٣٠ وَاسْتَعَجَلَ يُوسُفُ لِأَنَّ أَحْشَاءَهُ حَنَّتْ إِلَىٰ أَخِيهِ وَطَلَبَ مَكَانًا لِيَبْكِي، فَدَخَلَ الْمَخْدَعَ وَبَكَى هُنَاكَ.

٣١ ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ وَخَرَجَ وَتَجَلَّدَ، وَقَالَ: «قَدِّمُوا طَعَامًا». ٣٢ فَقَدِّمُوا لَهُ وَخَذَهُ، وَلَهُمْ وَخَذَهُمْ، وَلِلْمِصْرِيِّينَ الْآكِلِينَ عِنْدَهُ وَخَذَهُمْ، لِأَنَّ الْمِصْرِيِّينَ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَأْكُلُوا طَعَامًا مَعَ الْعِبْرَانِيِّينَ، لِأَنَّهُ رَجَسٌ عِنْدَ الْمِصْرِيِّينَ. ٣٣ فَجَلَسُوا قُدَّامَهُ: الْبِكْرُ بِحَسَبِ بُكُورِيَّتِهِ، وَالصَّغِيرُ بِحَسَبِ صِغَرِهِ، فَبُهِتَ الرِّجَالُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ. ٣٤ وَرَفَعَ حِصَصًا مِنْ قُدَّامِهِ إِلَيْهِمْ، فَكَانَتْ حِصَّةُ بَنِيَامِينَ أَكْثَرَ مِنْ حِصَصِ جَمِيعِهِمْ خَمْسَةَ أَصْعَافٍ. وَشَرِبُوا وَرَوُّوا مَعَهُ.

#### الإصحاح الرابع والأربعون

١ ثُمَّ أَمَرَ الَّذِي عَلَىٰ بَيْتِهِ قَائِلًا: «امْلَأْ عِدَالَ الرِّجَالِ طَعَامًا حَسَبَ مَا يُطِيقُونَ حِمْلَهُ، وَضَعْ فِضَّةً كُلَّ وَاحِدٍ فِي قَمِ عِدْلِهِ. ٢ وَطَاسِي، طَاسَ الْفِضَّةِ، تَضَعْ فِي قَمِ عِدْلِ الصَّغِيرِ، وَثَمَنَ قَمِيحِهِ». فَفَعَلَ بِحَسَبِ كَلَامِ يُوسُفَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ. ٣ فَلَمَّا أَضَاءَ الصُّبْحُ انْصَرَفَ الرِّجَالُ هُمْ وَحَمِيرُهُمْ. ٤ وَلَمَّا كَانُوا قَدْ خَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَلَمْ يَتَّبِعُوا، قَالَ يُوسُفُ لِلَّذِي عَلَىٰ بَيْتِهِ: «قُمْ اسْعَ وَرَاءَ الرِّجَالِ، وَمَتَىٰ أَذْرَكْتَهُمْ فَقُلْ لَهُمْ: لِمَاذَا جَارَيْتُمْ شَرًّا عِوَضًا عَنْ خَيْرٍ؟ ٥ أَلَيْسَ هَذَا هُوَ الَّذِي يَشْرِبُ سَيِّدِي فِيهِ؟ وَهُوَ يَتَقَاعَلُ بِهِ. أَأَسَأْتُمْ فِي مَا صَنَعْتُمْ».

٦ فَأَذْرَكَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ هَذَا الْكَلَامُ. ٧ فَقَالُوا لَهُ: «لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ سَيِّدِي مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ؟ خَاشَا لِعَبِيدِكَ أَنْ يَفْعَلُوا مِثْلَ هَذَا الْأَمْرِ! ٨ هُوَذَا الْفِضَّةُ الَّتِي وَجَدْنَا فِي أَقْوَاهِ عِدَالِنَا رَدَدْنَاهَا إِلَيْكَ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ. فَكَيْفَ نَسْرِقُ مِنْ بَيْتِ سَيِّدِكَ فِضَّةً أَوْ ذَهَبًا؟ ٩ الَّذِي يُوجَدُ مَعَهُ مِنْ عَبِيدِكَ يَمُوتُ، وَنَحْنُ أَيْضًا نَكُونُ عَبِيدًا لِسَيِّدِي». ١٠ فَقَالَ: «نَعَمْ، الْآنَ بِحَسَبِ كَلَامِكُمْ هَكَذَا يَكُونُ. الَّذِي يُوجَدُ مَعَهُ يَكُونُ لِي

عَبْدًا، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَكُونُونَ أَبْرِيَاءَ». ١١ فَاسْتَعَجَلُوا وَأَنْزَلُوا كُلُّ وَاحِدٍ عِدْلَهُ إِلَى الْأَرْضِ، وَفَتَحُوا كُلُّ وَاحِدٍ عِدْلَهُ. ١٢ فَفَتَشَ مُبْتَدِئًا مِنَ الْكَبِيرِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الصَّغِيرِ، فَوَجَدَ الطَّاسُ فِي عِدْلِ بَنِيَامِينَ. ١٣ فَمَزَقُوا ثِيَابَهُمْ وَحَمَلَ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى حِمَارِهِ وَرَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ.

١٤ فَدَخَلَ يَهُودًا وَإِخْوَتُهُ إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ وَهُوَ بَعْدَ هُنَاكَ، وَوَقَعُوا أَمَامَهُ عَلَى الْأَرْضِ. ١٥ فَقَالَ لَهُمْ يُوسُفُ: «مَا هَذَا الْفِعْلُ الَّذِي فَعَلْتُمْ؟ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ رَجُلًا مِثْلِي يَنْقَاءُ؟» ١٦ فَقَالَ يَهُودًا: «مَاذَا نَقُولُ لِسَيِّدِي؟ مَاذَا نَتَكَلَّمُ؟ وَبِمَاذَا نَتَبَرَّرُ؟ اللَّهُ قَدْ وَجَدَ إِنَّهُمْ عِبِيدُكَ. هَا نَحْنُ عِبِيدُ لِسَيِّدِي، نَحْنُ وَالَّذِي وَجَدَ الطَّاسُ فِي يَدِهِ جَمِيعًا». ١٧ فَقَالَ: «حَاشَا لِي أَنْ أَفْعَلَ هَذَا! الرَّجُلُ الَّذِي وَجَدَ الطَّاسُ فِي يَدِهِ هُوَ يَكُونُ لِي عَبْدًا، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَاصْعَدُوا بِسَلَامٍ إِلَى آبَائِكُمْ».

١٨ ثُمَّ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ يَهُودًا وَقَالَ: «اسْتَمِعْ يَا سَيِّدِي. لِيَتَكَلَّمَ عَبْدُكَ كَلِمَةً فِي أُذُنِي سَيِّدِي وَلَا يَحْمَ غَضَبُكَ عَلَى عَبْدِكَ، لِأَنَّكَ مِثْلُ فِرْعَوْنَ. ١٩ سَيِّدِي سَأَلَ عِبِيدَهُ قَائِلًا: هَلْ لَكُمْ أَبٌ أَوْ أَخٌ؟ ٢٠ فَقُلْنَا لِسَيِّدِي: لَنَا أَبٌ شَيْخٌ، وَابْنُ شَيْخُوخَةٍ صَغِيرٍ، مَاتَ أَخُوهُ وَبَقِيَ هُوَ وَخَدَهُ لِأُمِّهِ، وَأَبُوهُ يُحِبُّهُ. ٢١ فَقُلْتُ لِعَبِيدِكَ: انْزِلُوا بِهِ إِلَيَّ فَأَجْعَلَ نَظْرِي عَلَيْهِ. ٢٢ فَقُلْنَا لِسَيِّدِي: لَا يَقْدِرُ الْعُلَامُ أَنْ يَتْرَكَ أَبَاهُ، وَإِنْ تَرَكَ أَبَاهُ يَمُوتُ. ٢٣ فَقُلْتُ لِعَبِيدِكَ: إِنْ لَمْ يَنْزِلْ أَخُوكُمْ الصَّغِيرُ مَعَكُمْ لَا تَعُودُوا تَنْظُرُونَ وَجْهِي. ٢٤ فَكَانَ لَمَّا صَعِدْنَا إِلَى عَبْدِكَ أَبِي أَنَّنَا أَخْبَرْنَاهُ بِكَلَامِ سَيِّدِي. ٢٥ ثُمَّ قَالَ أَبُونَا: ازْجِعُوا اشْتَرُوا لَنَا قَلِيلًا مِنَ الطَّعَامِ. ٢٦ فَقُلْنَا: لَا نَقْدِرُ أَنْ نَنْزِلَ، وَإِنَّمَا إِذَا كَانَ أَخُونَا الصَّغِيرُ مَعَنَا نَنْزِلُ، لِأَنَّنَا لَا نَقْدِرُ أَنْ نَنْظُرَ وَجْهَ الرَّجُلِ وَأَخُونَا الصَّغِيرُ لَيْسَ مَعَنَا. ٢٧ فَقَالَ لَنَا عَبْدُكَ أَبِي: أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ لِي اثْنَيْنِ، ٢٨ فَخَرَجَ الْوَاحِدُ مِنْ عِنْدِي، وَقُلْتُ: إِنَّمَا هُوَ قَدْ افْتَرَسَ افْتِرَاسًا، وَلَمْ أَنْظُرْهُ إِلَى الْآنَ. ٢٩ فَإِذَا أَخَذْتُمْ هَذَا أَيْضًا مِنْ أَمَامِ وَجْهِي وَأَصَابَتْهُ أَذِيَّةٌ، تُنْزِلُونَ شَيْئِي بِشَرِّ إِلَى الْهََاوِيَةِ. ٣٠ فَالآنَ مَتَى جِئْتُ إِلَى عَبْدِكَ أَبِي، وَالْعُلَامُ لَيْسَ مَعَنَا، وَنَفْسُهُ مُرْتَبِطَةٌ بِنَفْسِهِ، ٣١ يَكُونُ مَتَى رَأَى أَنَّ الْعُلَامَ مَفْقُودٌ، أَنَّهُ يَمُوتُ، فَيَنْزِلُ

عَبِيدُكَ شَيْبَةً عَبْدُكَ آيِنَا بِحُزْنٍ إِلَى الْهَآوِيَةِ، ٣٢ لَأَنَّ عَبْدَكَ ضَمِنَ الْغُلَامَ لِأَبِي قَاتِلًا: إِنْ لَمْ أَجِءْ بِهِ إِلَيْكَ أَصِرْ مُذْنِبًا إِلَى أَبِي كُلِّ الْآيَامِ. ٣٣ قَالَ لِيَمُكِّثَ عَبْدُكَ عِوَضًا عَنِ الْغُلَامِ، عَبْدًا لِسَيِّدِي، وَيَصْعَدَ الْغُلَامَ مَعَ إِخْوَتِهِ. ٣٤ لَأَنِّي كَيْفَ أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَالْغُلَامَ لَيْسَ مَعِيَ؟ لَيْلًا أَنْظَرَ الشَّرَّ الَّذِي يُصِيبُ أَبِي».

#### الإصحاح الخامس والأربعون

١ فَلَمَّ يَسْتَطِيعُ يُوسُفُ أَنْ يَضْبِطَ نَفْسَهُ لَدَى جَمِيعِ الْوَاقِفِينَ عِنْدَهُ فَصَرَخَ: «أَخْرِجُوا كُلَّ إِنْسَانٍ عَنِّي». فَلَمَّ يَقِفْ أَحَدٌ عِنْدَهُ حِينَ عَرَفَ يُوسُفُ إِخْوَتَهُ بِنَفْسِهِ. ٢ فَأَطْلَقَ صَوْتَهُ بِالْبُكَاءِ، فَسَمِعَ الْمِصْرِيُّونَ وَسَمِعَ بَيْتُ فِرْعَوْنَ. ٣ وَقَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ: «أَنَا يُوسُفُ. أَحْيِ أَبِي بَعْدُ؟» فَلَمَّ يَسْتَطِيعُ إِخْوَتُهُ أَنْ يُجِيبُوهُ، لِأَنَّهُمْ ارْتَاعُوا مِنْهُ.

٤ فَقَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ: «تَقَدَّمُوا إِلَيَّ». فَتَقَدَّمُوا. فَقَالَ: «أَنَا يُوسُفُ أَخَوْتُكُمْ الَّذِي بَعَثْتُمُوهُ إِلَى مِصْرَ. ٥ وَالْآنَ لَا تَتَأَسَّفُوا وَلَا تَعْتَاطُوا لِأَنكُمْ بَعَثْتُمُونِي إِلَى هُنَا، لِأَنَّهُ لَا سِتْبَقَاءَ حَيَاةٍ أَرْسَلَنِي اللَّهُ قُدَّامَكُمْ. ٦ لَأَنَّ لِلْجُوعِ فِي الْأَرْضِ الْآنَ سَتَتَيْنِ. وَخَمْسُ سِنِينَ أَيْضًا لَا تَكُونُ فِيهَا فَلَاحَةٌ وَلَا حَصَادٌ. ٧ فَقَدْ أَرْسَلَنِي اللَّهُ قُدَّامَكُمْ لِيَجْعَلَ لَكُمْ بَقِيَّةً فِي الْأَرْضِ وَلِيَسْتَبْقِيَ لَكُمْ نَجَاةً عَظِيمَةً. ٨ قَالَ لَيْسَ أَنْتُمْ أَرْسَلْتُمُونِي إِلَى هُنَا بَلِ اللَّهُ. وَهُوَ قَدْ جَعَلَنِي أَبَا لِفِرْعَوْنَ وَسَيِّدًا لِكُلِّ بَيْتِهِ وَمُتَسَلِّطًا عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. ٩ أَسْرِعُوا وَاصْعَدُوا إِلَى أَبِي وَقُولُوا لَهُ: هَكَذَا يَقُولُ ابْنُكَ يُوسُفُ: قَدْ جَعَلَنِي اللَّهُ سَيِّدًا لِكُلِّ مِصْرَ. انْزِلْ إِلَيَّ. لَا تَقِفْ. ١٠ افْتَسِكُنْ فِي أَرْضِ جَاسَانَ وَتَكُونُ قَرِيبًا مِنِّي، أَنْتَ وَبَنُوكَ وَبَنَاتُكَ وَغَنَمُكَ وَبَقَرُكَ وَكُلُّ مَا لَكَ. ١١ وَأَعُولُكَ هُنَاكَ، لِأَنَّهُ يَكُونُ أَيْضًا خَمْسُ سِنِينَ جُوعًا. لَيْلًا تَفْتَقِرُ أَنْتَ وَبَيْتُكَ وَكُلُّ مَا لَكَ. ١٢ وَهُوَذَا عُيُونُكُمْ تَرَى، وَعَيْنَا أَخِي بَنِيَامِينَ، أَنْ فَمِي هُوَ الَّذِي يُكَلِّمُكُمْ. ١٣ وَتُخْبِرُونُ أَبِي بِكُلِّ مَجْدِي فِي مِصْرَ وَبِكُلِّ مَا رَأَيْتُمْ، وَتَسْتَعِجِلُونَ وَتَنْزِلُونَ بِأَبِي إِلَى هُنَا».

١٤ ثُمَّ وَقَعَ عَلَى عُنُقِ بَنِيَامِينَ أَخِيهِ وَبَكَى، وَبَكَى بَنِيَامِينَ عَلَى عُنُقِهِ. ١٥ وَقَبَّلَ

جَمِيعَ إِخْوَتِهِ وَبَكَى عَلَيْهِمْ. وَيَعْدَ ذَلِكَ تَكَلَّمَ إِخْوَتُهُ مَعَهُ.

١٦ وَسَمِعَ الْخَبْرَ فِي بَيْتِ فِرْعَوْنَ، وَقِيلَ: «جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ». فَحَسَنَ فِي عَيْنِي فِرْعَوْنَ وَفِي عُيُونِ عِبِيدِهِ. ١٧ فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «قُلْ لِإِخْوَتِكَ: افْعَلُوا هَذَا: حَمَلُوا دَوَابَّكُمْ وَأَنْطَلِقُوا، اذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. ١٨ وَخُذُوا أَبَاكُمْ وَبُيُوتَكُمْ وَتَعَالَوْا إِلَيَّ، فَأُعْطِيَكُمْ خَيْرَاتِ أَرْضِ مِصْرَ وَتَأْكُلُوا دَسَمَ الْأَرْضِ. ١٩ فَأَنْتَ قَدْ أُمِرْتَ، افْعَلُوا هَذَا: خُذُوا لَكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ عَجَلَاتٍ لِأَوْلَادِكُمْ وَنِسَائِكُمْ، وَاحْمِلُوا أَبَاكُمْ وَتَعَالَوْا. ٢٠ وَلَا تَحْزَنْ عُيُونُكُمْ عَلَى أَنَايَكُم، لِأَنَّ خَيْرَاتِ جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ لَكُمْ».

٢١ فَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ هَكَذَا. وَأَعْطَاهُمْ يُوسُفُ عَجَلَاتٍ بِحَسَبِ أَمْرِ فِرْعَوْنَ، وَأَعْطَاهُمْ زَادًا لِلطَّرِيقِ. ٢٢ وَأَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حُلَّ ثِيَابٍ، وَأَمَّا بَنِيَامِينَ فَأَعْطَاهُ ثَلَاثَ مِثَّةٍ مِنَ الْفِضَّةِ وَخُمْسَ حُلِّ ثِيَابٍ. ٢٣ وَأَرْسَلَ لِأَبِيهِ هَكَذَا: عَشْرَةَ حَمِيرٍ حَامِلَةً مِنْ خَيْرَاتِ مِصْرَ، وَعَشْرَ أَثْنِ حَامِلَةٍ حِنْطَةً، وَخُبْزًا وَطَعَامًا لِأَبِيهِ لِأَجْلِ الطَّرِيقِ. ٢٤ ثُمَّ صَرَفَ إِخْوَتُهُ فَأَنْطَلَقُوا، وَقَالَ لَهُمْ: «لَا تَتَغَاضَبُوا فِي الطَّرِيقِ».

٢٥ فَصَعِدُوا مِنْ مِصْرَ وَجَاءُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ، إِلَى يَعْقُوبَ أَبِيهِمْ. ٢٦ وَأَخْبَرُوهُ قَائِلِينَ: «يُوسُفُ حَيٌّ بَعْدُ، وَهُوَ مُتَسَلِّطٌ عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ». فَجَمَدَ قَلْبُهُ لِأَنَّهُ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ. ٢٧ ثُمَّ كَلَّمُوهُ بِكُلِّ كَلَامٍ يُوسُفَ الَّذِي كَلَّمَهُمْ بِهِ، وَأَبْصَرَ الْعَجَلَاتِ الَّتِي أَرْسَلَهَا يُوسُفُ لِتَحْمِلَهُ. فَعَاشَتْ رُوحُ يَعْقُوبَ أَبِيهِمْ. ٢٨ فَقَالَ إِسْرَائِيلُ: «كَفَى! يُوسُفُ ابْنِي حَيٌّ بَعْدُ. أَذْهَبَ وَارَاهُ قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ».

#### الإصحاح السادس والأربعون

١٩ إِنَّا رَاجِلٌ امْرَأَةٌ يَعْقُوبَ: يُوسُفُ وَبَنِيَامِينَ. ٢٠ وَوُلِدَ لِيُوسُفَ فِي أَرْضِ مِصْرَ: مَنَسَّى وَأَفْرَايِمُ، اللَّذَانِ وَلَدَتْهُمَا لَهُ أَسْنَاتُ بِنْتُ فُوطِي قَارِعَ كَاهِنِ أُونِ. ٢١ وَبَنُو بَنِيَامِينَ: بَالَعُ وَبَاكْرُ وَأَشْبِيلُ وَجِيرَا وَنَعْمَانُ وَإِيحْيَى وَرُوشُ وَمُفِيمُ وَحُفِيمُ وَأَزْدُ. ٢٢ هَؤُلَاءِ بَنُو رَاجِلِ الَّذِينَ وَلَدُوا لِيَعْقُوبَ. جَمِيعُ النُّفُوسِ أَرْبَعُ عَشْرَةَ.

٢٣ وَابْنُ دَانَ: حُوشِيمُ. ٢٤ وَيَبْنُو نَفْتَالِي: يَاحْصِيلُ وَجُونِي وَيَضْرُ وَشَلِيمُ.  
٢٥ هَؤُلَاءِ بَنُو بِلْهَةَ الَّتِي أَعْطَاهَا لَابَانُ لِرَاحِيلَ ابْنَتِهِ. فَوَلَدَتْ هَؤُلَاءِ لِيَعْقُوبَ. جَمِيعُ  
الْأَنْفُسِ سَبْعٌ.

٢٦ جَمِيعُ الثُّفُوسِ لِيَعْقُوبَ الَّتِي آتَتْ إِلَى مِصْرَ، الْخَارِجَةِ مِنْ صُلْبِهِ، مَا عَدَا  
نِسَاءَ بَنِي يَعْقُوبَ، جَمِيعُ الثُّفُوسِ سِتٌّ وَسِتُّونَ نَفْسًا. ٢٧ وَابْنَا يَوْسُفَ اللَّذَانِ وَلِدَا  
لَهُ فِي مِصْرَ نَفْسَانِ. جَمِيعُ نَفُوسِ بَيْتِ يَعْقُوبَ الَّتِي جَاءَتْ إِلَى مِصْرَ سَبْعُونَ.  
٢٨ فَأَرْسَلَ يَهُودَا أَمَامَهُ إِلَى يَوْسُفَ لِيُرِيَ الطَّرِيقَ أَمَامَهُ إِلَى جَاسَانَ، ثُمَّ جَاءُوا  
إِلَى أَرْضِ جَاسَانَ. ٢٩ فَسَدَّ يَوْسُفُ مَرْكَبَتَهُ وَصَعِدَ لَاسْتِقْبَالَ إِسْرَائِيلَ أَبِيهِ إِلَى  
جَاسَانَ. وَلَمَّا ظَهَرَ لَهُ وَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَيَكِي عَلَى عُنُقِهِ زَمَانًا. ٣٠ فَقَالَ إِسْرَائِيلُ  
لِيُوسُفَ: «أَمُوتُ الْآنَ بَعْدَ مَا رَأَيْتُ وَجْهَكَ أَنْكَ حَيٌّ بَعْدُ».

٣١ ثُمَّ قَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ وَلِبَيْتِ أَبِيهِ: «أَضَعْدُ وَأُخْبِرُ فِرْعَوْنَ وَأَقُولُ لَهُ:  
إِخْوَتِي وَبَيْتُ أَبِي الَّذِينَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ جَاءُوا إِلَيَّ. ٣٢ وَالرِّجَالُ رُعَاةُ غَنَمٍ،  
فَلِئَلَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ مَوَاشٍ، وَقَدْ جَاءُوا بِغَنَمِهِمْ وَبَقَرِهِمْ وَكُلِّ مَا لَهُمْ. ٣٣ فَيَكُونُ إِذَا  
دَعَاكُمْ فِرْعَوْنُ وَقَالَ: مَا صِنَاعَتُكُمْ؟ ٣٤ أَنْ تَقُولُوا: عِبِيدُكَ أَهْلُ مَوَاشٍ مُنْذُ صِبَاَنَا  
إِلَى الْآنَ، نَحْنُ وَآبَاؤُنَا جَمِيعًا. لِكِنِّي تَسْكُنُوا فِي أَرْضِ جَاسَانَ. لِأَنَّ كُلَّ رَاعِي  
غَنَمٍ رِجْسٌ لِلْمِصْرِيِّينَ».

#### الإصحاح السابع والأربعون

١ فَأَتَى يُوسُفُ وَأُخْبِرَ فِرْعَوْنَ وَقَالَ: «أَبِي وَإِخْوَتِي وَغَنَمُهُمْ وَبَقَرُهُمْ وَكُلُّ مَا  
لَهُمْ جَاءُوا مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ، وَهُوَذَا هُمْ فِي أَرْضِ جَاسَانَ». ٢ وَأَخَذَ مِنْ جُمْلَةِ  
إِخْوَتِهِ خَمْسَةَ رِجَالٍ وَأَوْفَقَهُمْ أَمَامَ فِرْعَوْنَ. ٣ فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِإِخْوَتِهِ: «مَا  
صِنَاعَتُكُمْ؟» فَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: «عِبِيدُكَ رُعَاةُ غَنَمٍ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا جَمِيعًا». ٤ وَقَالُوا  
لِفِرْعَوْنَ: «جِئْنَا لِنَتَغَرَّبَ فِي الْأَرْضِ، إِذْ لَيْسَ لِعِغَمِ عِبِيدِكَ مَرْعَى، لِأَنَّ الْجُوعَ  
شَدِيدٌ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. فَالآنَ لِيَسْكُنْ عِبِيدُكَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ».

٥ فَكَلَّمَ فِرْعَوْنُ يُوسُفَ قَائِلًا: «أَبُوكَ وَإِخْوَتُكَ جَاءُوا إِلَيْكَ. ٦ أَرْضُ مِصْرَ

قُدَّامَكَ . فِي أَفْضَلِ الْأَرْضِ أَسْكِنُ أَبَاكَ وَإِخْوَتَكَ ، لِيَسْكُنُوا فِي أَرْضٍ جَاسَنَ .  
وَأِنْ عَلِمْتَ أَنَّهُ يُوجَدُ بَيْنَهُمْ ذُو قُدْرَةٍ ، فَاجْعَلْهُمْ رُؤَسَاءَ مَوَاشٍ عَلَى الَّتِي لِي»  
٧ ثُمَّ أَذْخَلَ يُوسُفَ يَعْقُوبَ أَبَاهُ وَأَوْفَقَهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ . وَبَارَكَ يَعْقُوبَ فِرْعَوْنَ .  
٨ فَقَالَ فِرْعَوْنَ لِيَعْقُوبَ : «كَمْ هِيَ أَيَّامُ سِنِي حَيَاتِكَ؟» ٩ فَقَالَ يَعْقُوبُ لِفِرْعَوْنَ :  
«أَيَّامُ سِنِي غُرْبَتِي مِئَةٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً . قَلِيلَةٌ وَرَدِيَّةٌ كَانَتْ أَيَّامُ سِنِي حَيَاتِي ، وَلَمْ  
تَبْلُغْ إِلَى أَيَّامِ سِنِي حَيَاةِ آبَائِي فِي أَيَّامِ غُرْبَتِهِمْ» . ١٠ وَبَارَكَ يَعْقُوبَ فِرْعَوْنَ وَخَرَجَ  
مِنْ لَدُنْ فِرْعَوْنَ .

١١ فَأَسْكَنَ يُوسُفُ أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَعْطَاهُمْ مُلْكًا فِي أَرْضِ مِصْرَ ، فِي أَفْضَلِ  
الْأَرْضِ ، فِي أَرْضِ رَعْمِيسَ كَمَا أَمَرَ فِرْعَوْنَ . ١٢ وَعَالَ يُوسُفُ أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ وَكُلَّ  
بَيْتِ أَبِيهِ بِطَعَامٍ عَلَى حَسَبِ الْأَوْلَادِ .

١٣ وَلَمْ يَكُنْ خُبْرٌ فِي كُلِّ الْأَرْضِ ، لِأَنَّ الْجُوعَ كَانَ شَدِيدًا جِدًّا . فَخَوَّرَتْ  
أَرْضُ مِصْرَ وَأَرْضُ كَنْعَانَ مِنْ أَجْلِ الْجُوعِ . ١٤ فَجَمَعَ يُوسُفُ كُلَّ الْفِضَّةِ الْمَوْجُودَةِ  
فِي أَرْضِ مِصْرَ وَفِي أَرْضِ كَنْعَانَ بِالْقَمْحِ الَّذِي اشْتَرَوْا ، وَجَاءَ يُوسُفُ بِالْفِضَّةِ إِلَى  
بَيْتِ فِرْعَوْنَ . ١٥ فَلَمَّا فَرَغَتِ الْفِضَّةُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ وَمِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ أَتَى جَمِيعُ  
الْمِصْرِيِّينَ إِلَى يُوسُفَ قَائِلِينَ : «أَعْطِنَا خُبْرًا ، فَلِمَاذَا نَمُوتُ قُدَّامَكَ؟ لِأَنَّ لَيْسَ فِضَّةٌ  
أَيْضًا» . ١٦ فَقَالَ يُوسُفُ : «هَاتُوا مَوَاشِيَكُمْ فَأَعْطِيَكُمْ بِمَوَاشِيَكُمْ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ فِضَّةٌ  
أَيْضًا» . ١٧ فَجَاءُوا بِمَوَاشِيِهِمْ إِلَى يُوسُفَ ، فَأَعْطَاهُمْ يُوسُفُ خُبْرًا بِالْخَيْلِ وَبِمَوَاشِيِ  
الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ وَالْحَمِيرِ . فَقَاتَهُمْ بِالْخُبْرِ تِلْكَ السَّنَةُ بَدَلَ جَمِيعِ مَوَاشِيِهِمْ .

١٨ وَلَمَّا تَمَّتْ تِلْكَ السَّنَةُ أَتَوْا إِلَيْهِ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ وَقَالُوا لَهُ : «لَا نُخْفِي عَنْ  
سَيِّدِي أَنَّهُ إِذْ قَدْ فَرَغَتِ الْفِضَّةُ ، وَمَوَاشِيِ الْبَهَائِمِ عِنْدَ سَيِّدِي ، لَمْ يَبْقَ قُدَّامَ سَيِّدِي  
إِلَّا أَجْسَادُنَا وَأَرْضُنَا . ١٩ لِمَاذَا نَمُوتُ أَمَامَ عَيْنَيْكَ نَحْنُ وَأَرْضُنَا جَمِيعًا؟ اِشْتَرِنَا  
وَأَرْضُنَا بِالْخُبْرِ ، فَتَصِيرَ نَحْنُ وَأَرْضُنَا عبيدًا لِفِرْعَوْنَ ، وَأَعْطِ بِذَرًا لِنَحْيَا وَلَا نَمُوتَ  
وَلَا تَصِيرَ أَرْضُنَا قَفْرًا» .

٢٠ فَاشْتَرَى يُوسُفُ كُلَّ أَرْضِ مِصْرَ لِفِرْعَوْنَ ، إِذْ بَاعَ الْمِصْرِيُّونَ كُلُّ وَاحِدٍ

حَقْلُهُ، لَأَنَّ الْجُوعَ اشْتَدَّ عَلَيْهِمْ. فَصَارَتِ الْأَرْضُ لِفِرْعَوْنَ. ٢١ وَأَمَّا الشَّعْبُ  
فَنَقَلَهُمْ إِلَى الْمُدُنِ مِنْ أَقْصَى حَدِّ مِصْرَ إِلَى أَقْصَاهُ. ٢٢ إِلَّا إِنَّ أَرْضَ الْكَهَنَةِ لَمْ  
يُسْتَرَهَا، إِذْ كَانَتْ لِلْكَهَنَةِ فَرِيضَةً مِنْ قَبْلِ فِرْعَوْنَ، فَأَكَلُوا فَرِيضَتَهُمُ الَّتِي أَعْطَاهُمْ  
فِرْعَوْنُ، لِذَلِكَ لَمْ يَبِيعُوا أَرْضَهُمْ.

٢٣ فَقَالَ يُوسُفُ لِلشَّعْبِ: «إِنِّي قَدْ اشْتَرَيْتُكُمْ الْيَوْمَ وَأَرْضَكُمْ لِفِرْعَوْنَ. هُوَذَا  
لَكُمْ بَذَارٌ فَتَزْرَعُونَ الْأَرْضَ. ٢٤ وَيَكُونُ عِنْدَ الْغَلَّةِ أَنْتُمْ تُعْطُونَ خُمُسًا لِفِرْعَوْنَ،  
وَالْأَرْبَعَةُ الْأَجْزَاءُ تَكُونُ لَكُمْ بَذَارًا لِلْحَقْلِ، وَطَعَامًا لَكُمْ وَلِمَنْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَطَعَامًا  
لأَوْلَادِكُمْ». ٢٥ فَقَالُوا: «أَحْيَيْنَا. لَيْتَنَا نَجِدُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْ سَيِّدِي فَتَكُونَ عَبِيدًا  
لِفِرْعَوْنَ». ٢٦ فَجَعَلَهَا يُوسُفُ فَرَضًا عَلَى أَرْضِ مِصْرَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ: لِفِرْعَوْنَ  
الْخُمُسُ. إِلَّا إِنَّ أَرْضَ الْكَهَنَةِ وَخَدَهُمْ لَمْ تَصِرْ لِفِرْعَوْنَ.

٢٧ وَسَكَنَ إِسْرَائِيلُ فِي أَرْضِ مِصْرَ، فِي أَرْضِ جَاسَانَ، وَتَمَلَّكُوا فِيهَا  
وَأَثْمَرُوا وَكَثُرُوا جَدًّا. ٢٨ وَعَاشَ يَعْقُوبُ فِي أَرْضِ مِصْرَ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً.  
فَكَانَتْ أَيَّامُ يَعْقُوبَ، سِتُّو حَيَاتِهِ مِئَةً وَسَبْعًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً. ٢٩ وَلَمَّا قَرُبَتْ أَيَّامُ  
إِسْرَائِيلَ أَنْ يَمُوتَ دَعَا ابْنَهُ يُوسُفَ وَقَالَ لَهُ: «إِنْ كُنْتُ قَدْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي  
عَيْنَيْكَ فَضَعْ يَدَكَ تَحْتَ فَخْذِي وَاصْنَعْ مَعِيَ مَعْرُوفًا وَأَمَانَةً: لَا تَدْفِنِي فِي مِصْرَ،  
٣٠ بَلْ أَضْطَجِعْ مَعَ آبَائِي، فَتَحْمِلْنِي مِنْ مِصْرَ وَتَدْفِنْنِي فِي مَقْبَرَتِهِمْ». فَقَالَ: «أَنَا  
أَفْعَلُ بِحَسَبِ قَوْلِكَ». ٣١ فَقَالَ: «اخْلِفْ لِي». فَحَلَفَ لَهُ. فَسَجَدَ إِسْرَائِيلُ عَلَى  
رَأْسِ السَّرِيرِ.

#### الإصحاح الثامن والأربعون

١ وَحَدَّثَ بَعْدَ هَذِهِ الْأُمُورِ أَنَّهُ قِيلَ لِيُوسُفَ: «هُوَذَا أَبُوكَ مَرِيضٌ». فَأَخَذَ مَعَهُ  
ابْنَيْهِ مَنَسَّى وَأَفْرَايِمَ. ٢ فَأُخْبِرَ يَعْقُوبُ وَقِيلَ لَهُ: «هُوَذَا ابْنُكَ يُوسُفُ قَادِمٌ إِلَيْكَ». فَتَشَدَّدَ إِسْرَائِيلُ وَجَلَسَ عَلَى السَّرِيرِ.

٣ وَقَالَ يَعْقُوبُ لِيُوسُفَ: «اللَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ظَهَرَ لِي فِي لُوزَ، فِي  
أَرْضِ كَنْعَانَ، وَبَارَكَنِي. ٤ وَقَالَ لِي: هَا أَنَا أَجْعَلُكَ مُثْمِرًا وَأَكْثُرَكَ، وَأَجْعَلُكَ

جُمُهورًا مِنَ الْأُمَمِ، وَأُعْطِيَ نَسْلَكَ هَذِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِكَ مُلْكًا أَبَدِيًّا. ٥ وَالآنَ ابْنَاكَ الْمَوْلُودَانِ لَكَ فِي أَرْضِ مِصْرَ، قَبْلَمَا أَتَيْتُ إِلَيْكَ إِلَى مِصْرَ هُمَا لِي. أَفْرَائِمُ وَمَنْسَى كَرَأُوبَيْنَ وَشِمْعُونَ يَكُونَانِ لِي. ٦ وَأَمَّا أَوْلَادُكَ الَّذِينَ تِلْدُ بَعْدَهُمَا فَيَكُونُونَ لَكَ. عَلَى اسْمِ أَخْوَانِهِمْ يُسَمَّوْنَ فِي نَصِيحِهِمْ. ٧ وَأَنَا حِينَ جِئْتُ مِنْ قَدَّانَ مَا تَتْ عِنْدِي رَاحِيلُ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ فِي الطَّرِيقِ، إِذْ بَقِيتَ مَسَافَةً مِنَ الْأَرْضِ حَتَّى آتَيْتُ إِلَى أَفْرَاتَةَ، فَدَفَنْتُهَا هُنَاكَ فِي طَرِيقِ أَفْرَاتَةَ، الَّتِي هِيَ بَيْتُ لَحْمٍ.

٨ وَرَأَى إِسْرَائِيلُ ابْنَيْ يُوسُفَ فَقَالَ: «مَنْ هَذَانِ؟». ٩ فَقَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ: «هُمَا ابْنَايَ اللَّذَانِ أَعْطَانِي اللَّهُ هَهُنَا». فَقَالَ: «قَدَّمَهُمَا إِلَيَّ لِأُبَارِكَهُمَا». ١٠ وَأَمَّا عَيْنَا إِسْرَائِيلَ فَكَانَتَا قَدْ ثَقُلَتَا مِنَ الشَّيْخُوخَةِ، لَا يَقْدِرُ أَنْ يُبْصِرَ، فَقَرَّبَهُمَا إِلَيْهِ فَقَبَّلَهُمَا وَاحْتَضَنَهُمَا. ١١ وَقَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ: «لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنِّي أَرَى وَجْهَكَ، وَهُوَذَا اللَّهُ قَدْ أَرَانِي نَسْلَكَ أَيْضًا». ١٢ ثُمَّ أَخْرَجَهُمَا يُوسُفُ مِنْ بَيْنِ رُكْبَتَيْهِ وَسَجَدَ أَمَامَ وَجْهِهِ إِلَى الْأَرْضِ.

١٣ وَأَخَذَ يُوسُفُ الْاِثْنَيْنِ أَفْرَائِمَ يَمِينِهِ عَنْ يَسَارِ إِسْرَائِيلَ، وَمَنْسَى يَسَارِهِ عَنْ يَمِينِ إِسْرَائِيلَ وَقَرَّبَهُمَا إِلَيْهِ. ١٤ فَمَدَّ إِسْرَائِيلُ يَمِينَهُ وَوَضَعَهَا عَلَى رَأْسِ أَفْرَائِمَ وَهُوَ الصَّغِيرُ، وَيَسَارَهُ عَلَى رَأْسِ مَنْسَى. وَضَعَ يَدَيْهِ بِفِطْنَةٍ فَإِنَّ مَنْسَى كَانَ الْبِكْرَ. ١٥ وَبَارَكَ يُوسُفَ وَقَالَ: «اللَّهُ الَّذِي سَارَ أَمَامَهُ أَبَوَايَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ، اللَّهُ الَّذِي رَعَانِي مُنْذُ وُجُودِي إِلَى هَذَا الْيَوْمِ، ١٦ الْمَلَائِكَةُ الَّتِي خَلَّصَنِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ، يُبَارِكُ الْعُلَمَاءَ عَلَيْهِمَا اسْمِي وَاسْمُ أَبِييَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ، وَلْيَكْثُرَا كَثِيرًا فِي الْأَرْضِ».

١٧ فَلَمَّا رَأَى يُوسُفُ أَنَّ أَبَاهُ وَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى رَأْسِ أَفْرَائِمَ، سَاءَ ذَلِكَ فِي عَيْنَيْهِ، فَأَمْسَكَ بِيَدِ أَبِيهِ لِيَنْثَقِلَهَا عَنْ رَأْسِ أَفْرَائِمَ إِلَى رَأْسِ مَنْسَى. ١٨ وَقَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ: «لَيْسَ هَكَذَا يَا أَبِي، لَأَنَّ هَذَا هُوَ الْبِكْرُ. ضَعْ يَمِينَكَ عَلَى رَأْسِهِ». ١٩ فَأَبَى أَبُوهُ وَقَالَ: «عَلِمْتُ يَا ابْنِي، عَلِمْتُ. هُوَ أَيْضًا يَكُونُ شَعْبًا، وَهُوَ أَيْضًا يَصِيرُ كَبِيرًا. وَلَكِنَّ أَخَاهُ الصَّغِيرَ يَكُونُ أَكْبَرَ مِنْهُ، وَنَسْلُهُ يَكُونُ جُمُهورًا مِنَ الْأُمَمِ».



٢٠ وَبَارَكْهُمَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قَائِلًا: «بِكَ يُبَارِكُ إِسْرَائِيلُ قَائِلًا: يَجْعَلُكَ اللَّهُ كَأَفْرَائِيمَ وَكَمَنْسَي». فَقَدَّمَ أَفْرَائِيمَ عَلَى مَنْسَي.  
 ٢١ وَقَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ: «هَا أَنَا أَمُوتُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سَيَكُونُ مَعَكُمْ وَيَرُدُّكُمْ إِلَى أَرْضِ آبَائِكُمْ. ٢٢ وَأَنَا قَدْ وَهَبْتُ لَكَ سَهْمًا وَاحِدًا فَوْقَ إِخْوَتِكَ، أَخَذْتُهُ مِنْ يَدِ الْأُمُورِيِّينَ بِسَيْفِي وَقَوْسِي».

بشكل عام نلاحظ أن المرويات التوراتية قدمت الأنبياء من إبراهيم وحتى يوسف بشخصيات فردانية واقعية بشكل طبيعي في حين أن القرآن الكريم أظهر الأنبياء برسالة وحدانية وطهرانية تليق بأنبياء الله.  
 وقد أشار زينون كاسيوفسكي في كتابه «الواقع والأسطورة في التوراة»، إلى ذلك بقوله: «لقد حاول الأخبار - محررو أساطير التوراة - إظهار إبراهيم نصيراً للوحدانية الصرف وأصبح معروفاً الآن أنهم لم ينجحوا في تحقيق ذلك ففي بعض النصوص بقي يَهُوَه يحتفظ ببعض صفات الإله القبلي البدائي».  
 كذلك نجد أن روحية النبوة لم ترافق أنبياء التوراة فظهروا بصورة الخاطئين والممارسين لشتى صنوف الخطيئة والاحتيال.

## فهرس الأعلام

### - ١ -

- آدم (النبي): ٧، ١٧، ٤٣، ٤٥، ٤٩، ١٠٨  
آذار: ٩٨، ١٠٢  
آشور: ٧٤  
آل فرعون: ٧٦  
إبراهيم (النبي): ٧، ٩، ١١، ٨٨، ٩١، ٩٤-١٠٦، ١٠٩-١١١، ١١٣-  
١١٨، ١٢١، ١٢٢، ١٢٨، ١٣١، ١٣٤، ١٣٩-١٤٢، ١٤٥، ١٥٣، ١٥٨-١٦٠، ١٦٥-١٧٠، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٨-١٨٢، ١٨٥، ١٨٩، ١٩٨، ٢٠٠-٢٠٢، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٥، ٢٢٣، ٢٣٤، ٢٦٤، ٢٣٩  
إبراهيم العموري: ١٧٠  
إبراهيم النخعي: ٢٢٨  
إبليس: ١٦٥  
ابن الأثير: ٤٤، ١٩٩  
ابن الأعرابي: ٢٢٨  
ابن عباس: ٢٠٧، ٢٣٦  
ابن عمر: ٢٠٧  
ابن فارس: ٥٣، ١٢٣، ١٥٤، ١٥٧  
ابن قيم الجوزية: ١٥٦  
ابن كثير: ٧٣، ٩٦  
ابن عمر: ١١٠  
ابن مسعود، عبد الله: ٤٤، ١١٠، ٢٣١  
ابن منظور: ١٢٢  
أبو سعد، رؤوف: ٥٧  
أبو هريرة: ٢٣٦  
الأخفش: ٤٣  
إدريس بن يارد بن مهليل: ٣٥  
الأزهري: ٤٣  
الأرازل: ٥٤، ٧٩  
إسحق (النبي): ٧، ١١٠، ١٢٦، ١٧٤-  
١٧٦، ١٧٩، ١٨١، ١٨٥، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٣-٢٠٨، ٢١٠، ٢١١، ٢٢٠-٢٢٦  
إسماعيل (النبي): ٧، ٩، ٧٣، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٩-١١١، ١١٣، ١١٦، ١١٨، ١٧٣، ١٨٥، ١٩٧-  
٢٦٥

- ١٩٩ ، ٢٠٢-٢٠٤ ، ٢٠٦-٢٠٨ ، ج - جبريل : ٢٣٥ ، ٢٢٠ ، ٢٣٦  
الأعرج : ٢٢٨  
أليعازر : ١٨٠  
إنليل (الإله) : ٣٠ ، ٣٥ ، ٣٩  
ابن عباس ، عبد الله : ٤٣ ، ٤٤ ، ٨٠ ، ٩٢ ، ١١٠  
أوتونابشيتم : ٤٠ ، ٤٢  
إير ، بيكو : ٧١  
إيل (الإله) : ٧٧  
إيلاشي ، شارل : ٧٠
- ب - داوود : ٢٣٩  
الديلي ، عبد الرحمن بن يعمر : ١٣٢
- ر - الرازي ، أبو فخر : ٤٢ ، ٨٧-٨٩ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٩ ، ١٣٤  
الرازي ، محمد بن أبي بكر : ٨٧ ، ٦٤
- ز - زاجيزي ، لوجال : ٥١  
زاريتز ، جوريس : ٦٨ ، ٦٩  
الزبيدي : ١٢٣  
الزمخشري : ٤٤ ، ١٢٣ ، ٢٣٠  
الزهدي : ١١٠  
زيوسودرا : ١٩-٢١ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢
- س - سارة : ٩٥ ، ٩٦ ، ١٧٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢١٢
- ب - البخاري : ٩٣ ، ٩٤ ، ١٩٩  
براندن : ٧٧  
برو : ٨١  
البستاني ، بطرس : ٧٣  
البيسي ، أبو الفتح : ١٣٥  
بطليموس الإسكندري : ٧٠ ، ٧٤  
بلقيس (الملكة) : ٥٤  
بلوم ، رونالد : ٧٠  
بليني الكبير : ٧٠  
بنيامين : ١٦٩ ، ١٧٧ ، ٢٥٥-٢٥٨
- ت - تارح : ١٦٧ ، ١٦٩-١٧١
- ث - ثمود (قبيلة) : ٧٣-٧٦ ، ٨٠ ، ٨١

عثمان بن عفان (الخليفة): ٢٣١

عكرمة: ١١٠

علي، بن أبي طالب (الإمام): ٤٣، ٤٥،

١٠٠، ١١٠، ١١٨، ٢٣١

علي، جواد: ٧٤

عمار، أرمند: ٧٠

عيسى: ١٠٤، ١٢٨، ١٣٨، ١٤٠،

١٤٥، ١٦٥، ١٨٠، ١٨٥

#### - ف -

فرعون: ٥٤، ١٠١، ١٠٤، ١٧١،

٢٤٩-٢٥١، ٢٥٩-٢٦١

فينيس، رانولف: ٦٩

#### - ق -

قارون: ٥٤

قتادة: ١١٠

قريش: ١٥٤

#### - ك -

كاسيدوفسكي: ٤٨، ١٦٩

كاسيوفسكي، زينون: ٤٨، ١٦٩، ٢٦٤

كعب الأحبار: ١١٠

كلاب، نيكولاس: ٦٨

الكلبي: ١١٠

كيلر: ١٩٣

#### - ل -

لوط (النبي): ١١، ٥٣، ٨٥، ١٧١،

١٨٥، ١٨٨-١٩٠، ١٩٢، ١٩٤،

١٩٥

سعيد بن جبير: ١١٠، ٢٠٧

سعيد بن المسيب: ١١٠

سليمان (النبي): ٢٣٩

سليمان بن عريب: ٢٣٦

سوسة، أحمد: ١٦٨

سيويه: ١٦٣

سيروح: ١٦٩

السيوطي: ٤٤

#### - ش -

شاروكين الثاني: ٧٤

الشافعي (الإمام): ٨٩، ١٥١

شحرور، محمد: ٩

الشعبي: ١١٠، ٢٠٧

شعيب (النبي): ٧، ٧٦، ٨٣-٨٦، ٨٨،

٨٩

#### - ص -

الصابوني: ٩٣

صالح (النبي): ٧، ١١، ٧٣، ٧٦، ٧٧،

٧٩، ٨١، ٨٣، ٨٤، ٩٥

الصليبي، كمال: ١٧٩

#### - ط -

الطبري، محمد بن جرير: ٩٢، ١١٨،

١٨٥-١٨٧، ١٩٩، ٢٠٤، ٢٠٦،

٢٠٧، ٢٢٥، ٢٤٠

#### - ع -

العباس: ١١٠، ١١٨

عبد الله بن عمرو: ١٩٩

الليثي، نافع بن عبد الرحمن: ٢٣١

هارون: ٩، ٢٣٩

هاريس، بيل: ٧١

هود (النبي): ٧، ٦١، ٦٢، ٦٥-٦٧،

٧٢، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٨٧، ٨٨

هيدج، جورج: ٧٠

- م -

ماريا القبطية: ٢٠٨

مالك (الإمام): ٢٣١

مجاهد: ٤٣

محمد (النبي): ٥١، ٨٥، ١١٨، ١٢٩،

١٣٨، ١٣٩

مريم: ١١٨

مسروق: ١١٠

المسعودي: ٧٣

المسيح بن مريم: ٧٩

معاوية بن أبي سفيان (الخليفة): ٢٤١

موسى (النبي): ٩، ٧٦، ٧٩، ٨٣،

٨٥، ١٠١، ١٠٢، ١١١، ١٢٧،

١٢٨، ١٣٦، ١٤٠، ١٤٥، ١٦٥،

١٦٦، ١٧٩، ١٨٥، ٢٣٧، ٢٣٩،

٢٤٢، ٢٤٣

- و -

وولي، ليوناردو: ٤٦-٤٨

- ي -

ياقوت الحموي: ١٣٠

يعقوب (النبي): ٧، ٩، ١٦٨، ١٧٥-

١٧٨، ١٨١، ١٩٨، ٢١٧-٢١٩،

٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٣٤،

٢٣٩، ٢٥٣، ٢٥٩، ٢٦٠

يهوه (الإله): ٣٥، ٣٩، ٤٠، ٤٢، ١٧٠،

يوسف (النبي): ٧، ٩، ٨٣، ١٢٦،

١٦٨، ١٧٧-١٧٩، ١٩٨، ٢٢٣،

٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣٠-٢٣٦، ٢٣٨-

٢٤٠، ٢٤٢-٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥٢،

٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٧-٢٦٤

- ن -

النمرود بن كنعان: ٩٢

نوح (النبي): ٧، ١١-١٣، ١٥، ١٦-

١٩، ٢٩، ٣٥-٤٧، ٤٩، ٥١، ٥٣،

٥٥-٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٥، ٦٦، ٧٢،

٧٦، ٧٩، ٨٠، ٨٥، ٩١، ٩٥

نيوتن، إسحق: ٢٣٧

- ه -

هاجر: ٩، ٩٥، ١٠٢، ١٧٣، ١٨٢،

١٩٩، ٢٠٧

## فهرس الأماكن

- البحر الأبيض المتوسط: ٤٨ ، ١٩٤  
 البحر الميت: ١٩٢-١٩٤  
 بحيرة طبرية: ١٩٢  
 بلاد الرافدين: ٤٨ ، ٤٩  
 بلاد الشام: ٤١ ، ٤٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٧٣ ،  
 ٨٣ ، ٩٦ ، ١٠١ ، ١١٠ ، ١٣٠ ،  
 ٢٠٥ ، ٢٠٨  
 بلاد ما بين النهرين: ١٨ ، ٤٦  
 بيت المقدس: ١١٠ ، ١١٩  
 بيروت: ١٥٥
- ت -  
 تبوك: ٧٣ ، ٨٣  
 تهامة عسير: ٧٣  
 تونس: ١٦٤
- ج -  
 جبال آراراط: ٣٨  
 جبل عرفة: ١٣٢  
 جبل قاسيون: ٩١  
 جبل نصير: ٤١
- أ -  
 آسيا: ٤٨  
 أدب (مدينة): ٥٠  
 أرض كنعان: ٤٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٩ ،  
 ٢٥٣ ، ٢٦٠  
 إرم (مدينة): ٦٨-٧٢  
 أريدو (مدينة): ٤٩ ، ٥١  
 أفغانستان: ١٥٧  
 أكشك (مدينة): ٥٠  
 أميركا، انظر الولايات المتحدة الأمريكية  
 الأناضول: ٥٥  
 أوان (مدينة): ٥٠  
 أور (مدينة): ٥٠ ، ٥١ ، ١٦٦ ، ١٦٧  
 أوروك (مدينة): ٢١ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥١  
 اي - آتا (مدينة): ٥٠  
 إيسن (مدينة): ٥١
- ب -  
 بابل: ٧٤ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ١٦٦-١٦٨  
 باد-تيرا (مدينة): ٤٩

- الجزيرة العربية: ٦٧، ٦٩، ٧٤، ٩٥،  
٩٦، ١٢١، ١٣١، ١٤٥، ١٥١
- جبرون: ١٧١
- ح -  
الحجاز: ٧٣، ٨٣  
حران: ٩٥، ٩٦، ١٦٧  
حضر موت: ٦٧، ٧٢
- خ -  
الخليج العربي: ١٦٦، ١٦٧  
خليج العقبة: ٧٣  
خمازي (مدينة): ٥٠
- د -  
دمشق: ٩، ٩١، ١٢٩  
ديار بكر: ٩٦
- ر -  
روما: ١٦٠  
الرياض: ١٢٩
- س -  
السامرة: ٧٤  
سبأ (مدينة): ٥٤  
سبار (مدينة): ٤٩  
سدوم (مدينة): ١٩٣، ١٩٤  
السعودية: ٨٣  
سوريا: ٤٨، ٧٣، ١٦٤
- ش -  
الشرق الأوسط: ١٦، ١٩٤
- شوروباك (مدينة): ٢٩، ٣٩، ٤٩
- ص -  
الصين: ٥٥، ٧٠
- ط -  
الطائف: ١٣٠
- ع -  
العالم الإسلامي: ٥٤  
عُبار (مدينة): ٦٨  
العراق: ٥٨، ٥٩، ٩٢، ٩٥، ١٣٠  
العقبة: ٧٤، ٨٣  
عمورة: ١٩٣  
عين وردان: ٤٣، ٤٥
- ف -  
فلسطين: ٧٤، ٩٦، ١٧١
- ق -  
القاهرة: ١٥٥
- ك -  
كلدان: ٩٢  
الكوفة: ٤٣، ٤٥  
كيش (مدينة): ٥٠، ٥١
- ل -  
لارسا (مدينة): ١٦٦  
لدك (مدينة): ٤٩  
لندن: ١٢٩  
ليبيا: ١٦٤

اليمن: ٦٧، ١٣٠، ١٦٤

ينبع: ٧٤

- م -

ماري (مدينة): ٥٠

المدينة المنورة: ٧٤، ١١٩، ١٢٩،

١٣٠، ٢٣١

مزرعة أبرام: ١٦٦

المشرق العربي: ٧٧، ١٦٦، ١٦٨

مصر: ٩، ٥٩، ٧٤، ٧٦، ٨٣، ١٠١،

١٥٥، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٨، ١٧١،

١٧٨، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٨، ٢٥١،

٢٥٢، ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٢

مكة المكرمة: ٥٥، ٧٤، ١٠٦، ١٣٠

المويلح: ٧٤

- ن -

ناحور (مدينة): ١٦٧، ١٦٩، ١٧٠،

١٧٤، ١٧٥

- ه -

الهند: ٤٣-٤٥، ٥٥، ٧٠

- و -

وادي دجلة: ٤٧

وادي سديم: ١٩٢، ١٩٣

وادي الفرات: ٤٧

وبار - عُبَّار (مدينة): ٦٨

الولايات المتحدة الأميركية: ١٥٥

ولاية كاليفورنيا: ٦٩

- ي -

اليابان: ٥٥

يثرب: ٧٤





## فهرس المصطلحات

### - أ -

- آلهة الخلود: ٥٩  
الآلهة المعبودة: ١٧  
الأبحاث الأنثروبولوجية: ١٨  
الأبحاث التاريخية: ١٨  
الإيمان: ١٧

### - ب -

- بر الوالدين: ١٦ ، ١١٤  
البطانة الصالحة: ٥٤  
البعثة النبوية: ٥٥  
بنو إسرائيل: ١٧ ، ٣٩ ، ٧٦ ، ١٥٤ ،  
١٧٩ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩  
بيت مال الله: ٢٤١  
البيولوجيا: ٤٩

### - ت -

- التاريخ الإنساني: ١٢  
التأمل: ١١٧ ، ١٣٧ ، ١٦٢ ، ١٦٧  
التجريد: ١١٥  
التحريف: ٩٤  
التحريم: ١٠٦

- إعجاز القرآن: ٥٨  
الأقمار الصناعية: ٥٩  
الأكديون: ٤٨  
الإنجيل: ٩٣ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ٢٢٠ ،  
٢٢١  
الإنسان: ١٢ ، ١٣ ، ١٨ ، ٣٦ ، ٣٩  
الإنسان العاقل: ١٣  
إنسان نياندرتال: ١٣

ج -	التراث: ١٤٥ ، ١٤٣ ، ٤٥
الجنة السومرية: ١٩ ، ٤٢	التراث التوراتي: ٤٩
الجنس البشري: ١٦	التشريع: ١٧
ح -	التصوف: ١٢٩
الحج: ١٧ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٠	التفسير: ٤٥
١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٣٢-١٣٥ ، ١٣٧	التلمود: ٢٠٣
١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٣-١٤٦ ، ١٥٩	التمثيل: ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٠
٢٠٥	١٦٢
الحجاب: ١٦٤	تمثال بوذا: ١٥٧
الحجر الأسود: ١٥٨	التنزيل الحكيم: ١٣ ، ١٥ ، ١٦ ، ٤٢
حرب الخليج: ٧٠	٤٦ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٦٣-٦٥ ، ٦٧
الحرية: ١٦٤	٧٦ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢
الحضارة الرومانية: ٧٠	٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٢
الحقائق الأثرية: ١٦٦	١٠٨ ، ١١٠ ، ١٢٤ ، ١٣١ ، ١٣٤
الحنفية: ٩١	١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٩
الحواجر المائية: ١٧	١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٨٥ ، ١٨٧
الحياة الخالدة: ٢١ ، ٤٢	١٨٨ ، ١٩٧-١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٥
ر -	٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٨
الرجس: ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٥٦	٢٤٢
رمضان: ١٣٣	التنقيبات الأثرية: ١٨ ، ٤٧ ، ٦٨
الرواية التوراتية: ٣٥	التنور: ٤٣-٤٥
رواية الطوفان: ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٩	التوحيد: ١٢ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ٨٥
٣٥ ، ٣٠	٩٣ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٦١ ، ١٦٨
ز -	٢٤٠
الزراعة البعلية: ٤٨	التوراة: ١٨ ، ١٩ ، ٣٥ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٦
الزراعة المروية: ٥٤	٥٨ ، ٩٣ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٢
الزكاة: ١٢٠ ، ١٩٨	ث -
الزنا: ١٨٧	الثقافة الثمودية: ٧٤ ، ٧٥
	الثقافة العبيدية: ٤٨ ، ٥٣

- عبادة القمر: ١٦٧  
العصية العشائية: ٨٦  
العصر الإبراهيمي: ١١٦  
عصر التدوين: ٢٢٨  
العصر النبوي: ١٣٥  
العقل الإنساني: ٤٥  
العقل النقدي: ٥٥  
علم الأنساب: ٧٢  
العلمانية: ٢٤٠  
عليم التاريخ: ٤٩، ١٦٦  
العمارة الدينية: ٤٩  
العُمر: ١٤١، ١٣٣
- غ -  
الغاز الطبيعي: ١٩٣  
غزوة تبوك: ١٤٤
- ف -  
الفراغة: ٤٩  
الفقه: ١٤٥، ١٥١، ٢٣١، ٢٤١  
الفكر العربي الإسلامي: ١٦٤
- ق -  
قبيلة عاد: ٦٧  
القرآن الكريم: ٧، ٨، ١٩، ٥٣، ٦٨، ٦٩، ٧١، ٧٢، ٨٥، ٨٩، ١٠٤  
١٦٦، ١٦٩، ١٦٩، ١٩٤، ٢٦٤
- ك -  
الكعبة المشرفة: ٥٥  
الكنعانيون: ١٠١
- س -  
السحاق: ١٨٧، ١٨٨  
السحر: ١٦٥  
السفينة البابلية: ٤١  
سفينة نوح: ٣٩، ٤٠، ٤٧  
سوق عُمان: ٧٠  
السومريون: ٤٨، ٤٩، ٥١  
السيرة النبوية: ١٥٧
- ش -  
الشخصية اليهودية: ١٩  
الشرك: ١٥٤
- ص -  
الصابئة: ١٨٢  
الصحابية: ١٥٦  
الصلاة: ١٧، ١٠١، ١٠٥، ١٠٧  
١١٥-١١٧، ١١٩، ١٢٠، ١٣٢  
١٤٦، ١٥٨، ١٩٧  
الصوم: ١٧، ١٢٠، ١٢٥، ١٢٦  
١٣٣، ١٤٦
- ط -  
الطواف: ١٥٨  
الطوفان: ٢٩، ٣٥، ٣٩-٤٢، ٤٥-٥١  
٥٣، ٥٥، ٦٦، ٨٠  
الطوفان البابلي: ٢١، ٢٩  
الطوفان التوراتي: ٣٥
- ع -  
عبادة الأصنام: ١٥٤، ١٦٦

- ل -

- اللغات الأوروبية: ٥٨  
اللغات القديمة: ٥٨، ٥٩  
اللغة الآرامية: ٥٨  
اللغة الكنعانية: ٥٨  
اللواط: ١٨٨

- م -

- مجمع الآلهة الثمودي: ٧٧  
المحرك البخاري: ١٢  
المرجعيات اللغوية: ١٢٣  
المستشرقون: ٧٦  
المسيحية: ١٧٩، ١٨١  
معبد الكرنك (مصر): ١٥٧  
معهد الدفع النفاث: ٧٠  
معهد كاليفورنيا للتقنية: ٦٩  
مكتبة الإسكندرية: ٧٠  
مكتبة هتنتغتون: ٦٩  
الملا الاقتصادي: ٥٣  
الملا الديني: ٣٥، ٥٤  
الملا السياسي: ٥٣، ٥٤  
ملحمة أتراخيس: ٣٠، ٣٣، ٣٤، ٤٠  
ملحمة جلجامش: ٢١-٢٤، ٢٨، ٢٩  
مملكة عاد: ٦٩، ٧٢  
المواد الإسفلتية: ١٩٣  
المواد النفطية: ١٩٣  
الموسوعة الكاثوليكية: ٥٦  
الموسوعة اليهودية: ٥٦  
موقع سدوم: ١٩٢

- ن -

- النجس: ١٥٠  
النص التوراتي العبري: ٥٦  
النصاري: ١١٦  
النصوص البابلية: ٣٥، ٤١  
النصوص السومرية: ٤١  
النقوش الثمودية: ٧٥، ٧٧، ٧٨

- ه -

- الهكسوس: ٩، ٢٤٢

- و -

- الوثائق التاريخية: ٤٩  
الوثائق السومرية - البابلية: ٥٠  
الوحي: ١٦، ٥٥  
الوصايا العشر: ١١١، ١٦١  
وكالة الفضاء الأميركية: ٧٠

- ي -

- اليهود: ٤٨، ٧٦، ٨٩، ١١٦، ١١٩،  
١٤٨، ١٦٩، ١٨١  
يوم التروية: ١٣١  
يوم الحشر: ٦٥  
يوم عرفة: ١٣١  
يوم القيامة: ٩٤، ١٢٦

## فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآية	الصفحة
آل عمران	١٩	١٢٨
	٣٣	١٦٣
	٤٣	١١٧
	٤٤	٢٣٧
	٦٢	٢٤٢
	٦٦	١٢٠
	٨٥	١٢٨
	٩٣	٦٣
	٩٦-٩٧	١٠٦، ١١٣، ١٢٠، ١٢١، ٢٠١
	٩٧	١٣٧، ٢٠٥
	١٢٤-١٢٥	٥٢
إبراهيم	١٧٩	١٢٩
	٣٧	٨، ١٠١-١٠٣، ١٠٥، ١٢١
	٤١	١٠٧، ٢٠٠
	٣٩	٢٠٢
الأحزاب	١٠	٦٤
الأحقاف	٢١	٦٧، ١١
الإسراء	٣٢	٢٣٤
	٤٠	٦٥

الصفحة	الآية	السورة
٧٦	٥٩	
١٦٤	٨٢	
١٦٥	١٦-١٧	الأعراف
٧	١٩	
١٤١	٣٥	
١٨	٦٣	
٦٦	٦٥ ، ٧١	
٧٤	٧٣ ، ٦٥ ، ٥٩ ، ٨٥	
٨٠	٧٨	
٨٥ ، ٨٣	٨٥	
٤٥	٩٧-٩٨	
٨٥	١٠٣	
١٠٤	١٢١-١٢٢	
١١٥ ، ٩٧	٥١	الأنبياء
١٦٠ ، ٩٩	٥٢	
٩٩	٥٢-٧٠	
١١٢	٧٨	
١١٢	٧٩	
١١٢	٨٠	
١٣٨	١٠٧	
٩٨	٤٦	الأنعام
١٠١	٧٥	
٩٦	٧٦-٧٩	
١٢٠	٨٠	
١٨٥	٨٦	
١٤٠	١٥٨	
٥٥	١٦٤	
١١٧	٣٥	الأنفال

السورة	الآية	الصفحة
البروج	١٧-١٨	٨
البقرة	١٩	٨٠
	٣١	١٦٣
	٣٥-٣٦	٧
	٣٧-٣٨	١١
	٩٦	٥٢
	١٢٤	٩٧ ، ١١٤ ، ١٣٨
	١٢٥	٩ ، ١٠٣ ، ١٥٩ ، ١٩٧
	١٢٤-١٢٦	١١٥ ، ١٢٤
	١٢٧	٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣
	١٣٣	١٠٤
	١٤٤	١١٩
	١٥٨	١٢١ ، ١٢٢
	١٨٥ ، ٢٣٣	١٣٣ ، ١٢٤
	١٩٦	١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٨٧
	١٩٧	١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٢ ، ١٩٧
	٢٠٣	١٣٠ ، ١٣٤
	١٩٨	١٢٢
	٢١٠	١٤٠
	٢٤٨	١٤٠
	٢٥٣	١١١
	٢٥٨	٩٢ ، ٩٩
	٢٦٠	١٠٠ ، ١٠١ ، ١٦٦
	٢٨٦	١٣٣ ، ٢٢٩
البينة	١	١٤٧
	٦	١٤٧
التحریم	٧	٩٤
	١٠	١٦١ ، ١٨٥ ، ١٨٦



الصفحة	الآية	السورة
١٨٦	١٢	
١٤٨	١	التوبة
١٤٣ ، ١٢٠	٣	
١٤٤	٤	
١٤٤	٥	
٢٣٠	١٢	
١٤٧ ، ١٤٦	٢٨	
١٣٠	٣٦	
١٣٤	٣٧	
٢٣٧	٢٩	الجاثية
١٦١	٥	الجمعة
٢٣٨	٢٧-٢٦	الجن
٢٠١ ، ١١٥	٢٦	الحج
١٣٩ ، ١٣٤ ، ١٣١	٢٧	
١٣٩ ، ١٣٤ ، ١٣١ ، ١٣٠ ، ٦٣	٢٨	
١٥٥ ، ١٥٤ ، ٦٣	٣٠	
٦٣	٣٤	
١١٣	٣٧	
١٠٥	٧٨	
٨٧	٣٤	الحجر
٢٠٢	٥٦-٥١	
٢٠٢	٥٣	
١٨٩	٧٤-٧٣	
٧٣	٨٠	
١٣٧	١٣	الحجرات
٩٤	١٥	الحديد
١٤١	٧	الحشر

السورة	الآية	الصفحة
الرحمن	٧٢ ، ٥٦	٧٩
الرعد	٦ ٣٥	١٦٠ ١٦١
الروم	٤-٢ ٢١	٢٣٨ ٢٣٣
الزخرف	٢٢	١٥٨
الزمر	٣٠ ٦٥	١٤١ ١٦١
سبأ	١٣	١٦٠
السجدة	٥	٥٢
الشعراء	٨٨ ١٠٥ ١٢٣ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٢-١٣٣ ١٣٣ ١٦٥-١٦٦	٦٥ ١٥ ، ١٦٣ ٦٧ ٦٥ ٦٦ ٦١ ٦٤ ١٨٨
الشورى	٣-١ ١١ ١٩	١٦ ١٦٢ ١١٢
الصفات	٩٥ ٩٩ ١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠١-١٠٢	١٦٦ ٢٠٦ ، ٢٠٢ ، ١٢١ ، ١٠١ ٢٠٧ ، ٢٠٦ ٢٠٢ ٢٣٦ ، ٢٠٣ ، ١٩٩ ١١٠

السورة	الآية	الصفحة
	١١٠-١٠٣	١١٢
	١٠٦	١١١
	١٠٨	٢٠٢
طه	١٠	١٣٦
	١١٥	١٣٥
الطور	٣٤	٨
العلق	١٠-٩	١١٨
العنكبوت	١٤	٤٩
	١٧	١٥٣
	٢٥	١٥٣
	٢٦	٢٠١
	٢٨ ، ٢٩	١٨٦
	٤١	١٠٧
الغاشية	١	٨
غافر	٣١-٣٠	٧٦
	٣٧-٣٦	١٠٤
فاطر	٢٤	١١
الفتح	٢	١٢٥
الفجر	٨	١٦٠
	٨-٦	٦٨ ، ٦٧
	٩	٧٧
الفرقان	٧٣	١٠٠
فصلت	١٦	٦٦
القدر	٣	٥٢
القصص	٣	١٢٧
	٧	٢٣٨
	٢٧	١٢٤ ، ١٢١

السورة	الآية	الصفحة
القلم	٤٠-٣٥	١٥٦
	٤٤	٨
القمر	١٣	١٨
	١٨	٦٧
	١٩	٦٦
	٣٧-٣٤	١٨٩
الكهف	٥	١٤٩
	٢٢	٨٨
	٤٦	٦٤
	٧٤	١١١
لقمان	١٤	١٢٧
المائدة	٣	١٢٣ ، ١٢٨
	٤	١٢٩
	٣١-٢٧	١٢
	٣٢	١١١
	٧٥	٢٣٦
	٩٥	٦٢
	٩٧	٢٠١
	١١١	٢٣٨
المدثر	٥	٢٠١
مريم	٤١	٢٣٦
	٤٥-٤٢	٩٨
	٤٦	٢٠١ ، ٨٨
	٥٥-٥٤	١٩٧
	٥٦	٢٣٦
	٧٥	٢٣٦
الملك	٥	٨٨

السورة	الآية	الصفحة
الممتحنة	٤	١٣٤
المؤمنون	٢٤	١٥ ، ١١
	٢٧	٤٤ ، ٤٢
النازعات	٣٣-٣١	٦٢
النجم	٥٠	٦٧
النحل	٧-٥	٦٢
	٧٢	٦٥
	٨٠	٦١
	١٢٠	١٠٠
	١٢٤	١٣٤
النساء	٣٤	٢٠١
	٤٨	٩٤
	٩٧	٢٠١
	١٠٨	١٠٦
	١١٦	١٦١
	١٥٢	١٢٩
	١٦٣	١٥
التمل	٤٨	٧٩
	٧٦	٨
نوح	١٢-١٠	٤٦
	١٦-١٥	١٦
	٢٣-٢٤ ، ٢٥ ، ٢٨	١٦٤ ، ١٧
	٢٧-٢٦	٥٥
	٢٨	٤٦ ، ١٥
النور	٨	٨٩
	٢٧	١٣٥
	٣٥	١٦٢

الآية	الصفحة	السورة
٣٦	١٠٧	
٦٠	١٠٤	
٣٢	١٦	هود
٣٧	٢٣٨ ، ١٧	
٤٢-٤١	٥٥	
٤٣	٦٥	
٥٩ ، ٥٣	٦٧	
٦٦-٦٥	٨١	
٦٧	٨٠	
٧٣-٧١	٢٠٢	
٨٢	١٨٨	
٩١	٨٨ ، ٨٦	
١٢	٢٣٧	يس
٧٩ ، ٧٨ ، ١٣	١٦٢	
٨٠	١٢	
٤	١١١	يوسف
٦	٢٣٥ ، ١٢٤	
٨	٢٢٥	
١٠	٢٢٥	
١٢	٢٢٦	
١٣	٢٢٦	
١٥	٢٣٨	
٢١	٢٣٢	
٢٢	٢٣٩	
٢٣	٢٣٣	
٢٤	٢٣٥	
٣١	٢٣٢	
٣٣	٢٣٤ ، ٢٣٢	

الصفحة	الآية	السورة
٢٣٤	٣٤	
٢٣٥	٣٥	
٢٣٩	٤٠-٣٩	
٢٤٠	٥٥	
٢٢٤	٨٥	
٢٢٦	١٠٠	
٢٩٩	١١١	يونس
١٠٥	٩٠	

DAR  
AL SAQI



دار الساقى

ISBN 978-1-85516-807-7



9 781855 168077 >